وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي

الدكتور حسان محمد حسان



بسم الله الرحمن الرحيم

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » .

صدق الله العظيم

« سورة آل عمران »

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــــديم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد :

فهذا هو البحث (السادس) من منشورات الرابطة في سلسلة بحوثها العلمية الجادة التي قامت بنشرها في حملتها لمواجهة طوفان المبادئ الهدامة والغزو الفكري الخبيث الذي تتعرض له أمتنا في دينها وعقيدتها .

وكان أول ما نشرته الرابطة في هذا الباب من حيث التتابع الزمني هو بحثها عن (المسلمون في المعسكر الشيوعي) لسعادة الدكتور علي الكتاني الأستاذ بجامعة البترول والمعادن بالظهران والذي عالج فيه أوضاع المسلمين وما يتعرضون له من تحد في الاتحاد السوفيتي والصين وألبانيا . . الخ .

وكان الثاني هو دراسة أعدها الأستاذ أبو الحسن الندوي ، والأستاذ أبو الأعلى المودودي ، وفضيلة الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق عن (القاديانية ماهي) .. أوضحوا فيها خطر هذه النحلة المارقة الضالة وخصائص مذهبها المناهض للإسلام وتاريخها المشين في علاقاتها بالاستعمار وخدمتها لأهدافه المعادية للإسلام .

ثم كان الثالث هو المحاضرة القيمة التي دُعي إليها معالي وزير الإعلام الدكتور محمد عبده يماني بوصفه مدير جامعة الملك

عبد العزيز في عام ١٣٩٤هـ . وكان موضوع المحاضرة عن : (حماية الثقافة العربية من الغزو الفكري) وقد نشرها معاليه بعد ذلك .

أما الحلقة الرابعة في هذا الباب فكانت لسعادة الدكتور عبد الصبور مرزوق المدير العام للرابطة في كتابه (الغزو الفكري أهدافه ووسائله) والذي نشرته الرابطة في طبعتين الأولى عام ١٣٩٤هـ . والثانية عام ١٣٩٧هـ . كما قامت بترجمته إلى أربع لغات عالمية حتى الآن هي الإنجليزية ، والفرنسية ، والتركية ، والأردية وتجري الآن ترجمته إلى الاندونيسية ،والهوسا والتي سيتم طبعها جميعاً بإذن الله .

وكانت الحلقة الخامسة من حيث التتابع الزمني في سلسلة جهود الأمانة العامة للرابطة لمواجهة هذا الطوفان الفكري الزاحف كانت لسعادة الأمين العام المساعد للرابطة الأستاذ محمد صفوت السقا أميني ، وصحبه فيها فضيلة الأستاذ سعدي أبو جيب مدير المجمع الفقهي بالرابطة آنذاك وكانت دراسة علمية موفقة له عن الماسونية عالجت نشأتها وأهدافها ووسائلها في تزييف الشعارات وخداع الأفراد والشعوب وخدمة الأهداف الخبيثة للصهيونية العالمية آخر الأمر . هذا إلى جانب بحث سعادته عن (المسلمون في الاتحاد السوفيتي) والذي قامت بنشره الرابطة .

وليس هذا فقط هو جهد الرابطة في حملتها لمواجهة الغزو .. بل إن ثمة عشرات المئات من المقالات والبحوث والنشرات

والمحاضرات والندوات والتصريحات التي أذاعتها الرابطة في كل المناسبات تفضح بها أهداف هؤلاء الغزاة ، وتكشف عن أباطيلهم في الكيد لديننا العظيم حتى لا يسقط فيها الغافلون ، ولا يقع في شراكها المخدوعون ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيي عن بينة ، ولكي يقف المسلمون على حقيقة الخطر المحيط بهم فيحذروه ويواجهوه .

ويأتي هذا البحث القيم عن (وسائل مقاومة الغزو الفكري) ليضع لبنة أخرى في جدار المقاومة الذي تبنيه الرابطة بين مجموعة وسائلها للدفاع عن الدين ومجاهدة أعدائه .

وإذ نشكر للمؤلف الدكتور حسان محمد حسان جهده المخلص في متابعة بحثه بوعي نفاذ وموضوعية جيدة ، فإنا نسأل الله تبارك وتعالى أن ينفع به وبنظائره من البحوث الواعية القيمة ، وأن يعين أمتنا على معرفة عدوها والقدرة على مواجهته والانتصار عليه ، كما نسأله سبحانه أن يوفق الجميع لما يحبه ويرضاه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الأمين العام
محمد علي الحركان

مقدمـــة

الغزو الفكري للعالم الإسلامي حقيقة واقعة تبدت في الماضي ، وتتجلى في الحاضر ، ويخطط لها في المستقبل . وعندما نقول « حقيقة واقعة » فنحن لا نتوهم أشباحاً ، أو نفترض فروضاً ، بل نذكر بما يفكر فيه الخصوم ، وننبه لما يدبره الأعداء .

فعشرات الأجهزة : شرقية وغربية ، سرية وعلنية ، حكومية وأهلية ، دينية وإلحادية ، عسكرية ومدنية ، تجمع صفوفها ، وتحشد قواها ، لغزونا من الداخل ، بعد انحسار مرحلة الغزو من الخارج . ومع أن الغزو الخارجي ليس مستحيلا — وأفغانستان خير دليل وشاهد — إلا أن الغزو الداخلي أكثر استقراراً ، وأرسخ دعائماً ، وأعتى نفوذاً ، بدون إبرار جوي ، أو إحراج دولي ! !

فالتوازن الدولي قد يُهدَّد بالغزو الخارجي . .

وإتفاق الشرق والغرب قد يُحرج بالاحتلال العسكري . .

أما الغزو من الداخل فلعبة التوازن الدولي فيه محفوظة ، والمصالح مأمونة ، والدماء مصانة . .

لهذا كله — ولغيره — فمقاومة الغزو الفكري ليست ترفاً فكرياً ، أو محاربة طواحين هواء ، بل شرط وجود ، وجوهر بقاء . .

فبقاؤنا مرتبط ليس بقدرتنا على التناسل ، بل على المقاومة ، والفعل ، وإثبات الذات ، وتقرير المصير ، وفرض الوجود .

وإذا كان الغزو الفكري مؤامرات وتهديدات ، فإن لمقاومته مبررات وتأكيدات يحسن الوقوف عندها في هذه المقدمة . ولعل هذه المبررات يمكن بلورتها في النقاط السبع التالية :

أولاً : شرف الديانة التي ننتسب إليها :

وهذه الديانة لا صلاح لنا إلا بنهجها ، ولا بقاء لنا إلا بهديها . من هنا لم تكن صدفة ، أو عفوية ، أن كثيراً من القوى تآلبت علينا تبغي لديننا استئصالا ، ولرايتنا انتكاساً . . فعلى قدر شرف الرسالة ، تكون شراسة الهجوم . .

ولو كان الإسلام دين خمول ، أو بلادة عقلية ، أو طقوس مبهمة لما خطط للهجوم عليه ، والنيل منه ، كثير من القوى ، وعديد من الأطراف . وإلا فقل لي من الذي هاجم — أو يهاجم — ديانات وضعية مثل البوذية والكونفوشسية ؟ من الذي هاجم — أو يهاجم — ديانات تحرفت مثل اليهودية والمسيحية ؟

لن تجد هجوماً إلا على الإسلام ، لسبب جد بسيط ، لأنك لن تجد عقيدة حية ، ولا تنظيماً شاملا ، ولا فكراً متكاملا ، إلا في الإسلام .

لهذا كله ، سددت الطعنات ، ووُجهت السهام ، ودُبرت المؤامرات .

ثانياً : العداء الأبدي بين الشر والخير :

وهذا العداء قديم قدم الشر والخير ، تجلى في صور مختلفة ، وبأشكال متباينة . وإذا كنا اليوم نمثل جوهر الإيمان والنقاء فكراً ، وما يزيد عن

٨٠٠ مليون عدداً ، وما يقرب من ٤٠ دولة امتداداً ، فإن الغزو يفترض أننا فقدنا رصيدنا الإيماني ، وتخلينا عن عمقنا الدفاعي .

وواقع الأمر ، أننا ما زلنا نملك هذا الرصيد ، ونحتمي بهذا العمق ، إلا أن البعض نثر التراب — قصداً أو جهلا — على منبعنا الثر فغاب عن أنظار البعض ، وتكدر ماؤه في أفواه آخرين . إلا أن الأصل باق ، والنبع صاف ، والعمق كاف ، وكل ما نحتاجه إرادة التصميم ، وصلاح القدوة ، واستمرار الدفع . .

وإذا كان البعض قد ازورّ عن أحكام الإسلام ، وابتعد عن جوهر الإيمان في سلوكه وفعله ، فقد يكون السبب هو الجهل وعدم معرفة جادة الطريق :

فبيننا الآن عشرات الملايين من المسلمين نشأوا في بيئات لا تعرف قليلا أو كثيراً عن الإسلام ، أو تقدمه للناس بصورة مشوهة ، أو على أنه « طعام محفوظ » منذ أربعة عشر قرناً ! !

وبداية — وبدون استباق للأحداث — فجزء كبير من المسئولية يقع على عاتق قيادات ومنظمات العمل الإسلامي ، قبل أن يقع على عاتق الغزاة والمبشرين .

ثالثاً : شراسة الهجوم :

وهذا الهجوم يتمثل في ثالوث الشر المعاصر : الاستعمار ، والصهيونية ، والشيوعية . وهذا الثالوث ، سطوح متداخلة ، في منشور زجاجي واحد ، وليس قطعاً متناثرة ، أو أقطاباً متنافرة . فالثالوث مجموعة خيوط متشابكة ، يظهر بعضها ويختفي الآخر ، إلا أن الأصل واحد ، والقاعدة مشتركة ، والأهداف متداخلة .

صحيح قد تظهر على السطوح فروق وشقوق ، إلا أن الأحداث المتتالية ، وفحصها بنظرة متأنية ، تكشف عما بين هذا الثالوث من صلات ، وعما يدبره لنا من مؤامرات .

وبطبيعة الحال ، هذه المخططات ، ليست قصصاً بوليسية ، بل جهد خارق ، يستغرق أعواماً ، تدير دفته أجهزة معقدة ، تُنفق عليه الملايين ، وتُحشد له أرقى الخبرات ، وأعلى الكفاءات . من هنا نجد داخل أجهزة الغزو الفكري خبراء وعلماء في مختلف العلوم النفسية ، والاجتماعية ، و(الأنثربولوجية) ، واللغات ، والأساطير ، والاقتصاد ، والسياسية ، (والاستراتيجية) ، بهدف التسلل الثقافي ، ومحو الذاكرة ، وغسل المخ .

وقد يبدو ذلك – أو بعضه على الأقل – من قبيل التهويل والتجسيم ، إلا أنه الواقع المر ، والحقيقة المؤلمة . .

والمعروف أن الغزو الأرضي يحتاج خبراء وعلماء في الأرصاد الجوية ، الجغرافية ، التربة ، طبقات الأرض ، الاقتصاد ، التدريب ، التعبئة ، التخطيط ، (الاستراتيجية) .. الخ ونحن نزعم أن الغزو الفكري أعقد من ذلك وأعمق .

فهو لا يتحدى أرضاً بل عقلا ، لا يواجه جيشاً بل شعباً ، لا يحتل مساحة بل ثقافة ، لا يغزو موقعاً بل شخصية ، لا يسمم بئراً بل بلداً ، لا يدمر معدات بل ثقافة . لهذا كله كان أعقد وأعمق ، وبحاجة إلى جهد خارق ، وصبر طويل ، وتسلل ذكي .

رابعاً : تنوع جوانب الهجوم :

لم يقتصر الغزو على جانب من حياتنا بل شمل الاقتصاد ، الأرض ، السياسية ، القانون ، التعليم ، الإعلام ، الفن ، اللغة ، التقاليد ، الأزياء . . الخ .

باختصار ، شمل العقل والنقل ، الدين والدنيا ، ما فوق الأرض وما تحتها ، ما فوق السطح وما تحت السطح .

وإذا كانت هذه هي طبيعة الهجوم ، فينبغي أيضاً أن تكون طبيعة الدفاع لحماية الأرض وصاحب الأرض ، للدفاع عن التاريخ والحاضر ، لتحصين الشباب والمستقبل . وتحصين المستقبل نقطة غاية في الأهمية :

فالغزو يستهدف مسخ هذا المستقبل وصناعته وفقاً لمطامعه ، وعلينا نحن تحصينه بحيث يأتي معنا لا ضدنا ، لصالحنا لا للتآلب علينا .

وإذا دققنا البصر نجد أن الغزو يستهدف شباب هذه الأمة قبل شيوخها ، يستطلع مستقبل هذه الأمة أكثر من حاضرها بهدف تشكيل شباب منسلخ عن أمته ، زائغ عن ثقافته . والأمثلة كثيرة ، والوقائع متعددة . .

ورغم كل هذه المؤامرات والمحاولات يتدفق الشباب المسلم الواثق بعقيدته ، المتمسك بدينه ، الرافض لكل صور الانحراف والضلال . فمن حيث أرادوا بالإسلام شراً ، أراد الله له الخير فأصبحت ظاهرة الشباب المسلم ملفتة للأنظار ، وضد توقعات الآلات الحاسبة ، (والأيديولوجيات) الحزبية التي تصورت أن الساحة خالية إلا منها فاكتشفت زيف ادعاءاتها ، وفشل مخططاتها . فمن حيث أراد الغزو الفكري جعل العلمانية فلسفة حياة ونظام مجتمع ، تفجرت انتفاضات ذكية ، وتألقت ومضات لامعة حتى في مجتمعات فرضت عليها العلمانية منذ ستين عاماً ، وروج فيها للمذاهب الهدامة منذ نصف قرن أو يزيد ، وحكمتها هذه المذاهب الهدامة بالحديد والنار .

خامساً : تعدد اشكال الهجوم :

إذا كان الهجوم لم يقتصر على جانب واحد ، فإنه أيضاً لم ينحصر في شكل واحد : فتارة يأتي من الخارج ، وتارة من الداخل . تارة يهجم

بأساليب مباشرة ، وتارة يتسلل بأساليب خفية . تارة يتحلق علينا من عل ، وتارة يتسرب إلينا من أسفل . تارة يتصدره رجال دين ، وتارة يقوده سياسيون وعلماء . تارة يرتدي رداء الكهنوت ، وتارة مسوح الأطباء . تارة بالتهجم على ديننا ، وتارة باصطناع مذاهب ونسبتها إلى الإسلام لتدميره من الداخل . تارة بتصفية قيادات ، وتارة بتصعيد أخرى . تارة بشراء الذمم ، وتارة بتوزيع القمح واللبن . تارة بالتهديد ، وتارة بالتهويد . تارة بالتمييع ، وتارة بالتجويع . تارة بالفكر المضلل ، وتارة بالمدفع المهدد . تارة بالمساعدات ، وتارة بقطع العلاقات . تارة بالتحالف مع المسلمين ، وتارة باحتلال المسلمين . تارة بزرع الفتن ، وتارة بالتدخل لقمع الفتن . تارة بالتنكيل ، وتارة بالتضليل . تارة بالاتفاق مع أقليات ، وتارة بتصدير أقليات . تارة بالتسرب إلى منظمات ، وتارة بصناعة أخرى . تارة بإعداد إنقلابات ، وتارة بالانقلاب على ثورات . تارة بإنشاء كيانات ، وتارة بتصفية أخرى . تارة باحتلال القدس ، وتارة بادعاء العمل لتحرير القدس . تارة باحتلال أفغانستان ، وتارة بالمطالبة للتحالف لتحرير أفغانستان . تارة بالمهادنة ، وتارة بالمقاطعة . تارة بتسريب السلاح ، وتارة بمنع السلاح . تارة بإنشاء إسرائيل ، وتارة بالدعوة للاعتراف بإسرائيل . تارة بالفرنسة ، وتارة بانجلزة . تارة بالأمركة ، وتارة بالمركسة . .

عشرات الأشكال ، وعديد من الألوان ، تتحرك على جهات مختلفة ، وبمستويات متنوعة من خلالها تتوطد السيطرة ، وتتعمق محاولات إذابة الشخصية الإسلامية .

وإذا كان الغزو بهذه الشراسة والتعدد ، فلا بد أيضاً أن تكون مقاومتنا بنفس الدرجة والعمق ، بذات الأهمية والضرورة .

ومن الخطأ الجسيم أن تتضاءل أشكال الدفاع ، بينما أشكال الهجوم متعددة . .

ومن الخطأ أن تتحول أشكال الدفاع إلى وعظ وخطابة ، بينما أشكال الهجوم متعمقة متحصنة . .

ومن الخطأ أن يغرق الدفاع في سذاجة وسطحية ، بينما أشكال الهجوم تضم أعتى العقول وأكبر الإمكانات . .

لهذا كله – ولغير هذا كله – ينبغي لوسائل المقاومة أن تتفوق على وسائل الهجوم لكي تبطل مفعولها ، وتمحو آثارها ، ثم تتحول من موقف الدفاع إلى الهجوم ، من موقف الصد إلى الحركة ، من موقع الحماية إلى الانطلاق . .

سادساً : استمرار دفعات الهجوم :

الغزو – تاريخاً وحاضراً ومستقبلا – لم يتوقف ، ومن ثم فالمقاومة ينبغي أن تستمر لا تهدأ ولا تفتر . وخلال حركتها ، عليها أن توضح الماضي ، تدافع عن الحاضر ، تحمي المستقبل .

توضح الماضي بالكشف عن عظمته وجلاله ، روعته وهيبته ، وتنقي ما به من عيوب وانحرافات ، أخطاء وآثام . وهذه نقطة غاية في الأهمية :

فليست هناك أمة لم يحمل تاريخها قليلا – أو كثيراً من النقاط السوداء والبقع المظلمة . علينا أن نعترف بذلك ، وننطلق لعلاج آثاره ، ومحو نتائجه . أما تصور عكس ذلك ، فسذاجة مفرطة ، تضر ولا تنفع .

فالبعض قد يتصور أن تجاهل النقاط السوداء أو تبريرها يضمن تشكيل جيل خال من العقد، ناصع الانتماء ، بينما الواقع – في تقديري – عكس ذلك :

فإذا لم نكشف لجيلنا الجديد عن عيوب وأخطاء تاريخنا ، فسنقع فريسة سهلة لمحاولات تجسيم هذه العيوب ، وتضخيم هذه الأخطاء .

لنعترف بها أولا ، لكي نزود جيلنا الجديد بالقدرة على المناقشة ، بإمكانية المناورة ، بدلا من أن يصم آذانه ، أو يسقط فريسة التجسيم والتضخيم .

وتدافع عن الحاضر :

الدفاع الذكي ، وبالشهادة الحقة . .

في كثير أو قليل من الحالات ، تتصور سلطات الدول الإسلامية أن وظيفة جميع المنظمات ينبغي أن تنحصر في الحمد والشكر دون النقد والعلاج . والنتيجة النهائية — لمثل هذا التصور — أن الشاب المسلم يجد نفسه في موقف حرج :

جميع المنظمات تلهج بالشكر والدعاء ، بينما عوامل الفساد من حوله مسيطرة ، ومظاهر التآكل من حوله محيطة . .

لهذا أقول من الضروري والحيوي لجميع حكوماتنا الإسلامية أن تعي جيداً أن الدفاع عن الحاضر لا يعني تبرئته من كل ذنب ، ومدحه بكل وصف عذب ! ! فمثل هذا التصور السطحي يجعل مقاومة الشباب ضعيفة ، ونسيجه هشاً .

لهذا أيضاً فليس من المستغرب أن بعض شبابنا يلتهب حماسة وتنفتح شهيته للثقافة الغربية لما يسمعه عنها ، أو يشاهده فيها من حرية ومناقشة ، دفاع وتحليل ، رد وعتب ، استجواب واستفسار ،ومصارحة ومواجهة . .

وتحمي المستقبل :

بالإعداد له ، والاستعداد لمواجهته ، والإصرار على صناعته بالطريقة

التي تتناسب مع ديننا ، وترتبط بقيمنا ، وتناسب حجم التحديات ، وعبء المطالب . .

من هنا يصبح المستقبل لنا لا علينا ، معنا لا ضدنا ، لصالحنا لا لصالح الأعداء . ولا يمكن أن يتم كل ذلك من غير وعي وبصيرة ، ومن غير تخطيط وتدبر .

وفي كثير من الحالات فإن الذي يسمح لأعدائنا بالنجاح ليس فقط تفوقهم ، بل أيضاً تقصيرنا وعدم حسابنا الدقيق . من هنا يخطط الأعداء لعشرات السنوات القادمة ، بينما ننشغل نحن بالحاضر الراهن ، وربما ننشغل عنه ، وننصرف إلى معارك جانبية ، ودروب فرعية . .

لهذا أُكرر القول أن ميدان المعركة ، ومواقعها الأساسية ، ما زالت في دفتر المستقبل . وبقدر قراءتنا لهذا الدفتر ، وبقدر قدرتنا على صناعة أحداثه ، بقدر نجاحنا أو فشلنا . وإذا قصرنا أو أهملنا فليس من حقنا أن نلوم أحداً ، وليس من حقنا أن نتهم الآخرين لأن العيب فينا ، و الخطأ خطؤنا . فليس من العقل أو العدل في شيء أن ندخل السباق بدون استعداد ، أو ندلف إلى قاعة الاختبار من غير دراسة واستذكار . .

سابعاً : الطمع فى ثرواتنا :

ما يملكه العالم الإسلامي من ثروات طبيعية ، وموقع استراتيجي ، وسوق للتسويق ، وأيد عاملة رخيصة ، ورصيد مالي مطمع لثالوث الشر المعاصر . ومن ثم ، تُنصب الشباك ، وتزرع الفخاخ على أساس أنه لا سيطرة على هذه الثروات ، إلا بتذويب الشخصيات .. فلكي تخلص لهم ثرواتنا ، لا بد أن تخضع لهم سياستنا . ولا يمكن أن تخضع ، إلا إذا ذابت شخصياتنا .

فاحتلال الشخصية ، أهم من احتلال منابع النفط . .

والسيطرة على العقول ، أهم من السيطرة على الأسواق . .

والتجربة الإيرانية خير دليل وشاهد :

فالمصالح الاستعمارية أيقنت أن استنزافها للبترول الإيراني مرتبط بمدى نجاحها في تذويب الروح الإسلامي ، وتغريب الشخصية الإيرانية ، والقضاء على التنظيم والمنظمات الدينية ، وتصعيد قيادات بهائية وماسونية تجهر بعدائها للدين الإسلامي ، وتوثيق علاقات إيران بإسرائيل . . الخ وبذلك كله تم السيطرة على منابع النفط ، وترسيخ القواعد الأمريكية ، وزرع النفوذ الصهيوني .

فالعقل طريق إلى الثروة . .

والشخصية مفتاح الأرض . .

والتربية أعمق جذوراً من القواعد العسكرية . .

والتطبيع خير طريق للتطويع . .

والإعلام والبث أفضل من القهر والقمع . .

وإذا لزم القهر والقمع فلا بد من قيادات محلية تمارس ذلك بدلا من القوات الأجنبية والسلطة الخارجية . .

لهذا كله كان لا بد من الغزو الفكري لكي يتمكن ثالوث الشر المعاصر من أن يُحكم قبضته ، ويغلغل نفوذه ، ويزرع مبادئه ، ويعمق جذوره .

ولهذا كله كان لا بد من مقاومة الغزو الفكري لكي نعود إلى منبعنا الثر ، وديننا الحنيف ، وشخصيتنا الحقيقية .

تأسيساً على المبررات السبعة السابقة أضحت المقاومة ضرورة حياة ، وجوهر وجود ، ومبرر بقاء . ضرورة مثل التنفس والغذاء ، بل لا تنفس ولا غذاء من غير النقاء الفكري والروح الإسلامي . فما معنى أن نتنفس التغريب والتهويد ؟ وما ضرورة أن نتغذى بالسموم ؟ وما مبرر أن نعيش أسرى الأعداء إقتصاداً ، وسياسية ، وفكراً ؟

لهذا كله تتضح أهمية هذا البحث : « وسائل مقاومة الغزو الفكري لعالمنا الإسلامي » .

وبطبيعة الحال ، يستحيل التعمق في هذه الوسائل من غير تناول للغزو الفكري : تاريخه ، أهدافه ، وسائله . وكان هذا محور الفصلين الأول والثاني حيث بلورت فيهما القضايا من غير تفاصيل ، لأن التفاصيل محور بحوث وكتب أُخرى في هذه السلسلة وخارجها .

ثم يأتي الفصل الثالث مركزاً على أُسس المقاومة لتوضيح معالمها كي تصبح فعالة ضد التلوث الفكري ، والهجمات الشرسة ، والتسمم المقصود الموجه ، ومن أجل تحصين المسلم ، وتزويده بطاقات الدفاع ، وإمكانات التضحية .

بعد ذلك تتبلور تفاصيل الوسائل في الفصل الرابع بحيث نعالج الوسائل : المباشرة وغير المباشرة ، النظامية واللانظامية ، الجماعية والفردية ، الداخلية والخارجية ، البشرية والمادية ، الدفاعية والهجومية ليصبح المسلم المعاصر طاقة تتجاوز الهجمات ، وقوة تجتاز الأزمات . .

وفي الختام نصل إلى الفصل الخامس الذي يستهدف وضع ملامح لخطة مستقبلية تحافظ على عالمنا الإسلامي ، وتذود عن حياضه الفكرية والجغرافية والاقتصادية والبشرية . وبطبيعة الحال ، هذه الملامح مجرد سوانح وخطرات

وليست خططاً مفصلة موضح فيها توزيع جميع الأدوار والمسئوليات . ومثل هذه الخطط يصعب على فرد واحد ، أو كاتب واحد ، أن ينسج ملامحها ، بل هي بحاجة إلى جهد خبراء ، وتكاتف فريق ، وتنسيق دول ، وتوحيد جهود . ولقد أثبتت التجارب أن الاجتهاد الفردي ، والمبادهة الشخصية قليلة الفعالية في هذا الموقف .

فالموقف لا يعالج بجهود متناثرة ، أو خطب رنانة ، أو انفعالات محمومة بل يحتاج جهداً متكاملا ، وإمكانات مالية وبشرية مشرفة ، ومخططات واضحة القسمات والمراحل ، محددة الأهداف والغايات . ولا بد أن يقيم هذا المخطط كل فترة بحساب ودقة ، حتى لا تضيع جهودنا عبثاً ، أو نخسر جولة تلو جولة بدون مراجعة حسابنا القديم ، والجديد ، وقوائم المكسب والخسارة .

وعندما أقول حساب الأرباح والخسائر ، فلا بد من وقفة قصيرة . .

فالبعض يتصور أننا في حالة خسارة مستمرة ، أو ربح دائم ! !

وكلا الموقفين باطل ، تعوزه الدقة ، ويفتقد الموضوعية . وواقع الأمر ، أن الرصيدين يتحركان معاً ، والذي يرجح هذه الكفة أو تلك : جهد المسلمين ، ومدى وعيهم ، ونوع حساباتهم ، ودرجة إصرارهم ، ونوع تربيتهم ، ومستوى إنتاجهم ، وعمق ترابطهم ، ومدى حرصهم على دينهم .

والسؤال الأساسي :

كيف نزيد رصيد المكاسب ونقلل رصيد الخسارة ؟

كيف ينطلق العالم الإسلامي بذكاء وعمق لمواجهة ما يحاصره من خبث وتآمر ؟

هذا ما ستحاول الصفحات التالية المشاركة في الإجابة عليه ، ونرجو أن يكون بها بعض النفع للإسلام والمسلمين ، وعلى الله قصد السبيل .

الفصل الأول

تاريخ الغـــزو الفكرى

يعالج هذا الفصل تاريخ الغزو الفكري لعالمنا الإسلامي ، ثم ينتقل الفصل الثاني لمناقشة أهداف هذا الغزو ، وتحليل وسائله التي حاول بها السيطرة على الشخصية الإسلامية .

وبداءة فلا بد من عدة تحفظات :

التحفظ الاول :

إستحالة عرض تاريخ الغزو من أول مراحله ، وفي جميع أطواره . فمثل هذا العرض – كما سبق القول – بحاجة إلى مؤلفات خاصة بعضها مطبوع باللغة العربية وبغيرها من اللغات ، وبعضها سبق نشره أو سينشر في هذه السلسلة .

التحفظ الثانى :

إستحالة تحليل الغزو لجميع أقطار العالم الإسلامي . فمثل هذا التحليل بحاجة إلى موسوعات ضخمة ، وجهد فريق متعاون . لهذا سيكتفى هذا التحليل بعرض نماذج وأمثلة ، ووقائع وحالات .

التحفظ الثالث :

استحالة مناقشة جميع أهداف ، وكافة وسائل الغزو . ومثل هذه المناقشة بحاجة إلى إحاطة وتعمق غير متوافرة لكاتب هذه السطور . لهذا سنكتفي المناقشة بعرض أمثلة للأهداف ، ونماذج للوسائل ، ولعل الجزء يعطي صورة عن الكل ، ولعل الإشارة تعطي فكرة عن الإفاضة .

بناء على ثلاثة التحفظات السابقة سنكتفي بعرض عدة مراحل هامة في تاريخ الغزو الفكري لعالمنا الإسلامي . ويمكن بلورة هذا التاريخ في ثلاث المراحل التالية :

- الحروب الصليبية .
- الاستعمار .
- التبشــير .

أولاً : مرحلة الحروب الصليبية

قد يتصور البعض أن هذه المرحلة موغلة في القدم ، وليس لها تأثير على الواقع الراهن . وحقيقة الأمر ، أن هذا الماضي ما زلت بصماته واضحة في الحاضر ، وما زال صداه يتردد في جنبات اليوم . فحاضر اليوم ، ثمرة ماضي الأمس . ولهذا علينا أن ننقب عن الجذور ، ونكشف عن الأصول .

وفي تقدير بعض الباحثين ـ منهم محمد أسد ـ أن الحروب الصليبية هي التي عينت في المقام الأول والمقام الأهم موقف أوربا من الإسلام لبضعة قرون ، وربما إلى يومنا هذا . ولقد كانت هذه الحروب حاسمة لأنها حدثت

في أثناء طفولة أوربا ، مما أحدث أثراً من أعمق الآثار وأبقاها في نفسية الشعب الأوربي . فلقد أثارت حمية جاهلية ، وحماساً ، ونشوة لم تشهدها أوربا من قبل ، وربما لم تشهدها من بعد (١) . .

ويعود «محمد أسد» فيؤكد أن أوربا قبل الحروب الصليبية كانت قبائل وشعوباً متفرقة ، ومع الحرب والمواجهة ، التعبئة والحشد ، أثناء التحالف والاتحاد ، داخل القارة الأوربية وعلى الأرض العربية ، بدأت تتولد فكرة « المدينة الغربية » (٢) وأصبحت هدفاً تسعى إليه جميع شعوب القارة ، معادية للإسلام ، متجنية عليه ، متعصبة ضده .

واضطر الإسلام إلى أن يحتمل نار الحروب الصليبية في أشكال كثيرة ، وتحت أقنعة متعددة ، ولسنين متتالية ، وفي حلقات متتابعة . ولم يقتصر الأمر على الدم الإسلامي العربي الذي سال لمدة ثلاثة قرون .. ولم يقتصر على صليل السلاح ولكنه كان قبل كل شيء وفي مقدمة كل شيء شراً ثقافياً . لقد نشأ تسميم العقل الأوربي عما شوهه قادة الأوربيين من تعاليم الإسلام ومثله العليا أمام الجموع الجاهلية في الغرب (٣) .

ومع أن أوربا استفادت كثيراً من فترة الحروب الصليبية : علماً ، وفناً ، وأدباً ، وترجمة ، واستفادت من الحضارة الإسلامية التي عاشت

---

(١) محمد أسد ـ الإسلام على مفترق الطرق ـ ترجمة : عمر الفروخ · دار العلم للملايين · الطبعة الثامنة ١٩٧٤ ، ص ٥٥ ـ ٥٦ ·

(٢) هذه الفكرة أكدها أيضا واحد من كبار مؤرخى العصور الوسطى الأوربية هو المؤرخ البريطانى فشر ـ راجع : هـ·فشر ، تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، الجزء الأول ترجمة : محمد مصطفى، زيادة والسيد الباز العرينى · دار المعارف ١٩٧٦ ص ١٩٢ ·

(٣) محمد أسد · الإسلام على مفترق الطرق · المرجع السابق ص ٥٨

في كنفها ما يقرب من ثلاثة قرون . ومع أن أوربا توحدت مشاعرها ، وانصهرت شعوبها بفعل عوامل كثيرة من بينها الحروب . مع كل ذلك ، فإن النتيجة النهائية التي عادت على العالم الإسلامي هي البغضاء والكره ، والعداء والإصرار على تدميره !!

ولم يقتصر هذا الكره والعداء على قطر أوربي واحد ، بل شملها جميعاً فتغلغلت هذه الكراهية في قلوب الجميع . والغريب أنها ظلت حية متأججة في جميع مراحل التطور والتغير الثقافي الأوروبي . ورغم أن التطورات فرضت متغيرات كثيرة إلا أن العداء ظل واضح البصمات ، يظهر بصور مباشرة وغير مباشرة ، بأساليب عدوانية وأخرى تحايلية .

وعلى الرغم من فترة الإصلاح الديني الأوربي ، وما صاحبها من انقسام إلى شيع وفرق متناحرة ، إلا أن العداء للإسلام ظل لا يخبو ، ولا ينطفيء . .

وعلى الرغم من أن القرن الثامن عشر وما بعده طغت فيه الروح العلمانية ، وانفصلت الدولة عن الكنيسة ، وصار الدين عندهم مجرد طقوس وعبادات ، إلا أن العداء استمر من الجميع باستثناء القليل النادر من القاده والمفكرين الذين نظروا للإسلام نظرة إنصاف وإحقاق ، فأعطوه حقه – أو جزءاً من حقه – وتعاملوا معه بموضوعية ،

مجمل القول كما يقول محمد أسد ، أن « روح الحروب الصليبية – في شكل مصغر على كل حال – ما زال يتسكع فوق أوروبا ، ولا تزال مدنيتها تقف من العالم الإسلامي موقفاً يحمل آثاراً واضحة لذلك الشبح المستميت في القتال» (١)

---

(١) المرجع السابق ص ٦١ .

وإذا كانت النصوص السابقة جميعها مستمدة من كتاب واحد ، فليس معنى ذلك أن فكرتها لم ترد إلا في مرجع واحد ، بل العكس هو الصحيح . .

فلقد وردت الفكرة في عشرات المصادر الأولية والثانوية ، لمفكرين مسلمين وغير مسلمين ، باللغة العربية وغير العربية ، في وقتنا الراهن وقبل ذلك . ولعلي آثرت الاستعانة بكتاب « محمد أسد » لسبب نفسي وفني . .

فمحمد أسد هو الصحفي والمفكر النمساوي « ليوبولد فايس » الذي تحرك للعالم الإسلامي سنة ١٩٢٢ لكي يراسل مجموعة من الصحف الأوروبية الكبرى . ومن طول معاشرته ، وعمق تفاعله مع العالم الإسلامي غزا الإسلام قلبه وأسر لبه . وبعد أربع سنوات عاد الرجل إلى أوروبا وأشهر إسلامه ، وتفرغ للدرس والفحص ، وعندما أصدر كتابه المشار إليه ، كتبه نتيجة معايشة ومغايرة ، معايشة للدين الإسلامي ، ومغايرة للثقافة المسيحية الأوروبية . .

لهذا عندما توقفت كثيراً عند تحليلات « محمد أسد » كنت أقصد ذلك عامداً ، حتى نقف على تحليل جاء محصلة معاناة ، وثمرة مجاهدة ومقارنة واستدلال .

وقضية الصلة بين الحروب الصليبية والغزو الفكري وردت في كثير من الكتب والمراجع ، ناقشتها ، وكشفت عن معالمها . . وبعض هذه الكتب أصدرها باحثون مسلمون ، وبعضها أصدره باحثون أوروبيون وبعضها أصدره مستشرقون . .

ولن نقف كثيراً عند التفاصيل والتطورات ، لكن تكفي إشارة لما أكد ، عدد من الباحثين الأوروبيين سيئي النوايا ، فاسدي التفسيرات ، إلا أن لهم مجموعة أفكار وتأويلات تستحق العناية . من ذلك مثلا ما قرره جاردنر Gairdner في كتابه « لوم الإسلام(١) » عن الحروب الصليبية وكيف أن الصليبيين خاب

(1) Gairdner. W.H.T. The Reproach of Islam. London 1909.

ظنهم في انتزاع القدس من أيدي المسلمين ليقيموا عليها دولة مسيحية في قلب العالم الإسلامي . . فالحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ هذه المدينة بقدر ما كان هدفها تدمير الإسلام وتحطيم المسلمين(١) . .

ومع أن « جاردنر » مفكر انجليزي قلبه طافح بالحقد على الإسلام والمسلمين وتكفي إشارة لعنوان كتابه ! ! — إلا أن ما ذكره هو كبد الحقيقة ، وعين الصواب . فالحروب الصليبية لم تكن لتحرير القدس من نير المسلمين ، أو لمجرد إتاحة الفرصة للحجاج المسيحيين لزيارة بيت المقدس ، بل كانت حرباً مقدسة ضد الإسلام والمسلمين ، وامتصاصاً لثرواتهم ، وتحطيماً لدولتهم الكبرى ، ومنعاً لانتشارهم ، وتخريباً لمدنيتهم ، وتسميماً لثقافتهم .

ولعل أوضح دليل على ذلك أن شعار الحروب الصليبية « اتجهوا إلى بلاد المسلمين حيث تتدفق الأرض عسلا ولبنا » ! ! أو « لنتجه شرقاً حيث كنوز الذهب والفضة ، وخيرات القمح والفاكهة . . أما « بيت المقدس » و « كنيسة القيامة » فكل هذه رموز وأستار ، شعارات وعباءات اختفت تحتها الأطماع ، وتجرثمت النوايا السيئة . .

وإلى الفكرة نفسها يشير كاتب آخر احترف الهجوم على الإسلام والمسلمين أعني الكاتب الأرمني « لطفي ليغونيان » صاحب عدة كتب للنيل من الإسلام ، ورسول الإسلام عليه الصلاة والسلام(٢) . والمهم عندنا ما ذكره «ليغونيان»

---

(١) IBID P. 221.

(٢) من هذه الكتب باللغة الانجليزية :

— لطفى ليغونيان : الإسلام والمسيحية — الصادر فى لندن سنة ١٩٤٠.
Lootfy Levonian. Islam and Christianity. London 1940.

و — لطفى ليغونيان : العقلية الإسلامية الصادر في لندن سنة ١٩٢٨ .
Lootfy Levonian. Moslem mentality. London 1928.

في نقطة الحروب الصليبية ، وكيف أن الصليبيين حاولوا انتزاع القدس من أيدي المسلمين بالسيف ليقيموا للمسيح (عليه السلام) مملكة في هذا العالم . ولكنهم لم يستطيعوا إقامة هذه المملكة ، وكانت النتيجة النهائية أنهم زرعوا العداوة والبغضاء ، والحقد والكراهية . ونضيف إلى نص « ليغونيان » أنهم – أي الصليبيين – تعمدوا إحراق البيت من الداخل بعد أن فشلوا في غزوه من الخارج ، وتعمدوا إشاعة الفرقة والشحناء بعد أن فشلوا في السيطرة على المواقع الاستراتيجية واستنزاف الموارد الاقتصادية . .

ومع أن كتابات « جاردنر » ، و « ليغونيان » مليئة بالحقد والدس ، بالتعصب والكراهية ، إلا أننا استعنا بتفسيرات متزنة أبدوها في هذه النقطة ، وأجلوها في هذه المعالجة . وهذه نقطة غاية في الخطورة والأهمية :

كيف نقتبس من مفكر نحن نشك في نواياه ، ونؤمن بخداعه ؟

كيف نستفيد من كتابات وتفسيرات الأعداء ؟

كيف نلتقط الجوهر ؟

وبطبيعة الحال ، هؤلاء الكتاب على درجة من الحصافة والمهارة ، الفصاحة والدراية بحيث يدسون السم في العسل ، ويخلطون التراب بالتبر ، ومن ثم من الممكن أن يقع فريسة فكرهم القاريء إذا لم يكن أكثر وعياً منهم ، وأمهر حجة من حجتهم .

المهم ، أن الحروب الصليبية لم تنته باندحار الصليبيين ورحيلهم بالبحر ، بل امتدت ناراً متأججة ، وسعيراً كامناً ، وشراً مستطيراً ، يظهر في أشكال مختلفة ، ويتحوصل في مظاهر متباينة . .

فإذا فشل الغزو الأرضي ، فلينشط الغزو الفكري . .

وإذا رحلت السفن بالجند ، فلترسو أخرى بالمبشرين ! !

وإذا فشلت الخطط الحربية ، فلتبدأ الخطط الاقتصادية والنفسية والعقلية . .

وواقع الأمر ، أن الحروب الصليبية لم تنته :

لقد هدأت فقط ، وتشكلت بأساليب مبتكرة تتناسب مع طبيعة التحدي ، ومطالب العصر . .

وعندما نقول أنها لم تنته ، فليس ذلك من قبيل التلاعب اللفظي ، أو المبالغة الأدبية . . وأوضح دليل على ذلك . صدر من القيادات البريطانية بعد ما يزيد عن سبعة قرون من انتهاء الحروب الصليبية . .

فالجنرال اللنبي — قائد القوات البريطانية التي دخلت القدس سنة ١٩١٨ — قال عبارته المشهورة « الآن انتهت الحروب الصليبية » ! ! وعندما دخل دمشق وقف عند قبر صلاح الدين متشفياً منذراً « ها قد عدنا إليك يا صلاح الدين » ! !

والجنرال اللنبي ، ليس بقسيس أو مبشر ، بل هو رجل مسئول ، وقائد محنك ، وعسكري مقتدر هزم بقايا الإمبراطورية العثمانية ، وشيعها إلى مثواها الأخير ، ورفع الرايات البريطانية على عدة عواصم عربية . .

إذن النقمة لم تكن لهزيمته ، بل هزيمة الصليبيين . .

والتشفي لم يكن في أعدائه المباشرين ، بل في أعدائه الأقدمين . .

والمواجهة الحقيقية ليست مع إمبراطور برلين ، بل مع الملك صلاح الدين ! !

لهذا تصادمت بريطانيا مع ألمانيا عشرات المرات ، إلا أنهما استطاعا امتصاص الغصة ، وابتلاع الهزيمة ، وعدم التباهي بالنصر : فتآلفا وتعاونا ، بل وانتظما في حلف الأطلسي ، ثم في السوق الأوروبية المشتركة ، وأخيراً البرلمان الأوروبي الموحد . .

لكن ما هكذا الوضع مع الإسلام والمسلمين . .

فالعداء أبدي ، والحرب سجال ، والصراع تاريخي ، والانتقام مستمر ، والتنكيل لا يتوقف ، والعداء لا ينقطع . .

فبعد حرب استمرت ما يقرب من عشر سنوات – في الحربين العالميتين الأولى والثانية – يتحالف الجنرالات الألمان مع البريطانيين ، وتصالح الساسة الألمان مع البريطانيين ، وبدلا من أن تتوجه المدافع إلى الداخل اتجهت إلى الخارج ، وبدلا من أن تصرف الجهود للاستنزاف الداخلي ، توجهت للاستعمار الخارجي ، وبدلا من أن تستنزف الموارد في حرب أوروبية ، تكاتفت لكي تتآلب على سائر العالم : تنهك قواه ، وتمتص طاقاته ، وتسيطر على موارده ، وتوجه دفة حكمه ، وتتآلب على مستقبله ، وتنكل بشعوبه ، وتطبع شخصياتهم وتطوع إرادتهم ، وتمحو عقيدتهم ، وتمزق وحدتهم .

وإذا كانت أوروبا اليوم تدعو للوحدة الأوروبية ، فهي واقفة بالمرصاد للوحدة الإسلامية . .

وإذا كانت أمريكا اليوم حريصة على حقوق الإنسان ، فهي متنمرة للنيل من الإسلام . .

وإذا كانت روسيا مهاجمة للإمبريالية العالمية ، فهي طليعة المخططين لمحاصرة العالم الإسلامي بالقواعد والجيوب والأنظمة المماثلة لها . .

وإذا كانت الكنيسة المسيحية مشفقة على اللاجئين الكمبوديين ، فهي لم تحرك ساكناً من أجل اللاجئين الأريتريين أو الأفغان . .

وإذا كانت الجمعيات السياسية والأدبية والثقافية الغربية حريصة على حرية الفكر وحقوق الإنسان ، فهي في مقدمة الذين يغمضون العين عن اغتيال الشعوب المسلمة – طالما أن ذلك يزيد خزائنها ، ويعمر مصارفها . .

وإذا كانت الجمعيات الصهيونية والإسرائيلية تفتح الباب لهجرة اللاجئين الكمبوديين والفيتناميين ، فهي التي طردت الفلسطينيين وحولت غالبيتهم إلى شعب من اللاجئين ! !

فالقياس يتم بمكيالين . . والحساب يجري بطريقتين :

لهذا كله – ولغيره – أكرر أن الحروب الصليبية مستمرة بأساليب أكثر ذكاء ، وأعمق تأثيراً ، وأوسع انتشاراً(١) . فالاتحاد السوفيتي احتل أفغانستان بمائة ألف جندي ، إلا أنه لا يستطيع احتلال جميع أنحاء العالم الإسلامي . . لهذا فالأنظمة العميلة ، والأيديولوجيات الجاهزة ، والتبشير الشيوعي ، والمركسة قوية أو خفيفة الجرعات ، والحزبية المماثلة لموسكو ، والبعثات والمنح الدراسية التي توزع هنا وهناك ، وبرامج التدريب التي تقدم مجاناً ولصالح الأممية و«الديالكتيكية» ، والسلاح الذي يسرب إلى أيدي الأعوان والرفاق ، والقواعد التي تزرع بمهارة و ذكاء حول العالم الإسلامي في أطرافه و خارج أطرافه ، كل ذلك امتداد لماض ، وتوسع في نفوذ ، وتدمير لثقافات حتى وإن تغير الشعار من «كتاب مقدس» إلى كتاب «رأس المال» ! !

والاستعمار الغربي بدوله ومنظماته ، بقياداته وأحلافه ، بجيوشه وجامعاته بعسكرييه وخبرائه يهدد باحتلال منابع النفط ، وبالتدخل لحماية الإسلام والمسلمين ، وبالاحتلال لطرد الشيوعيين ، وبالتجويع لسحق الثورات والانتفاضات ، وبالتزوير لمحو الشخصية والجذور ، وبالتبشير لخلع الأصول وتذويب الكيانات ، وبالفكر الخليع والعري الفاضح ، وبالتهديد والتهويد ، بالمساعدات وقطع العلاقات ، بالتمييع والتجويع ، بالتضليل والتنكيل ، بغسيل المخ ومحو الذاكرة ، بتشويه الماضي والتنفير من الحاضر . .

لهذا عندما نحذر من استمرارية الحروب الصليبية فإننا لم نرجف أو نهول ، ولم نبالغ أو نتطاول . .

---

(١) راجع التفاصيل : –

– سيد قطب · طريق الدعوة فى ظلال القرآن · جمع وإعداد أحمد فائز · دار الأرقم · بيروت ١٣٩٤ ص·ص ١٠٨ – ١١١ ·

– على محمد جريشة ومحمد شريف الزيبق · أساليب الغزو الفكرى للعالم الإسلامى · دار الاعتصام · القاهرة ١٣٩٧ ص·ص ٩٢ – ٩٥ ·

ففي الماضي أدركوا أن الخطورة في وحدة العالم الإسلامي ، لهذا انقضوا عليه . .

وفي الحاضر أيقنوا أن فرصتهم في تمزيق العالم الإسلامي ، لهذا إنهالوا عليه . .

وفي المستقبل توقعوا أن مصلحتهم في تذويب العالم الإسلامي ، لهذا تآلبوا عليه . .

وما فشل فيه ريتشارد قلب الأسد ، نجح فيه اللنبي وبلفور ، ووطد أركانه ترومان وبن جوريون ، وجنى ثماره كارتر ومناحم بيجين . .

وعن هذه الفكرة تقول الكاتبة اليهودية « بربارة توخمان » في كتابها « التوراة والسيف » : « وهكذا دخل الجنرال اللنبي إلى القدس سنة ١٩١٨ فنجح حيث كان ريتشارد قد أخفق . ولولا ذلك الانتصار لما كانت إسرائيل الآن حقيقة واقعة . وكذلك لم يكن بإمكان اللنبي أن ينجح لولا محاولة ريتشارد ، أي لو لم تكن النصرانية قد أقامت الأساس الذي يحمل النصارى على التعلق بالأرض المقدسة .

وبصرف النظر عن ادعاء الكاتبة أن اليهود استعادوا « موطنهم » ، إلا أنها توضح التفاعل والتعاون الوثيق بين ريتشارد وبلفور ، بين ريتشارد واللنبي ، بين الحروب الصليبية والاستيطان الصهيوني ، بين مؤامرة الأمس واغتصاب اليوم . .

والذي يعطي قيمة علمية للنص السابق أن صاحبته يهودية تعي ما تقول دون احتمال تعصب أو تجاوز من جانبنا نحن مسلمين وعربا . . وبطبيعة الحال ، هناك مئات النصوص تفيد نفس الفكرة السابقة ، وتركز على ذاته المحور وليس هناك مجال للإفاضة فيها ، والغوص في تفاصيلها .

وإذا كانت نقطة الحروب الصليبية قد استوفت حقها ، فلننتقل إلى المرحلة الثانية . .

ثانيـاً : مرحلة الاستعمار

هذه المرحلة أوضح ملامحا ، وأجلى قسمات ، كما أن العهد بها قريب ، والآثار المترتبة عليها ما زالت حية نابضة في عالمنا الإسلامي : تعرقل خطوات سيره ، وتعترض مسار طريقه .

ومرة أخرى نذكر التحفظات الثلاثة التي بدأنا بها هذا الفصل . فليس القصد استعراض جميع مراحل الاستعمار وكافة مخططاته وأساليبه ، بل القصد فحسب بلورة دور الاستعمار في غزونا فكرياً . .

وسياسياً يمكن القول بأن غزو العالم الإسلامي تم على فترتين :

الفترة الأولى ـ تطويق العالم الاسلامى :

وركزت على تطويق العالم الإسلامي ، ومحاصرة أطرافه ، وخنق ثغوره ، وقطع اتصالاته ، وعرقلة أساليب تجارته . .

وهذه المرحلة بدأت قبيل نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ، وتصدرها مجموعة من البحارة والمغامرين البرتغاليين والأسبان ، ومجموعة من التجار ووكلاء الشركات التجارية التي بدأت تلمع نجومها ، وتمتلىء خزائنها .

فمع حركة الكشوف الجغرافية ، واكتشاف العالم الجديد على أوروبا ، والإستيلاء على قارات بأكملها ، حدثت تغيرات كبرى بالعالم : القديم والجديد ، المسيحي والإسلامي .

فبعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٨٨ ، وتحول التجارة العالمية إليه بعد أن كانت تمر في البحر المتوسط بحراً والبلاد الإسلامية براً ، ومـع

استيلاء البرتغاليين على مسقط وهرمز والبحرين سنة ١٥١٥ ، بدأت شبكة الاستعمار تطارد العالم الإسلامي وتسقط بعض أطرافه البعيدة ، تمهيداً للوصول إلى قلبه . .

وبدأ الزحف البرتغالي الأسباني على جنوب شرقي آسيا . . وكما أحس البرتغاليون أنهم مسيحيون ، وأن المسلمين هم أعداؤهم التقليديون في حوض البحر الأبيض المتوسط ، كذلك وعي الملايون أنهم مسلمون وأن البرتغاليين جاءوا لاحتلالهم ، وامتصاص ثرواتهم ، وتحويلهم إلى المسيحية ، وتخريب حياتهم الاقتصادية .

ووصل الأسبان إلى الفلبين سنة ١٥٦٥ ، وسموا سكان المنطقة المورروس The Moros واسم المورروس ليس بجديد :

فهو الاسم ذاته الذي أطلقه الأسبان على مسلمي شمال إفريقيا وأسبانيا ! ! وكأنهم جاءوا للانتقام من خصومهم القدامى ، وأعدائهم التقليدين .

وفي تقدير بعض الاختصاصيين « أن وصول الأسبان ومن بعدهم الهولنديين والإنجليز كانت بداية النفوذ الإمبريالي للمنطقة الماليزية . . وجاءت مع هذا النفوذ ، الأفكار والعقائد المسيحية . . وكان نضال مسلمي الفلبين جزءاً من نضال الشعوب المسلمة في جميع أطراف جنوب شرقي آسيا ضد الاستعمار الغربي(١) » . .

وأدت حروب المورو التي بدأها الأسبان وهدفها استعمار وتنصير المسلمين ، إلى تعميق الوعي الإسلامي بين مسلمي الفلبين ، إلى درجة أن الإسلام أصبح هوية ، وعقيدة ، وأساساً للشعور القومي .

---

(١) قيصر أديب فخوّل · المسلمون فى الفلبين · تعريب نبيل صبحى · مؤسسة الرسالة ببيروت · ص ١٧ ·

وقسم الأسبان سكان الفلبين إلى قسمين :

مسلمين (مورو) ومسيحيين (الأنديو) . .

والمسيحيون – بطبيعة الحال – لم يكونوا موجودين قبل الاحتلال الأسباني ثم استعملهم الأسبان لمحاربة المسلمين . .

ولم يقتصر الأمر على التفريق بين المورو والأنديو ، بل نفخ الاستعمار الأسباني في عناصر الخلاف بين السلاطين المسلمين ، وساعد على تأجيج نيران الحرب والحقد .

ومن النتائج المباشرة لهذه الحرب :

التخريب المنظم لمزارع المسلمين لإجبارهم على الهجرة ، وتحطيم أساطيلهم لتقطيع شرايين حياتهم بقطع خطوط مواصلاتهم وتجارتهم ، وإجبار المسلمين على التعامل مع الجزر الواقعة تحت نفوذ الأسبان فقط (١) . .

وتكرر الوضع نفسه من جديد في الفلبين مع قدوم الأمريكيين ، وما زال الصراع دائراً حتى الآن ، رغم كل محاولات تطويق المسلمين في إقليم «مندناو» في جنوب الفلبين ، ورغم كل محاولات تجويعهم ، وتشتيتهم ، وإحلال مسيحيين محلهم « فغالبية المسيحيين الفلبيين يعتقدون أن المسلمين لن يكونوا مواطنين صالحين ما لم يصبحوا مسيحيين ! ! » (٢) .

وتدريجياً انحسر النفوذ البرتغالي والأسباني ، وطغت الموجة الإنجليزية والفرنسية والهولندية :

فاقتسمت بريطانيا مع هولندا جزر الملايو . .

---

(١) المرجع السابق . ص.ص ٤١ ــ ٤٢ .
(٢) المرجع السابق . ص ٤٦ .

وسيطرت بريطانيا على الهند في منتصف القرن السادس عشر . .

واحتلت هولندا اندونيسيا . . الخ .

طبعاً ، اختلفت الشعارات والمبررات ، وتباينت الحيل والألاعيب . .

فقد يتخفى الاحتلال في شكل إنقاذ السكان الأصليين من المرض أو الفقر أو الجهل . .

وقد يتخفى في شكل إنقاذهم من الوثنية أو براثن الإسلام ، لكي يدخلوا الجنه من أوسع أبوابها ! !

وقد يتخفى في شكل تصفية القراصنة ،وتجارة العبيد ، وإنهاء الخلافات ، وقمع الفتن ، وحقن الدماء . . الخ . .

وبطبيعة الحال ، فكاتب هذه السطور ، لا ينكر أنه كانت هناك قرصنة في البحر المتوسط ، وفي الخليج العربي ، وفي بحر العرب . . كما لا ينكر أنه كانت هناك تجارة رائجة للعبيد ، وعمليات اقتناص وأسر شارك فيها بعض تجار مسلمين وعرب(١) . . كل ذلك له أدلة ، ولا يمكن إنكاره ، إلا أن الاستعمار الغربي لم يأت لإزالة هذه الشرور بل تعميقها ، ولم يأت لعلاج هذه الجروح بل تسميمها . . وهذا ما حدث بتفاصيل دامية ، ووقائع رهيبة ليس هنا مجال عرضها . .

---

(١) هذه النقطة ــ وغيرها ــ سبقت الإشارة إليها فى المقدمة كنقاط سوداء مظلمة فى تاريخنا ، لا بد أن ندرسها جيدا ، ونكشف عن أسبابها ونتائجها لجيلنا الجديد ، حتى لا يصدم بها من مروجى التخريب ، وحتى لا يصدق ما يقال عنها مجسما مبالغا فيه ، فالاعتراف خير سبيل للتحصين.

وبطبيعة الحال ، لم يقتصر الأمر على استعمار غربي ، بل امتد للدب الروسي ، فتفتحت شهيته للإستيلاء على مناطق طالما كان يحلم بها الأباطرة والقياصرة :

فاستولت روسيا على قازان واسترخان في منتصف القرن السادس عشر . ثم امتد التوسع حتى وصل إلى القوقاز وسهول التركستان(١) . . فأراضي مسلمي الأورال احتلت سنة ١٦٧٠ ، وجزيرة القرم بالبحر الأسود ١٨٦٤ ، وبلاد القوقاز ١٨٦٤ ، وطشقند سنة ١٨٥٩ ، وإمارتي بخاري وجنوة ١٨٨٢ ، والتركستان ١٨٨٤(٢) .

وهكذا تحالف الغرب والشرق لاحتلال العالم ، بما فيه من عالم إسلامي .

وهكذا تحالفت البروتستانتية والكاثوليكية والإنجلية مع الإلحاد للسيطرة على مقدرات الشعوب ، بما فيها من شعوب إسلامية . .

صحيح ، قد تظهر فروق وشقوق ، خلافات ونزاعات ، إلا أنها سرعان ما تلتئم ، لكي تبدأ جولة أخرى ، وتنقض غارة جديدة . .

صحيح ، قد يبدو الكاثوليك على خلاف مع البروتستانت ، إلا أن مظاهر الخلاف تُحاصر ، والأعراض تُعالج . . وقد يكون الخلاف شديداً داخل القارة الأوروبية ، إلا أنه يخفت خارجها ، لكي تستطيع الجهود تدعيم الاحتلال ، وإحكام السيطرة . .

---

(١) أنور الجندى · العالم الإسلامى والاستعمار السياسى والاجتماعى والثقافى · المرجع السابق · ص ٤١٠ ـ ٤١١ ·

(٢) المرجع السابق · ص·ص ٤١٦ ـ ٤١٧ ·

وقد يظهر الخلاف واضحاً ودموياً ، وسببه لا يرجع إلى عامل ديني ، بقدر ما يرجع إلى اختلاف المصالح ، وتضارب المكاسب .

وقبل أن نختم المرحلة الأولى للاستعمار الغربي ، فلا بد من إشارة إلى أن خيوطها وجوهرها ما زال مطبقاً :

- فحصار العالم الإسلامي من أطرافه يظهر اليوم واضحاً . .
- واحتلال قواعد بحرية وبرية ، وجزر وثغور حول العالم الإسلامي ، يظهر واضحاً اليوم .
- وتفريغ الأرض من سكانها ، وحرق مواردهم ، وخنق اقتصادهم ، لإجبارهم على الهجرة ، يظهر واضحاً اليوم في فلسطين ، والفلبين ، وأرتريا ، وأفغانستان . . الخ .
- وادعاء الإنقاذ ، والرغبة في المساعدة ، وتثقيف المتخلفين ، وتحضير البدائيين ، ما زالت واضحة حتى اليوم .

طبعاً ، ليس معنى ذلك أن الاستعمار بصوره الحديثة تكرار ممل لصوره القديمة ، أو استخدام ساذج لأساليبه القديمة ، بل العكس هو الصحيح ، فقد تغيرت الوسائل وتطورت الحيل .

إلا أن الأهداف ما زالت واحدة ، أو على الأقل مشتركة ، والغايات ما زالت ماثلة ، أو على الأقل متقاربة . .

ومن ثنايا المرحلة الأولى تولدت الفترة الثانية . .

الفترة الثانية ـ تقسيم العالم الإسلامي :

استغرقت عملية التقسيم هذه ما يقرب من مائة وعشرين عاماً تصاعدت

فيها الأحداث ، فتمت السيطرة على العالم الإسلامي كله – عدا مناطق قليلة ومساحات محدودة .

واتخذ هذا التقسيم صوراً وأشكالا مختلفة :

بعضها كان بالاحتلال المباشر . . وبعضها بالمعاهدات والاتفاقيات المفروضة . . وبعضها بالحماية ، أو الانتداب ، أو الوصاية . . إلخ . وغير ذلك من المسميات التي أتقن اختراعها فقه السياسة الأوروبية ، وما اصطنعته من منظمات دولية ماضية وحاضرة . .

وفي داخل عملية التقسيم هذه عشرات القسمات والتفاصيل ، يمكن بلورة بعضها مثل :

١ – استيلاء فرنسا على الجزائر سنة ١٨٤٧ . . ولقد بدأ الغزو قبل ذلك بأربعة عشر عاماً ، أي سنة ١٨٣٠ – كما هو معروف – إلا أن المقاومة الباسلة بقيادة الأمير عبد القادر أعاقت استيلاء الغزاة على جميع الأراضي الجزائرية ..

ولم يكن غريباً أن يقدم وزير الحربية الفرنسي تقريراً لمليكه « شارل العاشر » بعد احتلال الجزائر « لقد أرادت العناية الإلهية أن تستثار جلالتكم بشدة في شخص قنصلكم بواسطة ألد أعداء المسيحية (١) . . ولعل الزمن يسعدنا لننشر المدنية بين السكان الأصليين وننصرهم . إنك – يا مولاي – فتحت بجيوشك باباً للمسيحية في إفريقية(٢) » . .

---

(١) يقصد بألد أعداء المسيحية داى الجزائر عندما صفع القنصل الفرنسى !! وهى قصة ساذجة استغلت لتبرير غزو الجزائر بكاملها ، فالجيوش الفرنسية تغزو ، لكى ترد صفعة لصاحبها !! مع أن هذه الجيوش تؤمن بشعار : إذا صفعك أخوك على خدك الأيمن ، فأدر له خدك الأيسر .

(٢) صلاح العقاد . تطور السياسة الفرنسية فى الجزائر . القاهرة . ١٩٥٩ ، ص ٤ – ٥ .

إذن فالمسألة ليست رد صفعة أو ركلة ، بل خطة مدبرة قبل أن يولد الصافع والمصفوع ! ! وتفتحت شهية الاحتلال الفرنسي فامتد إلى تونس سنة ١٨٨١ . والسنغال ومدغشقر سنة ١٨٨٢ . والمغرب سنة ١٩١١ . وفي كل مرة كانت باريس تصطنع سبباً للهجوم ، وتختلق مبرراً للانقضاض ، بيد أن ذلك كله كان من قبيل بالونات الاختبار ، أو دخان التمويه ، وكان السبب الحقيقي والهدف الأساسي ما صرح به المارشال « ليوتي » المقيم الفرنسي بالمغرب « يجب أن تكون المدارس الموجودة في مراكش فرنسية الروح والغاية ، مسيحية الاتجاه ، وليس لنا فائدة من التدريس فيها باللغة العربية ، أو التركيز على الثقافة الإسلامية » (١) . .

هذا ما شمل المغرب العربي بكامل أقطاره : محاولة فرنسته ، وخلع إسلامه ، وتذويب شخصيته ، وتصفية لغته ، وزرع الكاثوليكية ، وربط اقتصاده بالوطن الأم في فرنسا ! ! وقليل من هذا اعترفت به « دائرة المعارف البريطانية » : « فبعد ثلاث سنوات من الاحتلال بدأ تطبيق القانون الفرنسي على التعليم في الجزائر ، ومنعت المعونات المالية والحكومية عن أية مدرسة خاصة لا تدرس بالفرنسية » (٢) . .

٢ — احتلال إيطاليا للصومال وأريتريا سنة ١٨٨٧ ، ثم لليبيا سنة ١٩١١ ، ولقد اشتهر الاحتلال الإيطالي بغبائه ونزقه ، وشراسته وتهوره . . ولم يقتصر أمره على الضم ، بل امتد إلى محاولة « طلينة » هذه الأقطار ، ومحو شخصيتها المسلمة ، وخلعها من جذورها التاريخية ، بل وتسميم هذه الجذور في عقول شبابها ، كما سيتضح بالتفصيل عندما نناقش تأثير الاستعمار والتبشير على التعليم وما أحدثه فيها من تسميم متعمد ، وتشويه مقصود . .

---

(١) محمد جميل بيهم · الحلقة المفقودة فى تاريخ العرب · مكتبة الحلبى · القاهرة ، ١٩٥٠ ، ص ٢٣٠ — ٢٣١ ·

(٢) Encylopaedia Britinaca 15th Eddition 1978. Vol. 6 p. 399.

٣ – أما الاحتلال الأسباني فلقد سبق مناقشة دوره في جنوب شرقي آسيا ، والآن نضيف حلقة جديدة في دوره التقليدي ، أعني بدء احتلاله لمنطقة الريف المغربية سنة ١٩١٤ ، ولم يكتمل هذا الاحتلال إلا بعد ذلك بإثني عشر عاماً أي سنة ١٩٢٦ بعد تسليم عبد الكريم الخطابي . .

وتداخل فرنسا مع أسبانيا في احتلال المغرب سنعود إليه في نهاية هذه النقطة عندما نعالج الصراع الاستعماري . .

٤ – وأخيراً يأتي الاحتلال البريطاني الذي بسط نفوذه تدريجياً ليشمل البنغال سنة ١٧٥٧ ، والبنجاب سنة ١٨٤٩ ، ونيجيريا سنة ١٨٥١ . .

ثم يركز على عالمنا العربي فيضع قدميه في مصر سنة ١٨٨٢ ، فالسودان مباشرة بعد ست سنوات في غضون ١٨٩٨ ، فالعراق ١٩١٩ ، والأردن وفلسطين سنة ١٩٢٠ ، ويأتي دور زنجبار سنة ١٨٧٠ ، وقبرص سنة ١٨٧٨ .الخ.

وفي كثيرمن الحالات كان الاستعمار البريطاني أمهر ، وأذكى ، وأبرد من الأشكال الثلاثة السابقة . . فنادراً ماكان يتهور التهور الإيطالي أو الفرنسي ، ولم يعمد إلى محاولة الضم والاستيلاء الكاملة ، بل عمد إلى أساليب أكثر ذكاء تقلل نسب العداء بينه وبين الشعوب المغلوبة على أمرها . .

ولعل أكبر إسفين استطاع الاستعمار البريطاني غرسه في العالم أجمع هو دوره في تشكيل وإنشاء الكيان الصهيوني :

بدءاً من تقرير كامبل بزمان سنة ١٩٠٧ ، إلى تصريح بلفور ١٩١٧ ، إلى الانتداب سنة ١٩٢٠ ، إلى إلغائه سنة ١٩٤٨ . . الخ . وبالتوازي مع هذه التواريخ كانت المساعدات والهبات تنهال على المستعمرات والتنظيمات الصهيونية . .

صحيح ، قد حدث خلاف بين سلطة الانتداب البريطانية وبعض العصابات الصهيونية على أرض فلسطين ، إلا أنها الخلافات الهامشية والصدامات السطحية بين متطرفين يريدون إنشاء الدولة الآن ، وبين متمرسين أجلّوا إنشاءها إلى التوقيت الصحيح ! !

فبعض عصابات صهيونية تصادمت دموياً مع سلطة الانتداب البريطاني ، إلا أنه النزق الصهيوني المألوف ، والتطرف الدموي ، وقصر النظر ، مع الإصرار على ما يتوهمون أنه حق تاريخي . .

ومن المؤكد أن سلطة الانتداب البريطاني كانت أذكى من جميع المتطرفين والمغامرين الصهاينة :

لهذا أجلت انسحابها إلى اللحظة المناسبة التي امتلكت فيها الولايات المتحدة مقدرات العالم بالقنبلة النووية ، وخرج فيها الحلفاء منتصرين لا يقدر على صدهم أحد ، وتوزعت فيها مناطق النفوذ بين الاتحاد السوفيتي وأعدائه فانشغل بأوروبا الشرقية وعكف على التهامها . وفي نفس الوقت ضمنت بريطانيا أن العصابات الصهيونية بدأت تقف على أقدامها بعد عودة الفيلق اليهودي من الحرب الثانية ، وتدفق الأسلحة سراً وجهراً للعصابات والمستعمرات ، والاستيلاء على بعض مناطق استراتيجية داخل فلسطين ، واختيار التنظيمات وقوة ساعدها . . الخ .

أي أن بريطانيا كانت أكثر إخلاصاً للصهيونية من مناحم بيجين ، وموشي ديان ، وجابوتنسكي – صاحب سياسة « الردع النشط » – وغيرهم من دهاة وعتاة المتطرفين والإرهابيين .

بطبيعة الحال ، حدثت خلافات سرية ومشهورة بين الانتداب البريطاني

وبعض المنظمات الصهيونية (مثل منظمة شتيرن) (١) إلا أنه الخلاف الهامشي الذي لا يعرقل استكمال الخطة .

ولقد خدمتهم بريطانيا بذكائها المعهود . وحساباتها بعيدة المدى ، وتوازناتها الدقيقة ، وتغلغلها العميق ، وضمانها لأكثر من خيط وبديل ، وتصويبها على أكثر من مستوى (٢) . .

٥ ـ وأخيراً تأتي نقطة الصراع الاستعماري . .

في حالات كثيرة يرد هذا المصطلح ، ويعلو صوته ، مؤكداً أن الدول الاستعمارية تتصارع ، وأحياناً تتواجه بالسلاح من أجل مزيد من المستعمرات . .

وفي حالات أخرى يتبين أن دولة أوروبية تبسط جناح الرحمة على قطر مستعمر ، لكي تنقذه من براثن دولة استعمارية أخرى . .

مئات القيادات سقطت ـ وما زالت تسقط ـ فريسة هذه اللعبة الجهنمية : مئات القيادات في بلادنا المسلمة ـ وغيرها ـ صدقت لعبة الذئب والحمل ، ولم تفهم أن الذئاب تظل ذئاباً مهما هذبت أنيابها ، أو اندست بين الحملان ! !

وهناك عشرات الحالات تكشفت بعد انتهاء الوقت الرسمي للعبة . .

---

(١) راجع فى هذا الخلاف :

عبد الوهاب المسيرى · موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية · مؤسسة الأهرام ، ١٩٧٤ · ص ٢٢٧

(٢) راجع التفاصيل :

محمد عزة دروزة · القضية الفلسطينية فى مختلف مراحلها · الجزء الأول ، والثانى · المكتبة العصرية ، بيروت · الطبعة الثانية ١٩٥٩ ·

فطالما خلبت فرنسا لب قيادات مصرية – مع نهاية القرن التاسع عشر ومطلع العشرين – باعتبارها معادية للنفوذ البريطاني في مصر ، ثم تكشف كل شيء جلياً في الاتفاق الودي الفرنسي البريطاني سنة ١٩٠٤ على أساس إطلاق يد فرنسا في مراكش ، نظير سكوتها عن احتلال بريطانيا لمصر ! !

لكن ما موقف الذئاب المناوئة من هذا الاتفاق ؟

لكي يصادق « الذئب الأسباني » على الاتفاق ، حصل على الركن الشمالي الغربي في المغرب منطقة نفوذ له . . وتم كل ذلك في نفس العام حتى لا يغضب ويسبب المشاكل لزملائه . .

لكن كيف ننسى « الذئب الألماني » ؟

لم ينسه أحد ، لكن فقط تأجل موعد حصوله على نصيبه ! !

ففي سنة ١٩١١ وافق « الذئب الألماني » على إطلاق يد فرنسا في المغرب ، نظير حصوله على جزء من الكمرون الفرنسي (١) ! !

تركات تُوزع . . وأرزاق تقسم . . وحدود يعاد رسمها . . وبلاد يعاد تخطيطها . . ودول تقام . . ودول تصفى . . وشعوب تُهجر . . وأقليات تستورد . . وحكومات تغتال . . وعملاء يُصعدون . . الخ . كل ذلك من أجل أن يحصل كل ذئب في القطيع على نصيبه دونما ظلم أو إجحاف ، وبما يتناسب مع حجمه ، وقوته ، وإمكاناته ، وربما لمجرد شراسته ونهمه ! !

وربما ينمو ذئب طفرة ، فيطالب بنصيب أكبر . .

---

(١) راجع تفاصيل الفكرة فى كتاب :
زاهر رياض . شمال افريقيا فى العصر الحديث . القاهرة ١٩٦٧ ، ص.ص ٢١٦ – ٢١٩ .

ما الحل ؟

لا ينبغي للعبة أن تتوقف ، بل يجب أن تستمر مهما كان الجهد . .

إذن ، فليعاد توزيع الأنصبة ، وليحصل هذا الذئب سريع النمو ، على ما يستحق . وغالباً ، ما تكون هناك أنصبة « مخزونة » لم توزع بعد . . فلا بأس من أن تقتطع منها قطعة ترضي نهم هذا الذئب الظافر ! !

الصورة السابقة ، لم تكن صورة أدبية ، بل نسخة قريبة من أصل ما حدث – ويحدث – من الاستعمار الغربي . والشرقي .

تآمر لا ينقطع ، وتجزئة لا تتوقف . . قد تصفى قيادات ، وسرعان ما تُصنع أخرى « صناعة محلية » تتناسب مع الهدف المطلوب ، وهذا هو محور النقطة السادسة التالية .

٦ – صناعة القيادات : لكي يُحكم الاستعمار قبضته سياسياً ، واقتصادياً وثقافياً ، وعسكرياً ، ودينياً .. الخ . لا بد له من أن يصنع ويصطنع ، ويبذر ويجني ، ويربي ويعتمد ، ويثقف(١) ويطبع قيادات محلية تقود الركب ، وتوجه السير وهو من ورائها مطمئن البال ، واثق النفس . .

من هنا شُكلت مئات القيادات الفكرية والأدبية والسياسية والاقتصادية لكي تقود العالم الإسلامي قيادة مسيسة وموجهة . . ومن هنا فرضت مئات القيادات داخل الأقطار الإسلامية ، وخارجها لكي تعود فتحكم القبضة ، وتوجه الركب . .

وبدلا من أن يظهر الاستعمار بأنيابه واضحة ، ومخالبه ملوثة بالدم ،

(١) يثقف بمعناها اللغوى ، من ثقف الرمح أى سواه ، وهذب أطرافه ، وقلم جوانبه .

تقوم القيادات المحلية بالدور خير قيام وهي ترتدي مسوح الإسلام ، والوطنية ، والقومية ، والريادة ، وتوجيه الأمة (١) . .

وفي حالات كثيرة اصطنع الاستعمار الفرقة والخلاف بين قياداته المصطنعة والقيادات الشعبية . . ولتصفية الخلاف لا بد من التدخل الأجنبي لحماية الشعوب ، وصون المصالح ، وحماية الجاليات الأجنبية . .

ولو أحصينا مرات هذه الخدعة لاحتاج ذلك إلى مجلدات ومجلدات . . فالخدعة متكررة ، واللعبة معادة ، والمشهد ليس بجديد . .

وهناك القصة المشهورة للخديو توفيق في مصر وترحيبه بالإنجليز في مصر سنة ١٨٨٢ . .

وهناك الصراع الدموي بين الموارنة والدروز في سوريا ولبنان الذي انتهى بمذابح سنة ١٨٦٠ الدامية ، ثم اتسع الخرق لمذابح دامية بين المسلمين والمسيحيين وزاد وطأة الفتنة ما قام به عملاء الفرنسيين والبريطانيين . وكانت بريطانيا تؤيد الدروز ، في حين كانت فرنسا تؤيد المسيحيين وبخاصة الموارنة . .

وفي النهاية جاء التدخل العسكري الفرنسي سنة ١٨٦٠ ، ودخلت القوات الفرنسية الأرض اللبنانية لإعادة الوئام ، الذي أسهمت الحكومة الفرنسية سلفاً

---

(١) راجع فى فكرة صناعة القيادات :
محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب العربى المعاصر ·
و ـ محمد محمد حسين : الإسلام والحضارة الغربية · المكتب الإسلامى · بيروت ، ١٣٩٩ · ص·ص ٩ ـ ١٠٧ ·
و ـ محمود شاكر : أباطيل وأسمار · جزءان · مطبعة المدنى · القاهرة · ط ٢ ، ١٩٧٢ ·

في تمزيقه (١) ! ! وما يحدث بلبنان اليوم ليس بعيداً عما حدث فيه بالأمس ..

وقصة انقضاض عبد الحفيظ على أخيه السلطان عبد العزيز سنة ١٩٠٨ في المغرب ليست ببعيدة . . ونجح عبد الحفيظ في وضع الحماية الفرنسية موضع التنفيذ الفعلي . . وبعد ثلاث سنوات ، طلب السلطان عبد الحفيظ تدخل القوات الفرنسية المباشر لإخماد ثورات القبائل ضده . . وبذلك تأكدت سلطة ونفوذ الحكومة الفرنسية سياسياً وعسكرياً (٢) . .

وهكذا مئات الصور والمشاهد المتكررة تثبت أن صناعة القيادات طريق أساسي لصناعة الفتن ، وللتمهيد للتدخل ، ولإحكام السيطرة ، ولاستمرار التغلغل ، وسوف نعود إلى معالجة هذه النقطة في الفصل الثاني عند مناقشة صناعة القيادات المزيفة كأحد الوسائل غير المباشرة للغزو الفكري .

والآن ننتقل إلى المرحلة الثالثة والأخيرة :

ثالثا : مرحلة التبشير

من الصعب فصل هذه المرحلة عن مرحلة الاستعمار ، بل ثمة تلازم وارتباط وثيق بينهما ، بل ليس هناك تجاوز في اعتبارهما وجهي عملة واحدة .

وهذه المرحلة أحياناً سبقت الاستعمار المباشر ، والاحتلال العسكري . . وغالباً اكتسبت دفعاتها القوية في ظل سيطرته ، وتحت إدارته . .

---

(١) رأفت الشيخ · في تاريخ العرب الحديث ١٩٧٥ · دار الثقافة للطباعة والنشر · القاهرة · ص·ص ٣٧٨ ـ ٣٨٠ ·
(٢) المرجع السابق · ص·ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩ ·

من هنا يمكن القول أن التبشير يشبه « فصيلة الطليعة » أو « الاستطلاع » الذي يسبق الاستعمار المباشر والاحتلال العسكري . . فهو عيون للاستكشاف ، وأوكار للتلصص ، وخلايا للتجسس ، والأهم من ذلك وأخطر ، أنه أداة لغزو العقول ، وتحويلها عن دينها ، وسحبها من ثقافتها ، ودمجها في مذهب من مذاهب المسيحية .

من هنا فالخطورة لا تقتصر على تجسس أو تلصص ، بل تمتد إلى القضاء على دين ، ومحو شخصية ، ومسح تاريخ ، ثم محاولة ملء كل هذا الفراغ بديانة أخرى ، وربما لغة أخرى ، والمؤكد عادات وتقاليد مغايرة ، وأحاسيس ومشاعر متباينة .

ولو اقتصر الأمر على نظام حكم أو ملمح من ملامح الثقافة لهان الأمر ، لكنه موجه بالدرجة الأولى للدين السماوي ، وللرسالة المحمدية ، لإزاحة هذا الحصن الحصين عن طريق الغزاة والمستعمرين . .

فكثير من القوى السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية أدركت جيداً أن المقاومة الحقيقية ، والتحدي الصلب كامنان في الإسلام كعقيدة وشريعة . من هنا كان – وما زال – جهدها لإذابة هذه العقيدة في نفوس أصحابها ، وإزالة هذه الشريعة من نظام حياتهم . . من هنا جاءت عبارة لورد جلادستون – رئيس الوزراء البريطاني – « ما دام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق ، ولن تكون نفسها هي في أمان » . . وجاءت أيضاً عبارة جورج براون سنة ١٩٤٤ : « لقد كنا نخاف شعوباً مختلفة ، ولكننا بعد الاختبار لم نجد مبرراً لمثل هذا الخوف . بيد أن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام ، وفي قدرته على التوسع ، وقوته في الإخضاع ، وحيويته في الانتشار . إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي » . .

والمؤكد أن كل محاولاتهم وجهودهم الرامية لتحريف هذا الدين وتشويهه

مقضي عليها بالفشل الذريع ، فرب العالمين – جل وعلا – وعدنا وعده الحق في كتابه الكريم : « إنا نحن نزلنا الذكر . وإنا له لحافظون » (١) ..

ولن نخوض كثيراً في حيل التبشير ، ووسائله ، منظماته وتاريخه . . الخ . ولن نخوض كثيراً في أهدافه ومراميه ، وأبعاده والمنظمات التي تعاون معها ، وتخفى من ورائها . . الخ . فذلك مبحث طويل أفاضت فيه كتب ألفها ثقاة وأساتذة أجلاء (٢) .

وقد يتصور البعض أن التبشير مرحلة انتهت ، ومواجهة انفضت . بيد أن واقع الأمر أنه موجود بأشكال مختلفة وصور متباينة :

– فقد يكون موجوداً بشكله الساذج القديم على هيئة رهبان ومبشرين يدعون لمذهب من مذاهب النصرانية . .

– وقد يكون موجوداً بشكل أكثر رقيا وذكاء على هيئة مستشفى أو مدرسة أو ناد أو جمعية ثقافية . .

---

(١) سورة الحجر : آية ٩ .

(٢) من هذه الكتب :

– مصطفى خالدى وعمر فروخ . التبشير والاستعمار فى البلاد العربية . الطبعة الخامسة ١٩٧٣ .

– ابراهيم خليل أحمد . الاستشراق والتبشير وصلتهما بالامبريالية العالمية . مكتبة الوعى العربى . القاهرة ١٩٧٢ .

أ.ل شاتليه . الغارة على العالم الإسلامى . ترجمة مساعد الياقى ومحب الدين الخطيب . منشورات العصر الحديث . جدة . الطبعة الثانية ١٣٨٧ .

– أبو هلال الاندونيسى . غارة تبشيرية جديدة على اندونيسيا . الطبعة الثانية . بيروت ١٩٧٣ .

– وقد يكون موجوداً بشكل إرسال ثقافي موجه بطرق مباشرة وغير مباشرة : إذاعة ، وطباعة ، ومنشورات ، وتوجيهات . .

– وقد يكون موجوداً تحت أسماء مذاهب دينية واجتماعية جديدة : تربك عقل المسلم ، وتخرجه عن صميم ديانته إلى مذاهب مبتدعة ، وجمعيات ثقافية مسمومة . .

وهكذا صور مختلفة ، ودرجات متنوعة .

ولعل أخطر هذه الصور والدرجات أن يتخفى التبشير في شكل منظمة وطنية لا تحمل رايات النصرانية ولا اسمها ، ثم تمارس هذه المنظمة بثاً خفياً ، وتطبيعاً غير مباشر ، وتمييعاً غير محدد يلتقي في النهاية مع أهداف التبشير ومخططاته . .

وإذا كان المسلم الحذر بعيداً عن مؤسسات التبشير الواضحة الهوية ، فلعله يسقط في شراك المنظمات التي أتقنت التخفي ، وأجادت التنكر . .

وقد يتصور البعض – بسذاجة وحسن نية – أن العمل التبشيري لا يتم إلا في مجتمعات وثنية أو لا ديانة لها . . بيد أنه – فعلا وحقيقة – يحاول التسلل إلى كل مناطق العالم : إسلامي وغير إسلامي . ففي جميع أقطارنا الإسلامية ، مراكز ومحاولات ، وبرامج ومؤامرات لزرع التبشير وغرس بذوره . .

وغالباً ما يظهر المبشرون بسلوك غاية في الورع والتقوى ، ومثالا للوفاء والإخلاص . . ولكاتب هذه السطور تجربة شخصية مع واحد منهم :

فأثناء دراستي بالولايات المتحدة ، كان من بين زملائي زميل كندي كان مثالا للتعاون وحسن المعاشرة ، ونموذجاً للصلة وحسن الجوار . . وفي كثير من المواقف كان يمد يد المساعدة لزملائه الأجانب من إفريقيين وآسيوين . .

وكثيراً ما أعانني في نسخ بحوثي على الآلة الكاتبة ، وأمدني بمصادر ومراجع ، وكشف لي عن تفسيرات وتوضيحات .

وبعد أن توثقت صلتي به ، وتوطدت علاقتي به ، بدأ يشرح لي أسرار العقيدة المسيحية ، ومزايا الإيمان بها ، والتمسك بأهدابها . .

وأثناء الحوار والمناقشة تبين لي أنه أمضى ثلاث سنوات في كولمبيا – بأمريكا الجنوبية – للتبشير والخدمة المسيحية اكتسب من خلالها أساليب معينة للتعامل والتودد ، للخدمة والاتصال . .

وبدلا من أن تتحول جلساته معي – التي كان يصر على أن تكون منفردة ومغلقة – إلى جلسات تبشير ، أضحت مناقشة علمية هادئة ، وتحليلا منطقياً متزناً . من هنا أدرك تدريجياً أن محاولة تبشير مسلم ، جهد لا طائل وراءه ، ولا مكسب منه ، بل مضيعة لوقته ، وربما تشكيك في تسلسل وجهة نظره ! !

وفي النهاية اعترف أن المناقشة مع المسلمين تحرج غير المسلم ، وتضعه في مآزق فكرية ، وتكشف عما في منطقه من عدم اتساق وتضارب . . ولهذا توقف ، ومن يومها تراجع ، وبدأ يعد أوراقه لجولة جديدة في أمريكا اللاتينية حيث الفرصة أكبر ، والميدان فسيح . .

والمراجع التي أشرت إليها في الهامش – منذ عدة صفحات – تفيض هي – وغيرها – (١) بالسموم والدسائس التي حاولت بها أجهزة التبشير السيطرة

---

(١) مثل دراسة :
على محمد جريشة · الأساليب التبشيرية فى العصر الحديث الجزء الخامس من مطبوعات المؤتمر العالمى لتوجيه الدعوة والدعاة · الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٣٩٧ هـ ·

بها على عقول المسلمين وغزو شخصياتهم عن طريق الطب ، والأدوية ، والتغذية ، والتعليم ، والتثقيف ، والترويح ، والرياضة ، ومراكز الترفيه والخدمة الاجتماعية ، ونوادي الشباب ، والمكتبات العامة ، ومراكز بيع الكتب والوسائل الثقافية . الخ .

ولا يقتصر الأمر على هذه الوسائل والوسائط الثقافية والتربوية ، بل يمتد إلى وسائل سياسية من أحزاب وجماعات ، وتنظيمات ومؤسسات للضغط والتأثير ، ولإثارة الفتن والقلاقل . .

ويمتد الأمر كذلك إلى السيطرة الاقتصادية ، والامتيازات الأجنبية التي يمكن من خلالها تشغيل الشعب وتجويعه وترفيعه وحرمانه ومده برغيف الخبز أو منعه عنه . ولا شك أن هذا الطريق : يوماً بعد يوم ، وجيلا بعد جيل ، ومرتبة بعد أخرى من الممكن أن يسيطر على اقتصاد المجتمع ، وعلى موارده المالية والمادية ، وعلى أساليب إعداد موارده البشرية . ومن ثم يحكم قبضته على رأس المال البشري والمادي ، ويسيطر على الموارد المنظورة وغير المنظورة ، وعلى الدخل المباشر وغير المباشر ، وعلى الميزانيات الرأسمالية والجارية ، وعلى الإنفاق الحكومي والأهلي ، وعلى مؤسسات الإنتاج والخدمات .. الخ .

ولو ضمن الاستعمار والتبشير ذلك – أو بعض ذلك – فقد سيطر على الشرايين والأوردة ، وعلى الجهاز العصبي الموجه للمجتمع والمحرك لمؤسساته ومرافقه .

وهذا ما سنعالجه في الفصل الثاني بشيء من التفصيل إن شاء الله . .

* * *

الفصل الثاني

أهداف الغــزو الفكرى ووسائله

هذا الفصل ــ كما هو واضح من عنوانه ــ ينقسم إلى محورين متكاملين : الأهداف ، ثم الوسائل . ولنناقش كل منها بشيء من التفصيل :

المحور الأول : أهداف الغزو الفكرى

وهذه الأهداف يمكن بلورتها في ست النقاط التالية :

١ ـ تشويه صورة الإسلام :

وهذا التشويه لا يقتصر على جانب واحد ، ولا يشكك في نقطة بعينها بل يشمل الإسلام بجميع جوانبه ، وفي كل ركائزه .

من هنا نجد محاولات لتشويه ، القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وشخص الرسول عليه الصلاة والسلام ، والتاريخ الإسلامي ، ونظام الحياة الإسلامية ، والتراث الإسلامي (١) .

---

(١) راجع تفاصيل التشويه فى كتاب :
على عبد الحليم محمود · الغزو الفكرى وأثره فى المجتمع الإسلامى المعاصر · دار البحوث العلمية · الكويت · ١٣٩٩ ص·ص ٢١ ـ ١٢٠ ·

من هنا نجد محاولات للتقول على الإسلام ، والادعاء عليه ، ومحاولة تشويه صورته عند أصحابه ، وعند غير أصحابه (١) . .

ولو ضمن الغزاة تشوه صورة الإسلام عند أصحابه ، فمعنى ذلك أنهم فقدوا الدليل والمرشد ، الموجه والمنظم . .

ولو ضمن الغزاة تشوه صورة الإسلام عند غير أصحابه ، فمعنى ذلك أنهم لن يدخلوا فيه ، أو يتظللوا بوارف ظلاله . .

وبذلك يضمن الغزاة أنهم قطعوا الصلة بين المسلمين ودينهم ، وحجبوا غير المسلمين عن الإسلام . وهم بذلك يتصورون أنهم يقيمون سداً ، ويمنعون زاداً بيد أنهم في وهمهم غارقون « ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » (٢) .

٢ ـ التشكيك في تاريخ الأمة :

لكي تُبتّر صلة هذه الأمة بتاريخها ، فلا بد من تشويهه ، والتشكيك في مفاخره ، والتركيز على مباذله ، بحيث تنمو أجيال لا تعرف منه إلا عصور الظلم والاستعباد ، فترات القلق والاضطهاد ، مراحل القهر والقحط . وبذلك كله يرى الناشيء تاريخ أمته مسلسلا من العذاب ، وحلقات من السواد . .

فالعبودية ، والرق ، والحروب ، والاضطهاد الديني والعنصري ،

---

(١) راجع التفاصيل :
عباس محمود العقاد · ما يقال عن الإسلام · موسوعة العقاد الاسلامية · المجلد الخامس · دار الكاتب العربى · بيروت ١٣٩١ ·
(٢) سورة التوبة : آية ٣٢ ·

وفترات المجاعات والأزمات ، ومراحل الخلاف والتنافر ، وأوقات الصراع والتمـــزق . . الخ . كل ذلك ــ وغـــيره ــ هو محور التاريخ الإســـلامي الذي ينبغي تقديمه للناشئة بحيث لا يصبح أمامهم غير بديل واحد :

هو أن يلفظوا تاريخهم ،ويستطلعوا تاريخاً آخر يحتمون فيه ويلجأون إليه !

إذن القضية ليس مجرد تشكيك ، بل سلخ ، ونهب ، واجتثاث ، ثم محاولة للإذابة في كيان آخر ، وثقافة مغايرة . .

فإذا قدم التاريخ الإسلامي باهتاً ، دموياً ، وحشياً . . وقدم التاريخ الأوروبي وردياً ، إنسانياً ، عقلانياً . . فالشيء الطبيعي أن الناشيء المسلم تتوجه استجاباته للتاريخ الأوروبي يجد فيه راحة ، وثراء ، وسماحة ، وسعياً دائباً للتقدم والنماء . .

ولهذا في جميع عالمنا الإسلامي نلحظ ظاهرتين :

– تشويه تاريخنا في كل المصادر والمؤلفات التي صدرها لنا الغزاة وتلاميذهم . .

– الإشادة بالتاريخ الأوروبي ، ورفع شأنه ، وتجلية انتصاراته . .

لهذا لم يكن غريباً في الجزائر أن تبدأ دراسة التاريخ مع سنة ١٨٣٠ ، أي مع بداية الاحتلال الفرنسي ! ! فالجزائر تاريخها ، ووجودها ، بل وربما اكتشافها (! !) مرتبط بالاستعمار الفرنسي الذي بذل المستحيلات لتطوير البلاد ، وتنميتها ، وتخليصها من الجهل ، والتخلف المرتبط بالإســـلام والمسلمين (١) . .

---

(١) راجع تفاصيل الفكرة :
أنور الجندى · العالم الإسلامى والاستعمار السياسى والاجتماعى والثقافى · مرجع سابق · ص·ص ٢٣٩ ــ ٢٥٢ ·

وهذه الظاهرة نلحظها في جميع بلادنا الإسلامية : إفريقية وآسيوية ، عربية وغير عربية . محاولات مستميتة لتشويه تاريخنا وتقديمه بصورة لا يملك معها الناشيء غير النفور والانسلاخ . . ولقد ناقش هذه الظاهرة الأستاذان مصطفى خالد وعمر فروخ عندما ناقشا موضوع الكتب المدرسية وما بها من طعن على الإسلام (١) .

ومثل هذا شهدناه عندما فرضت السلطات الإسرائيلية تغيير كتب المواد الاجتماعية في الأرض المحتلة عقب حرب ١٩٦٧ لكي تتحول هذه الكتب لما يرضي أطماع الصهاينة ، ويحقق أهدافهم . كما أنهم منذ سنة ١٩٤٨ يدرسون لطلابنا الفلسطينيين كتباً لا تحمل إلا وجهة نظر الصهيونية في التاريخ الإسلامي والعربي بها كثير من التلطيخ ، وكثير من التزوير ، وقليل من الإنصاف (٢) ..

وشبيه بذلك أيضاً ما كان يجري في عهود الاحتلال العسكري والسيطرة الأجنبية الواضحة ، فمئات من الكتب الدراسية كانت موجهة لخدمة المستعمر ولتشويه تاريخنا وواقعنا ، حدث ذلك في الكتب الدراسية بليبيا (٣) والصومال (٤)

---

(١) مصطفى خالدى وعمر فروج · التبشير والاستعمار · مرجع سابق · ص·ص ٧٢ ـ ٧٤ ·

(٢) راجع الفكرة كاملا :
صالح عبد الله سرية · تعليم العرب فى اسرائيل · منظمة التحرير الفلسطينية · بيروت ١٩٧٤ ·

(٣) راجع :
حسن محمود · ليبيا بين الماضى والحاضر · مؤسسة سجل العرب· القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٢٠٩ ، ص ٢٥٣ ·

(٤) (تعليق) بالنسبة للصومال وعلى سبيل المثال فقد وصف المجـــاهد الصومالى الكبير السيد محمد بن عبد الله حسن الذى ظل يحارب هـؤلاء الغزاة قرابة عشرين وصف فى تواريخهم بأنه«الشيخ المجنون ورجل الحديد =

والسودان ومصر ، وبالكتب الدراسية في الهند والفلبين والملايو . . الخ .

والأخطر من ذلك أن بعض هذه الكتب تغير أسماء مؤلفيها وأعيدت طباعتها بصورة مخففة وأكثر حيطة وما زالت تدرس وتناقش في أرجاء العالم الإسلامي ! !

كما أن مئات من الكتب الدراسية والثقافية في أنحاء العالم ، ما زالت مسممة بكثير من الاتجاهات ضد الإسلام والمسلمين ، تاريخاً وحاضراً . . والمتتبع للإعلام الغربي في السنوات الأخيرة يشاهدالتشويه والتزوير ، التنكيت والتبكيت سراً وعلناً ، بطريق مباشر وغير مباشر ضد الإسلام والمسلمين ، ضد العرب والإفريقيين . . واستغلت أحداث إيران في السنة الأخيرة أبشع استغلال لتسميم علاقة العالم كله بالإسلام والمسلمين . . كما استغلت أزمة الطاقة العالمية لتسميم علاقة العالم كله بالعرب على أساس أنهم مصدر شقاءالعالم ، وسر أزمته الراهنة ! !

فلو كانت إيران دولة غير مسلمة . .

ولو كان البترول في أيدي دول غير مسلمة لتغير الحال ، واستقر المقام ، وهدأت أحوال العالم ، وانتظمت حركته ، واطرد نموه ! ! وهناك الآلاف من النكت ، والرسوم الضاحكة ، والأغنيات والتمثيليات ، والمقالات ، والكتب ، والأفلام السينمائية والتليفزيونية صممت خصيصاً للتركيز على هذه الظواهر ، وبخاصة أن كثيراً من أجهزة الإعلام الأمريكي تحت سيطرة

= والنار»و«المسلمالمتعصب» وما هو الا رجل يقول : «ربى الله» ويعمل لتحرير بلاده من الغزاة : أنظر كتابينا «أضواء على الصومال» و «ثائر من الصومال» المؤسسة العربية الحديثة · القاهرة ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ (رئيس التحرير : د·عبد الصبور مرزوق) ·

صهيونية أو بأيدي جماعات لا دينية ، كما أن كثيراً من مقدمي البرامج التليفزيونية ، ونجوم الكوميديا الأمريكية يهود صهاينة ، من هنا فالتندر على الإسلام والمسلمين ، والتنديد بالعرب يجري يومياً على التليفزيون والمسارح الأمريكية ، ولا تخلو القارة الأوروبية من أمثلة له وشواهد عليه . .

والعكس صحيح تماماً . .

فلو حدث تندر أو تنديد بالصهيونية على قناة من قنوات التليفزيون الأمريكي ، لتدافعت صيحات الشكوى ، وتدفقت برقيات الاستنكار ، وملئت أنهر الصحف والمجلات بالمذكرات والاحتجاجات . .

وهذا هو أحد الفروق بين التنظيم الصهيوني اليهودي : التحرك ، النشط ، الفعال ، المتابع ، الضاغط ، الماثل للعيان . . الخ . وبين التنظيم العربي أو الإسلامي بالدول الأجنبية : خافت الصوت ، بارد الأطراف ، أقرب للوظيفة الحكومية منه للرسالة والعقيدة ، وأميل للاحتجاب والصمت بحكم عشرات العوامل والأسباب الوظيفية أكثر منها مقنعة (١) . .

٣ ـ التشكيك في حاضر الأمة :

لا يقتصر الأمر على تاريخ ، بل يمتد إلى حاضر .

فإذا شُكل الشباب الجديد على كراهية لهذا الحاضر ، ونفور من تخلفه ،

---

(١) قد يبرر البعض ذلك بأن اليهود والصهاينة مسيطرون تماما على الفكر والاعلام والجامعات الامريكية . وهذا تصوير غير دقيق ، وغير علمي ، هو مجرد تبرير ، وسقوط في براثن الخمول والدعة ، وتصديق لشائعات أكثر منها حقائق ، وحرمان من الحركة والنشاط : فاذا كان الصهاينة مسيطرين ، فكيف لنا أن نتحرك ؟

واقشعرار من رجعيته ، فالسلوك الطبيعي أن يبحث له عن مخرج ، وأن يستطلع نافذة جديدة يستنشق منها الهواء الصحي والصحيح ! !

فالاقتصاد الحالي متخلف ، ولا حل لتقدمه إلا بالاندماج في الاقتصاد الرأسمالي أو الاشتراكي . .

وتقاليدنا وعاداتنا متحجرة ، ولا تجديد لها إلا بالاقتباس من ثقافة أكثر رقياً وأعلى منزلة . .

ومؤسساتنا الثقافية والتعليمية لا تنشر غير الجهل والجهالة ، ومن ثم لا بد من الإطاحة بها جانباً لنذوب في ثقافة البحر المتوسط ، أو الثقافة الأمريكية الأحدث والأرقى ، أو الثقافة الاشتراكية السوفيتية الأعدل والأنصف ! !

من هنا ليس غريباً أن نجد دعوات أجنبية ومحلية ، مكشوفة أو مستترة تطالب بكل ذلك وأكثر من ذلك . .

فسلامة موسى كان يطالبنا بأن نغلق الأزهر لأنه لا ينشر إلا الجهل والجهالة ولا يقدم إلا وجبات عفنة مضى عليها ثلاثة عشر قرناً . .

وشبلي شميل كان يطالب بإلقاء الجامعة المصرية الناشئة سنة ١٩٠٨ في البحر لأنها بدأت متخلفة ، واستمرت رتيبة تحمل مواداً وموضوعات تنتمي للتراث العتيق ، والتخلف السحيق . .

وطه حسين كان يطالبنا — على الأقل في مرحلة من حياته — بالذوبان في ثقافة المتوسط ، وإحياء الفرعونية والمصرية . .

وهناك مئات من الكتاب والمفكرين والصحفيين في جميع أرجاء عالمنا الإسلامي ينفرون من الحاضر بصور ودرجات مختلفة . .

وثمة قطع داكنة في حاضرنا ، تستحق التغيير والتبديد . . لكن يبقى السؤال : هل تبديدها ، بالذوبان في الآخرين ، أم بتطوير الذات وتجديدها ؟

هل لو تطورنا بالاندماج في الآخرين ، فهل سيتجدد الحاضر ، وتنبعث فيه رياح التقدم والإصلاح ؟

هل خلع الحاضر والذوبان في آخرين ، يعني النجاح مثل الآخرين ؟

هل تبعية اقتصادنا للرأسمالية أو الشيوعية يعني تحقيق نفس نجاحاتهم الاقتصادية ؟

هل استخدام الانجليزية لغة تدريس في كلياتنا العلمية ، يعني خريجاً بنفس مستوى الجامعات الانجليزية والأمريكية ؟

هل التعامل مع بنوك ربوية يجعل اقتصادنا منافساً للاقتصاد السويسري أو الأمريكي ؟

هل تصفية التعليم الديني يضمن لنا خريجين بنفس مستوى جامعات موسكو وواشنطن ؟

هل استخدام الانجليزية لغة تخاطب في بعض المستشفيات العربية ، يجعل مستوى خدمتها مماثلة للمستشفيات الانجليزية ؟

هل استخدام الفرنسية لغة تخاطب في هذا الشارع أو ذاك ، يجعل منها باريس جديدة ؟

عشرات الأسئلة تطرحها قضية التجديد الحضاري ، وأنسب أساليب تطوير الحاضر وترقيته بدلا من خلعه والنفور منه . .

وخلع الحاضر ، وإلقائه في البحر ، لا يضمن أن المستقبل سيكون أكثر إشراقاً ، وهناك عشرات التجارب الثقافية الحضارية توضح ذلك سلباً أو إيجاباً . .

فالمكسيك إذا خلعت ثقافتها المكسيكية لا يعني أنها ستصبح ولاية أمريكية منافسة لنيويورك أو كاليفورنيا . .

واليابان على العكس ، تقدمت ، ونافست ، وتبوأت دون أن تفقد خصوصيتها الثقافية وهويتها الحضارية . .

إذن خلع الحاضر الإسلامي وإلقائه في أقرب – أو أبعد – بحر لا يضمن سلامة المستقبل وخلوه من أمراض الحاضر .

ويبقى سؤال عكسي :

إذا كانت الحضارة الأوربية والأمريكية الآن تشكو كثيراً من العلل والأمراض ، فكيف لنا أن نقتبسها ونقتدي بها ؟

وإذا كان المفكرون الغربيون الواعون ، يدركون التناقض وجهامة المستقبل ، فكيف لنا أن نطالب بهذا المستقبل ؟

وإذا كانت المجتمعات الشيوعية تعاني أزمات وتحاول الفكاك من النظام برمته أو من بعض قيوده ، فكيف لنا أن ننشد هذه القيود ؟

وكيف لنا أن نحلم بهذه النظريات ، أو نبدأ بتطبيقها في بلادنا عنوة وقهراً ؟

٤ ـ التشكيك في مستقبل الأمة :

إذا كان الماضي رجعية ، والحاضر عفنا ، فكيف سيكون المستقبل ؟ لا بد أنه ظلام وبوار وخراب . .

إذن فلنغض البصر عن ماضينا ، ولننصرف عن حاضرنا ، ولنندمج في غيرنا لكي يأتي المستقبل مشرقاً زاهراً وضاءً . .

فالتخلف الإسلامي لا علاج له إلا بالمستقبل الغربي أو الشرقي :

فالعدل هناك والظلم عندنا ، الحرية هناك والكبت عندنا ، الاستقلالية هناك والقهر عندنا ، التقدم هناك والتخلف عندنا ، الصحة هناك والمرض

عندنا ، الغني هناك والفقر عندنا ، القوة هناك والضعف عندنا ، العلم هناك والجهل عندنا ، الاستنارة هناك والظلام عندنا ، الفوائد هناك والخسارة عندنا . .

ولكن ماذا في الغرب أو الشرق من مشاكل ؟

لا تجد جواباً ، ولا تسمع رداً . .

أين مشاكل التضخم ، والتلوث (١) ، والجريمة ، والتفكك الأسري ، والهوس الجنسي ؟

أين مشاكل الأمراض الجنسية ، والشذوذ ، والبغاء ، واغتصاب الصغار والكبار ، الذكور والإناث ؟

أين مشاكل الإنسان ذو البعد الواحد ، واللامنتمي (٢) ، وحضارة ما بعد التصنيع ؟

---

(١) راجع :
دونيليا ميذوز وآخرون • حدود النمو • ترجمة محمد مصطفى غنيم • دار المعارف ١٩٧٦ •
والكتاب عبارة عن تقرير لنادى روما عن المأزق الذى تواجهه البشرية نتيجة الحضارة الغربية وردود فعلها فى العالم المتخلف والنامى • والكتاب دراسة ممتازة يغلب عليها التشاؤم الذى له كثير أو قليل من المبررات •
(٢) راجع :
ـ كولن ولسن • اللامنتمى • ترجمة أنيس زكى حسن • دار العلم للملايين • بيروت ١٩٦٣ •
ـ ازوالد اشبلنجر • تدهور الحضارة الغربية •
ـ كونستانتان جيورجيو • الساعة الخامسة والعشرين • ترجمة فائز كم نقش • دار اليقظة العربية • دمشق ١٩٦٦ •
والكتاب الاول لمفكر انجليزى ناقد للحضارة الغربية فى عدة مؤلفات =

أين الفروق الحادة بين الأغنياء والفقراء ، بين البيض والملونين ، بين السكان القدامى والمهاجرين ؟

أين مشاكل الطاقة ، والبطالة وبخاصة في أوساط الملونين والفقراء ؟

أين الفروق المذهبية والجنسية والعقائدية التي تنحر وتنخر بعض مجتمعات الغرب ؟

أين الحرب الايرلندية بين الكاثوليك والبروتستانت ؟ أين الفتن الطائفية في أسبانيا ويوغسلافيا ؟

أين صراع الأقليات والقوميات في تشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفيتي ؟

أين الاضطهاد العنصري والديني في الولايات المتحدة ؟

كل ذلك – وغيره – يتجاهلونه ، ويتعمدون نسيانه بحيث لا يرى القاريء أو الفاحص إلا صفحة بيضاء مشرقة في الغرب ، وأخرى مظلمة ملطخة في تاريخنا الإسلامي ، وواقعنا الراهن ، ومستقبلنا المشئوم !!

وإذا كانت الأفكار والمراجع السابقة يمكن اتهامها بقليل أو كثير من التحيز – بحكم أنها مترجمة إلى اللغة العربية – فلنرجع إذن إلى مراجع بلغاتها الأصلية لنتبين : هل حاضر ومستقبل الغرب مشرق إشراقاً تاماً ، أم أن به بقع رمادية ، وسحائب سود ؟

هناك مئات الدراسات الغربية الجادة ، كتبها أصحابها بدون شبهة

= والكتاب الثانى لمؤرخ وفيلسوف المانى أدرك تناقض ، وتدهور الحضارة الغربية .

والكتاب الثالث رواية لمؤلف رومانى يعانى من قسوة الحياة الآلية سواء فى حكم الغرب أو الشرق .

تعصب ، وبدون ادعاء تحامل . كتبوهـــا من واقع حرصهم عـــلى ثقافتهم ، وليس من موقع الشماته أو التنديد . كتبوها من فرط حرصهم على مستقبلهم ، وليس من قبيل الطعن أو سحب البساط . .

وهذه الدراسات الجادة – وكثير منها قامت به مؤسسات حكومية رسمية (١) – عالج مشاكل الحاضر (٢) ، وتشوف رؤى المستقبل ولحظ ما بها من كلف وسواد ، من ظلم وظلام . .

والمراجع الثلاثة المشار إليها في الهامش ، تتسم بالموضوعية والحياد ، وليس بها تعصب أو غوغائية ، للحضارة الغربية ، بل محاولة جادة للكشف عن بعض عيوبها .

---

(١) منها الدراسة الامريكية الشهيرة التى قادها كولمان ، وعالج فيها مع فريقه عدم تكافؤ الفرص التعليمية فى الولايات المتحدة · وهذه الدراسة والتحليل الاجتماعى الرسمى مدى فقدان تكافؤ الفرص التعليمية نتيجـة لا يستطيع باحث أو مفكر أمريكى تجاهلها ، فهى تثبت بالإحصاء الحكومى اختلاف اللون ، والطبقة ، والدخل ·· الخ

J.S. Coleman et al. Equality of Educational opportunity. Washington. D.C. Government Printing office 1966.

(٢) منها دراسة هامة وجادة لواحد من أبرز التربويين الامريكيين هو جيمس كونانت ناقش فيها الفروق التعليمية والثقافية والحضارية الساحقة بين الأزقة والضواحى الراقية ·والدراسة تحمل عنوان«الأزقة والضواحى»·
J.B. Conant. Slums and Subrbs. New York, Mcgraw - Hill Com. 1961.

ومنها دراسة أخرى أحدث قام بها فريق بقيادة جينكس ركزت على عدم تكافؤ الفرص الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية فى الولايات المتحدة·
C. Jencks et al. Inequality : A Reassessment of family and Schooling in America. N.Y. Basic Books 1972.

وهناك أيضاً عشرات الدراسات الهادئة الهادفة التي كتبت داخل الكتلة الشرقية – وغالباً خارجها – لمناقشة مشاكل تطبيقهم ، وتناقضات حاضرهم ، مع استبعاد الكتب الدعائية والنشرات الإعلامية التي تمدح من قبيل المدح ، وتذم من قبيل الذم دون دراسة وبحث ، ومن غير تحليل وفحص . .

وإذا كان ذلك كذلك ، فلماذا يطالبوننا بأن نئد ماضينا ، ونصادر حاضرنا ، ونصفي مستقبلنا لنندمج فيهم قلباً وقالباً ، مستوى ومحتوى ؟

لماذا يطالبوننا بأن نتذكر مشاكلنا ، ونتناسى مشاكلهم ؟ونكشف عن عيوبنا ، وهم يسترون تناقضاتهم ؟

إذا تناسينا حاضرنا ، فهل سيأتي مستقبلنا مطابقاً لمستقبلهم ؟

وهل بحثهم عن الأمان الروحي والاطمئنان النفسي ، يدفعنا لنسيان ديننا وتجاهل عقيدتنا ؟

والفاحص للحضارة الأمريكية والأوربية ، يلمس فراغاً روحياً هائلا ، ومحاولات مستميتة لشغل هذا الفراغ بديانات مخترعة ، وجمعيات سرية وعلنية ، وتنظيمات سوية ومرضية ، وهيئات عاقلة وشاردة . .

مئات الصرعات والاتجاهات ، المنظمات والهيئات ، داخل المدارس والجامعات ، في الشوارع والحانات ، النوادي والتجمعات تحاول ملأ الفراغ الروحي والخواء الإيماني ، ثم يطالبوننا بالتخلي عن ديننا وخلع عقيدتنا ! !

ومن جرب العيش في الولايات المتحدة يلمس الجهد الهائل لعشرات المذاهب ذات الأصول البوذية والهندوكية والوثنية والفرعونية (١) . . الخ :

(١) تشير بعض التقارير الأخيرة إلى أنه يوجد ما يقرب من ٥٠٠ نوع من الجمعيات الدينية والروحية ليس لها صلة بالأديانالسماوية، تمارس نشاطها جهرا أو سرا ، وينتظم فى صفوفها ما يزيد عن ٢٠ مليون مواطن ، أى ما يقرب من ١٠٪ من الشعب الامريكى !!

رهبان بوذيون في « هاري كريشنا » ، وحراس مسلحون في أحراش جوايانا ، وبرتقال مسمم عند « الأب جونز » ضحيته ٩١٤ من رعايا فرقته (١) !!

عشرات الصرعات « والموضات » ، تظهر وتختفي ، تطفو وتغوص ، تشجعها البهائية والماسونية ، وتوجهها أحياناً المخابرات المركزية والمباحث الفيديرالية F. B. I. ويريدون لنا اقتباساً من شطحاتها ، بحيث نترك الجوهر الخالد إلى الزبد الأجوف متجاهلين قوله سبحانه وتعالى : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » (٢) . .

٥ ـ تذويب شخصية الأمة :

بعد التشويه ، والتشكيك ، تتم مرحلة التذويب بحيث تفقد الأمة الإسلامية هويتها ، وتذوب فيما يغاير طبيعتها ، وينافر عقيدتها . .

فجميع القوى المعادية للإسلام ، أعطت لنفسها – بغير حق – حق الاضطلاع بتوجيه شعوبنا ، معتبرة ثقافتها النموذج الواجب الاقتداء به . وفي هذا يقول مفكرونا الإسلامي « الحبابي » أن الاستعمار مدفوع إلى تآمر بشع بحكم طبيعة تكوينه :

يتآمر ضد خيرات الأرض وما تحت الأرض ، وضد كرامة الأهالي . وتتجلى فعاليات القضاء على تلك الكرامة في قبر الثقافات الوطنية بالبلدان المستعمرة .

نعم ، ما ضاع حق وراءه « طالب » ، ولكن ، إذا قضى على شخصية

---

(١) الإشارة إلى فرقة «معهد الشعب» التى أسسها المشعوذ جيم جونز وانتهت بمصرع كل هذا العدد ومصرعه فى غابات جوايانا قرب نهـــاية ١٣٩٨ هـ

(٢) سورة الرعد : آية ١٧ .

هذا « الطالب » سهلت السيطرة على المطلوب (٢) » . .

وتذويب شخصية الأمة من الممكن أن يتم بعشرات الوسائل : مباشرة وغير مباشرة ، وواضحة وضمنية ، ومادية ومعنوية ، وأجنبية ومحلية ، واقتصادية واجتماعية ، وتعليمية وثقافية ، وعسكرية ومدنية ، على أرضنا ولمن يسافر للخارج . . الخ .

وتفاصيل هذه الوسائل سيشار إليها في المحور الثاني الخاص بوسائل الغزو . والمؤكد أن محاولات الغزو تدرك جيداً أن الاستيلاء على عقل الأمة ، وجهازها العصبي ، يضمنان دوام السيطرة الأجنبية والتبعية بكل صورها ودرجاتها . فالاحتلال النفسي ، وغزو العقيدة والشخصية يضمنان الخضوع والاستسلام ، الخنوع والتدجين .

والذي يكمل الصورة السابقة الازدواجية التي يتعامل بها الغرب والشرق معنا : فعلى قدر محافظتهم على هويتهم ، على قدر محاولتهم تدمير هويتنا ! !
فالمزارعون الفرنسيون اليوم يحرقون السيارات الواردة إليهم التي تحمل المنتجات الزراعية الأسبانية ، خوفاً من المنافسة وانخفاض الأسعار — رغم السوق الأوربية المشتركة — ونفس هؤلاء المزارعين على استعداد تام لغزو أسواقنا وسحق منتجاتنا . .

والتربويون الأمريكيون حريصون على حماية تعليمهم وثقافتهم ، لنقل التعليم الانجليزي أو الألماني لبلادهم ، وفي نفس الوقت مصرون على غزو تعليمهم لمختلف أنحاء العالم ..

---

(٢) محمد عزيز الحبابى . من المنغلق إلى المنفتح ، ترجمة محمد برادة . الأنجلو المصرية . الطبعة الثانية ، ١٩٧٣ . ص ١٨٥ .

والعلماء الغربيون والشرقيون متمسكون بتراثهم وقيمهم ومستقبلهم ، وفي نفس الوقت يسهمون في كل مخططات غزو العالم الإسلامي – وغير الإسلامي – وكثيراً ما انتظموا في أجهزة المخابرات والتبشير . .

وجميع القادة الغربيين والشرقيين والصينيين حريصون على التخاطب والتباحث بلغاتهم القومية ، وفي نفس الوقت يدبرون لغزو العالم بالانجليزية أو الروسية . .

وثمة واقعة تعليمية صغيرة حدثت على أرضنا تكشف عن عمق هذه الازدواجية : فلقد اضطرت المدرسة الألمانية في القاهرة سنة ١٨٧٦ – ولسنوات محدودة – للاهتمام باللغة الفرنسية . .

ولم تمر هذه الحادثة – منذ مائة سنة – بسلام . . فقد اعترضت الجالية الألمانية بمصر . . وتدخلت الحكومة الألمانية فقطعت إعانتها عن المدرسة « لأنه من غير المعقول أن تخصص ميزانية وزارة الخارجية الألمانية لمدرسة لم تعد في جوهرها ونظامها ذات طابع ألماني » (١) . .

ولم تستقم الأمور إلا بعودة الألمانية لغة أساسية بالمدرسة .

مثل هذه الواقعة الصغيرة توضح حرص الأجنبي – جالية وحكومة – على لغته القومية وتشدده في تعليمها وتعلمها ، بينما أغلقت الحكومات الأجنبية مدارسنا الرسمية إذا دار فيها حوار باللغة العربية ، ومنعت تدريس الدين الإسلامي واللغات القومية للطلاب المسلمين في مدارس الجاليات والتبشير

---

(١) ايريش هورن · المدرسة الألمانية بالقاهرة فى مائة عام · هانس رويس (محرر) ألمانيا والعالم العربى · ترجمة مصطفى ماهر · دار صادر· بيروت ١٩٧٤ ، ص·ص ٥٤٦ ـ ٥٤٧ ·

ببلادنا ، بل وحتى في مدارسنا الرسمية إبان سطوة الاحتلال وعنف نفوذه .

٦ ـ احلال عناصر ثقافية جديدة :

بعد التشويه ، والتشكيك ، والتذويب لا يبقى غير زراعة ثقافة جديدة توجه العقول ، وتحكم السياسة ، وتصنع القرارات ، وتحرك الشخصيات ، وتشوه الضمائر ، وتلعب بالقيادات . .

فلو ضمنت أجهزة الغزو أن المسلمين حملوا ديناً غير دينهم ، أو فهموا دينهم فهماً خاطئاً ، وانحرفوا عن جادة الطريق فذلك هو الانتصار الكبير ، والفوز المبين . .

والمؤكد أن جميع أجهزة الغزو والتغريب والتبشير عجزت وستعجز عن تغيير ديانة المســلمين ، بل وليس هناك مبرر قوي لكي يرتد ٨٠٠ مليون عن دينهم ، لكن الممكن والمفيد ، المقدور عليه والمجدي أن يفهم المسلمون دينهم فهماً خاطئاً ، فيتعاملون معه عه أنه عقيدة فقط تربطهم بالسماء ، في حين تنجرف نظمهم وتنظيماتهم شرقاً أو غرباً . .

فالبديل الأمثل – من وجهة نظر جميع أجهزة الغزو الفكري – أن يظل المسلمون يحملون أسماء إسلامية ، ويؤدون العبادات كاملة أو منقوصة ، أما المعاملات ونظم الحياة وتنظيمات المجتمع فلتتحول إلى نظم غربية أو شرقية تحمل قسماتها وتتبنى فلسفتها . .

وإذا تحقق ذلك فقد قضى الأمر ، وتحقق الهدف :

مسلمون بالاسم ، ومتدينون بالعبادة ، بينما الاقتصاد والتعليم ، السياسة والعادات ، غربية أو شرقية . .

وثم محاولا ت تمت على الأرض الإسلامية بهذه الطريقة ، بعضها دبر بذكاء وعمق ، وبعضها بغباء وسطحية . .

ومن أشهر هذه المحاولات فرض العلمانية كنظام حياة وفكر وتعامل (١) في الاقتصاد والتعليم والثقافة والقانون والسياسة وتربية الأجيال والتعامل مع الآخرين . . الخ .

ومن هذه المحاولات محاولة فرض الناساكوم (أي القومية الدينية الشيوعية) في أندونسيا ولمدة سنوات طوال أيام حكم سوكارنو (١) . .

ولو تتبعنا هذه المحاولات لوجدنا نماذج في اليمن الجنوبية الشعبية ، والصومال (٢) وغيرهما ، وجميعها محاولات مدعومة بالحديد والنار ، وبالتهديد والقمع ، وبالإرهاب والعسر . .

هذه كانت أهم أهداف الغزو الفكري بلورت في ست نقاط من تشويه ، إلى التشكيك ، إلى تذويب ، إلى إحلال لعناصر جديدة ننتقل بعدها لمناقشة المحور الثاني والأخير في هذا الفصل . .

---

(١) راجع :
عماد الدين خليل · تهافت العلمانية · مؤسسة الرسالة ١٣٩٥ ·

(١) راجع :
أبو هلال الاندونيسى · غارة تبشيرية على اندونيسيا · مرجع سابق · ص·ص ١٢ ـ ١٨ ·

(٢) تعليق : من فضل الله أن فطنت القيادة الصومالية إلى الهاوية التى كان يراد لها أن تسقط فيها ، وقد أخذ التيار الإسلامى من جديد يشتد ويقوى وأعيد للغة العربية اعتبارها ، ونشطت الحملات لتحفيظ القرآن والدعوة الاسلامية · وقد أقامت الأمانة العامة للرابطة فى شعبان ورمضان عام ١٤٠٠ هـ دورة لتدريب الدعاة الصوماليين فى مقديشو استمرت شهرا كاملا كما وافق الرئيس زياد برى على افتتاح مكتب للرابطة بمقديشو يتمتع بالحصانة الدبلوماسية · وسيبقى الصومال مسلما إلا إذا تعاون الالحاد والتنصيرعلى إبادته كما يحاولون الآن بواسطة «منجستو» (رئيس التحرير د·عبد الصبور) ·

المحور الثانى : وسائل الغزو الفكرى

لن ندخل في تفاصيلها وتضاعيفها بعد الإسهاب السابق في التاريخ والأهداف ، وسنكتفي بتصنيفها إلى صنفين :

أولا : وسائل مباشرة :

ومنها التبشير ، والتغريب ، والعلمانية ، وقد أفاضت الصفحات السابقة والمراجع المتخصصة في شرح أساليبها وخططها ، برامجها وأهدافها ، وسائلها وأواتها . .

وبصفة عامة يمكن القول بأن هذه الوسائل متدرجة ، متكاملة ، توزع الأدوار بينها توزيعاً عادلا بحيث تختص كل منها بمرحلة من مراحل التطور . .

وغالباً ما تتحرك جميعها في منظومة واحدة ، لتحقيق الأهداف السابقة الإشارة إليها ، وإذا تبين أن الوسيلة الأولى – أعني التبشير – تثير الغضب ، وتستنفر ردود أفعال قوية ، فلا بأس من التركيز على التغريب ، والعلمانية .

وفي كثير من الحالات قد تكون العلمانية أمضى سلاحاً ، وأعمق تأثيراً ، وأقل ضحايا ، ولهذا كله فهي الورقة الرابحة الآن : يركزون عليها ، ويعمقون جذورها ، ليصبح المسلم مسلماً بالتاريخ والولادة والاسم . .

ثانيا : وسائل غير مباشرة :

وتشمل وسائل كثيرة لعل أهمها :

١ ـ السيطرة علـى أجهزة التشريع واتخاذ القرار :

مثل هذه السيطرة طريق أساسي لتوجيه جميع نظم ومنظمات الحياة

بحيث تصبح مواكبة لأهـداف الغـزو الفكري ومخططاته المتكاملة .

أما التشريع الإسلامي ، والاقتصاد الإسلامي ، والتنظيم الإسلامي فلتصبح جميعاً حبيسة الكتب والمراجع ، خزينة الأوراق والوثائق لا ترى النور إلا على مقاعد الدراسة ، ولا تتنفس الهواء إلا في دروس التاريخ : تاريخ التشريع الإسلامي !!

وإذا كان طلاب القانون المسلمون يدرسون تاريخ القانون الروماني ، وتاريخ القانون الفرنسي – مثلا – فليدرسوا أيضاً تاريخ التشريع الإسلامي !! مجرد دراسة تاريخ ووثائق ، وكتب ومراجع ، أما التشريع والقضاء ، والحكم والإدارة ، والمجالس الشعبية والتنفيذية ، والاقتصاد والتعامل ، فينبغي أن يكون وفق القوانين الغربية . من هنا فليس غريباً أن نجد القانون البلجيكي ، والانجليزي شائعاً ورائجاً ، مدسوساً ومبثوثاً في كثير من بلادنا الإسلامية . والأمر لا يخلو – بطبيعة الحال – من قسمات هولندية ، وتشريعات إيطالية ، وتنظيمات أمريكية تحاول التسلل والنفاذ .

ثم تأتي آخر الصيحات من موسكو وبكين ، ووارسو وبلجراد !!

فكثير أو قليل من بلادنا الإسلامية التي اقتدت بالاشتراكيات والماركسيات ، بدأت تقتبس من هذه العواصم – أو القواصم !! تجارب في التسيير الذاتي ، والملكية الجماعية ، والمزارع التعاونية وملكية الدولة لأدوات الإنتاج ، والجيش الشعبي ، والقيادة الجماعية والحزب القائد ، والحزب الواحد ، وديكتاتورية البروليتاريا ، . . (١) الخ .

---

(١) راجع التفاصيل :
يوسف القرضاوي : الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٤ .

والملفت للنظر ، أن هذه الهياكل والتنظيمات بدأت دول شرقية تتراجع عنها وتتحرر منها ، بيتما بعض « الرفاق » يطالبوننا بالاقتداء بها ! ! والمهم أن هذا الاقتداء لا يتم بالإقناع والحوار ، بل بالعسر والإرهاب ، بالسجن والتنكيل ، فما من بلد إسلامي ابتلي بهذه « الأيديولوجيات » المستوردة إلا وتم التنفيذ تحت إكراه السلاح ، وتحت ظلال المشانق ، وبتكميم الأفواه ، وفتح باب المعتقلات بغير محاكمة أو دفاع .

٢ ـ التغلغل إلى أجهزة التعليم :

وبذلك تم السيطرة على التعليم قلباً وقالباً ، وفلسفة وتنظيماً ، ومحتوى ومستوى ، وتمويلا وإدارة ، ومناهجاً وطريقة ، وتدريساً ولغة ، ومدرسين وإدارة .

وخطورة هذه السيطرة أنها تضمن تشكيل الأجيال الناشئة وفق أهداف المخطط السابق الإشارة إليها في المحور الأول . .

وهناك عشرات الأدلة على طريقة إحكام السيطرة على التعليم تكفي إشارة إلى بعضها :

• فرض اللغة الأجنبية ، فما من مرة وضع الاحتلال قدمه ،في بلد إلا وتحولت لغة التعليم والتدريس إلى لغته الأجنبية . . حدث هذا في جميع بلادنا الإسلامية تقريباً بدون استثناء أو خلل . . والمهم ، أن الفارق بين دخول الاحتلال وإلغاء اللغة القومية والتدريس بالأجنبية لم يتجاوز سنة أو سنتين ، ومثال ذلك ما حدث في تونس ومصر . . ولقد سبق لكاتب هذه السطور نشر دراسة مستفيضة عن هذه الموضوع (١) . .

---

(١) راجع :
حسان محمد حسان . التعليم باللغات الأجنبية فى المدارس الرسمية العربية ، تاريخه ، أسبابه ، آثاره . القاهرة ١٤٠٠ .

• تغيير جميع مناهج المواد الاجتماعية والإنسانية لكي تتواكب مع أهداف الغزو ومخططاته . والذي يتتبع ما حدث للمناهج الليبية إبان الاحتلال الفاشسّي ، وما حدث للمناهج الجزائرية إبان الاحتلال الفرنسي ، وما حدث للمناهج التركية بعد إعلان العلمانية سنة ١٩٢٤ ، وما حدث للمناهج الأندونسية إبان سيطرة الشيوعيين ، وما حدث ويحدث في المدارس الفلسطينية تحت ضغط الاستيطان الصهيوني ، .. إلخ والذي يتتبع كل ذلك يدرك مكامن الخطورة، ومواطن الدس ، وقنوات السم .

• إنشاء مؤسسات تعليمية لتوجيه تعليمنا الوجهة المناسبة لغزوهم . . وهناك تفاصيل كثيرة عن مؤسسات التبشير والتغريب التعليمية التي أنشئت في فلسطين والشام بدءاً من دور حضانة إلى الجامعة الأمريكية في بيروت (١) ، والقاهرة ، واستانبول . . وتفاصيل عن كلية « غوردون » المنشأة بالسودان سنة ١٩٠٢ ، وكلية « ماكريري » في يوغندا التي كان يرسل إليها أبناء جنوب السودان خاصة لاستكمال دراستهم وفقاً للأهداف والتوجيهات الانجليزية(٢).. وأخرى عن المؤسسات التعليمية الانجليزية في عدن منذ دخول الاحتلال البريطاني سنة ١٢٥٦ (١٨٣٩) (٣) . .وتفاصيل عن مؤسسات تعليمية

---

(١) راجع التفاصيل :

ـ مصطفى خالدى وعمر فروخ . التبشير والاستعمار فى البلاد العربية . مرجع سابق . ص.ص ٧٦ ـ ١١٢ .

ـ على عبد الحليم محمود . الغزو الفكرى وأثره فى المجتمع الإسلامى المعاصر . مرجع سابق . ص.ص ١٢٧ ـ ١٤٠ .

(٢) راجع :

ضرار صالح ضرار . تاريخ السودان الحديث . مكتبة الحياة . بيروت . الطبعة الرابعة ١٩٦٨ ، ص.ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ .

(٣) راجع :

جاد طه . سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن . دار الفكر العربى . راجع ص.ص ٢٧٥ـ٢٧٦ .

شيوعية تحمل أسماء واضحة وشعارات مباشرة في إقليم ظفار بسلطنة عمان ، وفي جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية . وفي مناطق أخرى وقعت تحت النفوذ الشيوعي في الصومال .

ولقد ناقش عدد كبير من مفكرينا المسلمين خطورة التعليم الغربي التغريبي على حياتنا الإسلامية منهم شاعرنا الإسلامي الكبير « محمد إقبال » الذي أطلق على هذا النوع من التعليم « حامض التعليم » الذي يحاول إذابة الشخصية الإسلامية ومحو خصائصها الأساسية وتشويه ملامحها ، وتوجيهها وجهة غربية بحته في الاتجاه والسلوك والمشاعر . ومن هؤلاء المفكرين مفكرنا الإسلامي المعاصر أبو الحسن الندوي في كثير من كتاباته (١) ، ومحمد محمد حسين (٢) .

٣ ـ توجيه أجهزة الإعلام :

وهذه الأجهزة أشد خطراً من المدارس والجامعات ، فهي تخاطب جميع فئات الأمة : متعلمين وغير متعلمين ، وصغاراً وكباراً ، ونساءاً ورجالا ، وحضريين وريفيين ، وأغنياء وفقراء .. ولا شك أن توجيه الصحافة ، والإذاعة المسموعة ، والمرئية ، والمسرح ، وفنون الغناء ، والتصوير ، والخيالة تضمن تشكيل أجيال وفق قيم ومناظير مختلفة في قليل أو كثير عن روح الإسلام وعقيدته .

---

(١) راجع التفاصيل :
أبو الحسن الندوى • نحو التربية الإسلامية الحرة فى الحكومات والبلاد الإسلامية • المختار الإسلامى • الطبعة الثالثة • القاهرة ١٩٧٦ •

(٢) محمد محمد حسين • حصوننا مهددة من داخلها • مرجع سابق • ص•ص ٢٣٧ ـ ٢٧٥ •

وإذا كانت السيطرة على أجهزة التشريع والتعليم ، متعذرة في هذا القطر أو ذاك ، فإن التغلغل إلى أجهزة إعلامه الداخلية ، وإغراق سوقه بمنتجات إعلامية موجهة وجهة تغريبية يضمنان تطبيع أجياله تطبيعاً مدمراً ، وتوجيه ملايينه توجيهاً مسمماً . .

وحتى إذا كانت المدارس ما زالت زاخرة بالدروس الشرعية والدينية ، والمساجد ما زالت عامرة بالمصليين والراكعين ، فإن توجيه عشرات أجهزة الإعلام توجيهاً تغريبياً يضمن حدوث خلل نفسي ، وتناقض وجداني ، وتمزق عقلي ، وازدواج في الشخصية .

وبذلك تتخرج أجيال في المدرسة والجامعة والمسجد وفق قيم معينة ، إلا أنها تتصادم مع قيم أُخرى مضادة مبثوثة هنا وهناك في برامج إذاعية ، وصحف ومجلات ، تمثيليات وأفلام . . الخ .

وهذه هي أخبث وأذكى حيل التشويه :

لتكن المساجد والمدارس لكم ، أما الإذاعة والصحافة والتلفزة والخيالة فهي لنا . .

وإذا كانت المدارس تضم ملايين ، فإن الإذاعة والتلفاز تتعامل يومياً مع ملايين أكثر عدداً ، وأقل حصانة .

وإذا كانت المساجد والمدارس تابعة لوزارة أوقاف وشئون دينية ، تعليم أصلي وتربية ، وتعليم عال ، فإن سوق الإعلام مفتوحة لكل الغزاة ، ومنهوبة من كل الطغاة :

فإذا كانت الدولة الإسلامية تستطيع فرض رقابة على مدارسها وجامعاتها ، فمن يفرض سلطته على برنامج إذاعي يبث من عاصمة أجنبية ؟ ومن يحكم سيطرته على فيلم أنتجته استديوهات هوليود أو روما أو ليننجراد ؟

وإذا كانت الدولة تستطيع أن تحكم سيطرتها على أجهزة الإعلام الرسمية ، فمن يحكم أجهزة الإعلام المهربة في علب ، وكتب ، وأفلام ، وشرائط فيديو ، وشرائط تسجيل ؟

وإذا كانت الجماعات والتنظيمات الإسلامية تستطيع أن توجه الإذاعات الخاصة بالإسلام والقرآن الكريم ، فمن يوجه سائر الإذاعات الوطنية والأجنبية ؟

ولهذا كله – ولغيره – فإن الدراسات الاجتماعية والتربوية المعاصرة تعتبر « صناعة الإعلام » من أخطر وأهم الصناعات على الصغير والكبير ، المتعلم والأمي ، المسلم وغير المسلم .

وإذا كانت الانقلابات العسكرية تستهدف أول ما تستهدف الاستيلاء على الإذاعة والتلفاز ، فإن أجهزة الغزو الفكري تستهدف ذلك بنفس الدرجة وبذات الأهمية ، لكن بطريقة ذكية ، وبناء على خطة بعيدة المدى ، فمرحلة الخطوات ، منسقة الأبعاد .

وإذا كانت مجتمعاتنا الإسلامية تشكو من إرتفاع نسب الأمية الأبجدية ، فلتكن السيطرة الغازية إذن على المسموع والمشاهد ، ولتستمر بذلك الأمية الأبجدية ، ولتضاف إليها أمية دينية ، وأمية ثقافية ، ولتحل محلها شخصيات ممسوخة ، ودمي متحركة . .

وإذا كان التشخيص الأخير به قليل أو كثير من انفعال ، فلننتقل إلى المجتمع الأمريكي أو البريطاني . . فالمجتمع الأمريكي يتعامل اليوم مع مفاهيم جديدة مثل « صناعة الرئيس عن طريق التليفزيون » . والمجتمع البريطاني يتحدث اليوم عن ذكاء حزب المحافظين في حملته الإعلامية الأخيرة ومهارته في استخدام نشرة الأخبار المسائية في التليفزيون البريطاني ، مما أوصل رئيسته إلى منصة الحكم .

طبعاً لم يكن التلفاز هو العنصر الوحيد في نجاح رئيس أمريكي أو رئيسة الوزراء البريطانية ، بيد أنه كان من أهم عوامل كسب معركة سياسية في بلدان نسبة أميتها تقترب من الصفر ، فكيف يكون الحال في بلاد إسلامية تصل أميتها إلى ٩٠ ٪ ! !

٤ ـ تشويه القيـــادات الدينية والاجتماعية :

تعمد أجهزة التخريب والتغريب ، معاول الهدم والتدمير إلى وسيلة جد بدائية ، إلا أنها تؤتي أكلها وتثمر ثمارها في كثير أو قليل من حالات . .

فهي تعمد إلى تشويه سمعة قيادات جادة وشريفة ، وإلى تلطيخ حياة قيادات نزيهة وأصيلة . وقد تختلف التهم وتتباين الادعاءات إلا أن هدفها حرق القيادات الأصيلة والأصلية .

ويكاد لا يخلو بلد إسلامي من تهم وادعاءات توجه جهراً أو سراً ، من أجهزة داخلية وأخرى خارجية لقيادات قد لا تملك الدفاع عن نفسها .

٥ ـ صناعة قيادات مزيفة :

وهذه القيادات قد تكون سياسية وثقافية وتربوية واقتصادية ، بل قد تكون قيادات دينية مزعومة لا مبرر لوجودها سوى ارتباطها بقوى أجنبية . .

ولهذا فليس غريباً أن نرى أقزاماً تحولوا بين يوم وليلة إلى عمالقة . .

وليس غريباً أن يبتعث هذا أو ذاك إلى باريس أو لندن ، أو واشنطن أو موسكو ، أوبكين أو براج ثم يعود بعد سنوات وقدحصل على أعلى الدرجات ، ودرب على أحدث التكتيكات . . يعود إلى بلاده قائداً ، أو معلماً ، أو إعلامياً ،

أو سياسياً ، أو عسكرياً يمارس المهمة المكلف بها ، ويؤدي الدور المطلوب منه (١) . .

وقد لا يحتاج الأمر إلى بعثة أو مهمة بالخارج ، فمدارس وجامعات التبشير والتغريب موجودة في بلادنا ، ومعاهد ومؤسسات التحريف لا تهدأ حركتها . .

٦ ـ غزو الحياة الاجتماعية :

وهذه الظاهرة كتب عنها مئات من المسلمين والغربيين ، وتناولها منصفون وغير منصفين ناقشوا جميعاً غزو حياة المسلمين بتقاليد وأزياء ، وبعادات وأفكار ، وبدعوات وبدع ، وبأنماط ومفاهيم . .

وقد يكون قليل أو كثير من هذه التقاليد نافعاً ، إلا أنه يساء توجيهه ويفقد قيمته :

فالألعاب الرياضية ـ مثلا ـ ظاهرة جسمانية ونفسية واجتماعية وتربوية مفيدة وضرورية ، ولا تعارض بينها وبين الشرع . . إلا أن إساءة استخدامها باختلاط النساء والرجال ، والتعصب الأعمى لناد من النوادي ، واستهلاك طاقة الشباب بمتابعة « س » أو « ص » من لاعبي كرة القدم ، يفقدها معظم قيمتها ، ويحيلها إلى فراغ وعبث . . فكم من شبابنا يمضي وقته متابعاً ومطارداً لمباريات كرة القدم ؟ وكم منهم يمضي وقته في متابعة قراءة جادة أو مشاهدة عمل فني رصين ؟

وكم من شبابنا يفتح الجريدة والمجلة على الصفحة أو الصفحات الرياضية ؟ وكم منهم تستهويه صفحة الدراسات الدينية والأدبية ؟

---

(١) لهذا ليس غريبا أن «بابراك كارمل» رئيس أفغانستان الحالى كان لاجئا سياسيا فى دولة شرقية ، مع أنه حاصل على دكتوراه من الولايات المتحدة !!

وكاتب هذه السطور ، له تعليق على الصفحات الدينية في معظم صحفنا العربية :

فهذه الصفحات – للأسف – تكتب غالباً بطريقة بها قليل أو كثير من جفاف ، غارقة في موضوعات بها قليل أو كثير من البعد عن حياة المسلمين اليوم منشغلة بمتابعة قضايا تخصصية قد تتجاوز اهتمامات القارئ العادي ، مصاغة بلغة تحتاج إلى جهد وطول دراسة . ولهذا فلا بد من همسة في آذان محرريها :

لا بد من متابعة الشباب والقراء بموضوعات ومعالجات ولغة تخاطبهم أكثر مما تخاطب المتخصصين والمتفحصين ، وقد يسهم ذلك في ترجيح كفة صفحاتهم ، وفي تقديمها لعدد أكبر من القراء . .

• • •

وثمة ملحوظة ختامية على هذه الوسائل فهي لا تعمل منفصلة متباعدة ، بل في خط واحد ونغمة متكاملة بحيث تضمن في النهاية تشكيل قيادات وأفراد ، وغزو عقول وشخصيات ، واحتلال أفكار ومفاهيم ، وإشاعة تنظير وسلوكيات ، ودفن تشريعات وقيادات ، وزرع تنظيمات وأيديولوجيات .

وهي جميعاً لا تقتصر على مؤسسة واحدة ، بل تمتد إلى سائر المؤسسات .. ولا تكتفي ببعد واحد ، بل تتناول سائر الأبعاد . .

وبذلك كله تحاول غزو المسلم داخل بيته وخارجه ، وفي تربيته واقتصاده ، وفي إدارته وسياسته ، وفي صغره وكبره ، وفي رجاله ونسائه ، وفي ريفه وحضره ، وفي ساحله وباديته ، وفي سهوله وجباله . . الخ .

وقد تظهر أحياناً متنافرة متضاربة ، إلا أنها في واقع الأمر متساندة متكاتفة ،

وهي في البداية والنهاية تتصور أنها قادرة على إطفاء نور الإسلام ، أو على الأقل إخفاء نور الإسلام ، وإشاعة أفكارها ودسائسها ، وفي ذلك قال المولى عز وجل

« يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » (١) . وهذا ما سيناقشه الفصل الثالث – إن شاء الله – عن أسس مقاومة الغزو الفكري . .

---

(١) سورة التوبة : آية ٣٢ .

الفصل الثالث

أسس مقـاومة الغزو الفكرى

استعرضنا في الفصلين السابقين تاريخ الغزو الفكري ، ثم أهم أهدافه ووسائله واتضح من خلال العرض والتحليل مدى خطورة هذا الغزو على حاضر المسلمين ومستقبلهم ، عقيدتهم وشريعتهم ، اقتصادهم ومجتمعهم ، قيمهم ومثلهم ، وحدتهم الداخلية والخارجية ، تفاعلاتهم النفسية والعقلية ، صلتهم بخالقهم وسائر خلق الله . .

لهذا كله – ولغيره – ينبغي أن ينتبه المسلمون ، وتتحرك سلطاتهم ، وتتيقظ منظماتهم ، وتصمم خططهم ، لمقاومة الغزو المباشر وغير المباشر ، المنظور وغير المنظور ، الداخلي والخارجي ، العسكري والفكري ، التبشيري والتغريبي ، الإلحادي والصهيوني . .

ولعله قد اتضح من الفصل الأول كيف أن هذا الغزو قديم وحديث ، صليبي واستعماري ، صهيوني وشيوعي .

ولعله قد اتضح من الفصل الثاني كيف أنه شامل وعميق ، ممتد ومتسع ، قريب المدى وبعيد المدى ، لا يترك جانباً أو نظاماً من حياة المسلمين إلا ويحاول التسلل إليه والتغلغل فيه : إفساداً لما يمكن إفساده ، وتدميراً لما يمكن تدميره ، وتشويهاً لما يمكن تشويهه ، وتغييراً لما يمكن تغييره ، وزراعة لما يمكن زراعته . .

ولعله قد تأكد أن محاولات التبشير المباشر ، أو فرض الشيوعية ، أو استيطان الصهيونية في كل شبر من الأرض الإسلامية ، من قبيل المحال ، والمستحيل .

ولهذا تغيرت الخطط ، وتبدلت الاستراتيجيات ، وتنكرت الوسائل فتزيت جميعها بأزياء جديدة ، وتلبست بشخوص مغايرة . . فإذا كان هدم الإسلام مستحيلا ، أو تغيير عقيدة الـ ٨٠٠ مليون مسلم ضرباً من المحال ، فإن الممكن والميسور ، المقدور عليه والمأمول ، أن يفهم أكبر قدر من هؤلاء المسلمين دينهم فهماً خاطئاً ، وأن يسلكوا في حياتهم — الشعورية واللاشعورية — بطريقة مغايرة لجوهر الإسلام وطبيعته . .

إذا تحقق هذا أو بعض من هذا ، فقد نجح الغزو الفكري في تحقيق مراميه ، وإنجاز مهمته وأداء رسالته . .

وكما سلف القول : فليحتفظ المسلمون بأسمائهم وشهادات ميلادهم ، بعباداتهم وأعيادهم ، بأزيائهم ومؤسساتهم ، باستقلالهم السياسي ووجودهم في المنابر الدولية ، أما غير ذلك فليكن فريسة للغزاة ، ونهباً للطامعين . . :

الاقتصاد موجه من الخارج ، ومحكوم من الداخل . .

القانون والتشريعات غريبة الروح والنص . .

التعليم بمعناه المدرسي موجه ومطبّع وفقاً لفلسفات ديوي أو مكارنكو ، رسل اوبستالوتزي ، بياجية أو سكنير ، بافلوف أو سبيرمان (١) . .

---

(١) الملفت للنظر ، أن فى معظم — ان لم يكن جميع — البلاد الاسلامية تبنى نظريات التربية وعلم النفس على افكار مستوردة . والمدهش أن بعض هذه الافكار تنازل عنها أصحابها ، الا اننا ما زلنا متمسكين بها ، رافعين لشعاراتها ، مطبقين لمبادئها . وبعض هذا النظريات والافكار صممت منذ مائة سنة أو أقل وفى ظروف واعتبارات جد مغايرة لنا .

والتربية بمعناها الشامل موجهة وجهة علمانية تصنع حاجزاً منيعاً بين الدين وسائر مرافق الحياة . . والإعلام بدعوى حرية الصحافة وحرية الكلمة (١) ينتهك الكلمة المقدسة وينشر الكلمة المشوشة ، والفكر المغبش ، والتفكك بدرجاته المختلفة . .

والحياة الاجتماعية مدسوس فيها كثير من المزالق والمباذل ، ومبثوث فيها كثير من الاستهتار والخلاعة . .

وإذا لم تُجد كل هذه الوسائل ، فلتتحرك في الظلام مؤامرات ضد الجماعات والمنظمات الإسلامية تتهمها بتدبير انقلابات ، وتهديد نظام الحكم ، والعمالة لقوى أجنبية . .

وبذلك كله تكتمل الحلقة حول الإسلام والمسلمين ، العقيدة والشريعة ، الماضي والحاضر ، الواقع والمستقبل . . وبذلك كله تصبح « القواعد العسكرية » عبئاً أكثر منها خدمة ، ويصبح الاحتلال العسكري أسلوباً لا مبرر لتوسع فيه . . فإذا كان من الممكن الوصول إلى قلب الأمة وعقلها ، واحتلال عقيدتها وشخصيتها فلماذا إذن المدفع والبارجة ، الحاملة والطائرة ؟

لهذا كله لا بد أن تضع الأمة الإسلامية : شعوباً وحكومات ، أفراداً ومنظمات الخطط الكفيلة ، والبرامج اللازمة لمواجهة الغزو ، وصد سهامه ، ومعالجة سمومه . .

ومثل هذه المواجهة والمعالجة لا ينبغي لها أن تقتصر على موقف الدفاع

---

(١) فى كثير من الحالات ، يقصد «بحرية الكلمة» حرية مهاجمة الفكر الدينى فقط !! أما حرية الكلمة لمناقشة سلطات الدولة وخططها ومشاريعها وسياساتها فذلك مفروض عليه حجاب كثيف وأستار سميكة !!

أو موقع الانتظار ، بل لا بد لها من استراتيجية نشطة ، وحركية لا تنقطع ، ووقود لا ينفذ ، وفكر لا يصدأ ، وتجديد لا يبلى .

إذن مقاومة الغزو لا بد لها من أسس وقواعد ، ركائز ومقومات حتى تستطيع مواجهة أعتى العقول ، وأدق الوسائل . وعندما أقول أعتى ، وأدق فإني لا أطلق القول على عواهنه ، بل أنسبه إلى أصله الحقيقي :

فلو طلبت معلومات متكاملة ودقيقة عن بلد إسلامي قريب أو بعيد ، فربما لن تجدها إلا في مطبوعة أجنبية ، أو في دراسة مترجمة ! !

وإذا طلبت خرائط وتفاصيل ، خطط وبرامج ، تقديرات وتوقعات بلد إسلامي قريب أو بعيد ، فربما لن تجدها إلا في مصادر أجنبية من وجهة نظر مؤلفيها وناشريها . .

وأنا لا أتحدث عن الأسرار والملفات الخفية ، بل عن معلومات تعليمية وسياسية واجتماعية واقتصادية . . فكثير — أو قليل منها — لا يتوافر باللغات التي يتخاطب بها المسلمون ، بل بلغات غير المسلمين وبخاصة الإنجليزية ثم الفرنسية .

ولهذا يحدث كثيراً أن الباحثين والمسئولين ، إذا رغبوا في الاطلاع ، أو في تقدير موقف ، أو اتخاذ قرار فإنهم يتلمسون الإجابة في دراسات أجنبية ! ! وعندما يتلمسون قد يتخبطون لأن من يكتب عن تاريخ أندونيسيا بالإنجليزية أو الفرنسية ، أو عن حاضر ومستقبل تشاد بالإنجليزية أو الفرنسية لا بد أن يكون مشبعاً — بالوعي أو باللاوعي — بمصالح دولته ، وباتجاهات ثقافية . .

لهذا كثيراً ما تتخذ قيادات العالم — إسلامية وغير إسلامية — معلوماتها وقراراتها بناء على دراسات وتقارير ، بحوث ووسائل صممت لخدمة أهداف مغايرة لأهدافنا ، ومصالح ربما معارضة لمصالحنا .

لهذا عندما أقول أعتى العقول ، وأدق الوسائل فإني أقصد التنظيم الكامل للمعلومات الذي نجده في الدول الأجنبية ، وما يوفر للباحثين من إمكانات ووسائل ، من وثائق وملفات . فلديهم تنظيم كامل للبيانات عن طريق : شبكات المعلومات وبنوك المعلومات ، والتخزين الآلي للمعلومات ، والتعامل معها بأدق المناهج ، وبأرقى الأدوات . كما أن درجة التنسيق عالية بين : الجامعات ، ومراكز البحوث ، وأجهزة المخابرات ، وأجهزة الغزو الفكري مما يتيح لها في النهاية أن تتخذ قرارات مبنية على معلومات دقيقة ، وتفاصيل غزيرة..

بطبيعة الحال ، ما يقدمونه وينشرونه من معلومات يفيدهم ويفيدنا إلا أن السم مدسوس في العسل ! ! فكثير من التفسيرات مغلوط ، وكثير من المعلومات منقوص منها قصداً ، أو مزاد عليها عنوة . .

لهذا كله ، لا يمكن أن نعتمد على الاجتهادات الفردية ، والمبادهات الشخصية بل لا بد من تخطيط مدروس ، وأسس عميقة لكي نستطيع مواجهة الغزو الفكري مواجهة موجبة نشطة . .

وهذا الفصل يعالج بالتفصيل بعض هذه الأسس ، لأنه يستحيل على كاتب هذه السطور الإحاطة بها أو الإفاضة فيها بكاملها . .

ولعل أهم أسس مقاومة الغزو الفكري يمكن بلورتها في العشر التالية :

اولا : الشمول لكافة القطاعات والفئات :

إذا كان الغزو موجهاً لجميع جوانب ونظم حياتنا ، فلا بد أن يكون الدفاع كذلك عن جميعها ، بحيث لا تترك جبهة يمكن للغزو الفكري أن يتسلل منها ، أو يتغلغل فيها .

وإلا ما معنى أن يكون التعليم – مثلا معبراً عن وجهة نظر الدولة الإسلامية

ثم يترك الإعلام أو الاقتصاد في أيدي العابثين والغزاة ؟ ما معنى أن تطبع المدرسة تطبيعاً إسلامياً ثم يتخرج الشاب أو الشابة ليجد أشكال الحياة الاجتماعية غربية الاتجاه ، علمانية النزعة ؟

ما معنى أن تخرج الجامعات شباباً إسلامياً حياً ، ثم يجد مؤسسات الإنتاج والخدمات في بلده تتجه في كل سلوكياتها وجهة غربية ، ولا توظف فيها إلا من يتقن هذا ويمهر فيه ؟

ما معنى أن تتعلم الفتاة المسلمة في مدرستها وجامعتها من وجهة نظر إسلامية ، ثم يطاردها التلفاز في حجرة نومها بكل ما هو خارج ومكروه ؟ (١)

لهذا كله يبدو « الشمول » كأول أساس في استراتيجية مواجهة الغزو الفكري بحيث لا يجد الغازي ــ الواضح أو المستتر ــ جانباً يستطيع تحصناً فيه ، أو جيباً يستطيع تحوصلا في داخله . .

وإذا كان الشمول المقصود يشمل جميع نظم المجتمعات الإسلامية فلا بد أيضاً أن يشمل جميع المسلمين : صغاراً وكباراً ، رجالا ونساء ، ريفيين وحضريين ، ساحليين وصحراويين ، متعلمين وغير متعلمين ، مقتدرين وغير مقتدرين ، غالبية وأقليات . وليس هناك كثير جدوى من أن توجه مقارنة الغزو لفئة دون أخرى ، أو توجه لطائفة دون سائر الطوائف ، وإلا كان موقفنا كمن يسد خرقاً في السفينة ويهمل سائر الخروق ؟ ! .

---

(١) ليس المقصود بذلك أن كل متفرج ومتفرجة على عنف أو جريمة ، سينتهي عنيفا أو مجرما .. لكن المقصود أن بعض هـــذه البرامج تبرر وتفلسف ، تمكر وتتسلل بطريقة ماهرة تخصص فيها البعض ، وأتقنهـــا البعض بحيث تترك آثارا غير مباشرة فى شخصية المتفرج والمستمع وبخاصة مع طول المدة ، وكثرة الاعتياد فتبدو أشياء عادية .

صحيح أن الغزو يستهدف قطاعات معينة أكثر نشاطاً وأهمية ، فهو موجه بالدرجة الأولى للشباب والقيادات ، للمثقفين والمقتدرين . كل هذا صحيح ، وينبغي أن يواكبه أيضاً نشاط واضح لمقاومة الغزو في هذه القطاعات أكثر من غيرهـا . ولـكن ما أريد التأكيد عليه : ـ أن التركيز في المقاومة على قطاع واحد فقط ، وتصور أن سائر القطاعات في مأمن تصورساذج وسطحي ، قد يضر والمؤكد أنه لا ينفع .

من هنا ينبغي أن يوزع الجهد ليشمل الجميع دون إهمال لفريق أو قطاع ، لبيئة أو بقاع ، مع التركيز قدر الإمكان على القطاعات الأهم والبيئات الأكثر عرضة للهجوم ، وبذلك يتم التحصين المبكر ، والتطعيم المناسب في الوقت المناسب .

وبهذا التحصين والتطعيم المبكرين النشطين يمكن سد الفجوات التي أحدثتها أجهزة الغزو ، مما يمكن من إعداد أجيال وقيادات تمتد بالمقاومة لسائر قطاعات المجتمع . .

ولو تصورنا مجتمعاً إسلامياً يركز مقاومته للغزو الفكري في قطاع الفلاحين والبدو والصيادين والعمال البسطاء ، ويهمل قطاعات المثقفين وطلاب الجامعات ورجال الإدارة والأعمال ، فلا شك أن هذا المجتمع يحارب معركة خاسرة ، أو على أقل تقدير محدودة القيمة . .

فالريف الإسلامي ـ لعشرات الإعتبارات ـ ليس هو الهدف الأول للغزاة ، بل الجامعات والمدارس ، النقابات والتنظيمات ، الإدارة والأعلام . ولهذا ينبغي أن تحظى بأكبر قدر ممكن من الرعاية ، وبأكبر نصيب ممكن من التحصين ، وإلا سقطت عقولنا فريسة ، ووقعت قياداتنا في الشرك . .

ثانيا ـ التنسيق بين الدول والهيئات :

إذا كان للغزو الفكري بنوك معلومات ، وغرف عمليات بين كافة دوله وهيئاته الرسمية والشعبية ، العلنية والسرية فكذلك ينبغي أن يكون الأمر في المقاومة ، بل ينبغي أن يتجاوز ذلك ويعلو عليه . .

فمن المستحيل على بلد إسلامي بمفرده ـ أياً كان حجمه وأياً كانت إمكاناته ـ أقول يستحيل عليه أن يواجه تيارات الغزو بمفرده ، أو يتغلب على الطوفان بمعزل عن زملائه وإخوانه في الله .

وإذا كان هذا التنسيق ضرورة وجود لجميع الدول الإسلامية ، فينبغي أيضاً أن يكون ضرورة حياة لجميع الهيئات الإسلامية داخل البلد الواحد بحيث تتكامل الجهود ، وتتكاتف الإمكانات ، وتتآزر القوى .

أما الفرقة والتناحر ، فلا نتيجة له إلا تبديد الجهود ، وتمزيق الصف ، وتفتيت الشمل . .

ومن هنا فعلى جميع الدول الإسلامية أن تغلق باب الخلاف وتفتح باب الوفاق ، و توجه إمكاناتها و جهدها للعدو الأصلي ، و للخطر الداهم في إطار من العقيدة والشريعة ، وبذلك تصنع الحاجز الحقيقي ، والسد المنيع ضد التسلل والتغلغل . فلو نجح المسلمون في تحقيق قوله تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » (١) فهم بذلك يقدمون لدينهم ، ولأنفسهم ، وللعالم أجمع خدمة لا ينقطع خيرها ، ولا يتوقف مددها . .

و هناك أمثلة كثيرة أشار إليها بعض الكتاب توضح بجلاء و عمق كيف حاول الاستعمار والتبشير تفتيت القوى الداخلية ، وتمزيق وحدتها ،

---

(١) سورة المائدة ـ آية ٢ .

واصطناع حروب ومشاحنات ، وتشجيع أقليات ورغبات في الانفصال ، واصطياد مناطق بكاملها طمعاً في ثرواتها .

ذلك لأن القوى المعادية ، والأجهزة الغازية تتستّر وراء الخلافات ، أو تدفع بالخلافات إلى السطح ، أو تصطنع أسباب التناحر ، وهي في كل ذلك المستفيدة الوحيدة .

وإذا ما تكرر الشقاق والخلاف ، تترسخ عوامل الفرقة ، ومشاعر العداء مما يجعل إمكانات الوحدة والتنسيق أبعد منالا وأعصى تحقيقاً . والغريب أن دولا أوربية اصطدمت في حرب المائة عام ، وفي حربين عالميتين لأكثر من عشر سنوات سقط فيها ما يزيد عن ٨٠ مليون قتيل ومع ذلك خرجت منها مؤتلفة منسجمة ، متوحدة متناسقة ، متفرغة لخدمة نفسها ولامتصاص خيرات العالم . .

وعكس ذلك عندنا :

فعوامل الوحدة الإسلامية متوافرة بين قليل أو كثير من البلدان . . واحتمالات الصدام والتنافر يمكن تجاوزها وتلافيها . . وما من صدام استمر بين دولتين إسلاميتين غير بضع ساعات أو أيام . . وما من بلدين متصادمين إلا بينهما وشائج قربى ، ودم ، ومصالح مشتركة ، ومن قبل ذلك تربطهما عقيدة دينية واحدة . .

ومع ذلك – أو بالرغم من ذلك – تتناثر شظايا خلاف ، و ملامح تنافر تفصل بين دول وأحياناً يتصاعد لهيبها داخل الدولة الواحدة لتمزق وحدتها الداخلية إلى شيع وطوائف ، وهذا ما نلمسه في بعض بلاد إسلامية : فالتآكل لا يقتصر فقط على دول متناحرة ، بل يمتد إلى داخل بلد واحد ينهك قواه ، ويفتت جبهته .

وإذا ألقينا ببصرنا إلى الوراء ـ قليلا أو كثيراً ـ فسوف ننتهي إلى نتيجة مفادها أنه ما من بلد إسلامي نكب بصراع وفتنة طائفية ، إلا وكانت الأيدي الأجنبية تحرك وتساعد ، تنفث وتسمم . .

وفي جميع الأحوال تكون قوى الغزو وأجهزته في صف غير المسلمين وضد المسلمين !! . ومن شاء الوقوف على تفصيل ذلك فليرجع إلى ما كتبه المؤرخون والباحثون عن صنائع الاستعمار بأرض المسلمين في آسيا وأفريقيا(١).

وهناك أمثلة اشار اليها بعض الكتاب توضح بجلاء وعمق كيف حاول الاستعمار والتبشير تفتيت القوى الداخلية ، وتمزيق وحدتها ، واصطناع حروب ومشاحنات ، وتشجيع أقليات ورغبات فى الانفصال ، واصطياد مناطق بكاملها طمعا فى ثرواتها المعدنية والبترولية ومواقعها الاستراتيجية ٠

وكاتب هذه السطور لا يلقي بالتهمة بكاملها على الاستعمار وأجهزة التبشير والغزو الصهيونية ولا يعفي الحكومات والشعوب الإسلامية مما حدث ويحدث لها ، فالخطأ في كثير من الحالات خطأنا والتقصير تقصيرنا ، وصدق المولى عز وجل في كتابه الكريم « إن الله لا يغـير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (٢) .

---

(١) راجع : جلال يحيى العالم العربى الحديث ٠ المدخل ٠ دار المعارف بمصر ١٩٧٤ ـ ص ١٧٦ ، ص ١٧٩ ٠ قيصر أديب : المسلمون فى الفلبين ، مصطفى خالد وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، سامى محمود انتشار الاسلام والدعوة الاسلامية : المكتبة العصرية : بيروت ٠

(٢) سورة الرعد : آية ١١ ٠

لهذا كله ينبغي أن تنسق الجهود ــ إسلامياً وداخلياً ــ لتجميع الصف ، وتوحيد الجهد ، واكتشاف الحيل ، ومحاصرة المخربين ، وإطفاء النيران وهي ما زالت في مهدها . وبذلك كله تشمل المقاومة : جميع القطاعات والفئات ، الدول والهيئات . وبذلك يكتمل إحكام القبضة ، وتجهيز الحصون . .

ثالثا ــ الاستمرار في جميع المراحل :

ليس هناك معنى لأن تكون مقاومة الغزو شاملة ما سبق ، ثم متوقفة عند مرحلة عمرية معينة للمجتمع أو لأفراده . . ولهذا يأتي الأساس الثالث لمقاومة الغزو بحيث يمتد طولا وعمقاً ليشمل الفرد منذ نشأته وطوال فترات حياته ، ويشمل المجتمع في كل مراحله التاريخية . .

وقد يتصور البعض ببساطة وسذاجة أن مقاومة الغزو يمكن تركيزها في مرحلة عمرية معينة ولتكن الرجولة أو الشباب مثلا . .

بيد أن هذا التصور تعوزه الدقة ، ويفتقد الرؤية الصحيحة . فالغزو أصلا جهد متواصل ، متواكب الحلقات ، متكامل الفصول . ومقاومته أيضاً ينبغي ألا تقل عن ذلك بل تتجاوزه وتتحداه . .

فما معنى أن نحاول تحصين الشاب المسلم والمسلمة ، بينما الغزو استهدفه منذ ميلاده ، وحاصره إعلامياً وثقافياً وتعليمياً ؟

وما معنى أن يتصور مجتمع إسلامي أنه ما زال في مرحلة سابقة على الغزو ، أو غير قابلة للغزو ؟ ومن ثم فلا مبرر للمقاومة ، ولا موجب للاستنفار . .

مثل هذه التصورات ــ أؤكد من جديد ــ أنها تضر ضرراً بليغاً والحد الأدنى أنها تساعد على تمييع الموقف ، وتقاعس الجهد ، وخذلان الهمة وهو المطلوب الوصول إليه من جميع أجهزة التخريب والغزو . .

وقد يتصور البعض أن المطالبة بتحصين الفرد منذ مولده نوع من الهوس النفسي أو ضرب من الانفعالات المرضية ، والواقع عكس ذلك . وخير دليل على ذلك ما يمارسه الأعداء في مجتمعاتهم وبيوتهم :

١ – ففي المجتمعات الشيوعية :

مثلا – نجد الحرص كل الحرص ، من قبل جميع أجهزة الدولة والحزب ، على أن تنشيء الأجيال الجديدة في جو مشبع بالشيوعية ، ومفعم بمبادئها وسلوكياتها . ولا يقتصر الأمر على مدرسة وإعلام ، بل يمتد إلى كل صغيرة وكبيرة ، إلى كل فكرة وسلوك . . فجميع الألعاب المصنوعة للصغار مصممة لخدمة الأهداف الشيوعية ، وجميع كتب ومجلات الأطفال محررة لغرس القيم الشيوعية . وسرعان ما يجد الطفل نفسه في دور حضانة رسمية تابعة للدولة من أولها إلى آخرها ، من إدارتها إلى تنظيمها ، من ألعابها إلى طريقة التغذية فيها تخدم الأهداف الشيوعية وتعمقها في شخصيته . .

وبعد دور الحضانة عشرات التنظيمات تتدرج مع الطفل : منظمة للطلائع ، ثم الرواد ، فالشباب (الكمسمول) ، وأخيراً الحزب وجميعها تسير في اتجاه واحد ، وتحت مظلة واحدة ، وتخدم أهدافاً متكاملة . .

وإذا كانت دور الحضانة ، والمدارس ، والتنظيمات السياسية هكذا فإن الإعلام ، وأساليب الإدارة والتشغيل ، بل وأساليب البناء وأماكن تناول الطعام جميعها تتجه وجهة واحدة ، وتخدم أهدافاً مشتركة . وبذلك كله تتخرج الأجيال وهي في مسابقات متسقة ، وبتوجيهات متكاملة دونما صراع أو تناقض بين هذه المسافات والتوجيهات . .

وفي بعض بلادنا الإسلامية إذا اعترضت هيئة أو منظمة على إعلان معين بصحيفة أو تلفاز ، تصاعد ضدها حملات عادية تتحدث عن حرية

الصحافة ، وحرية الكلمة ، وميثاق الشرف الإعلامي ، والتزام الصحافة والسلطة الرابعة . . الخ ومثل هذه الحملات نطرح عليها سؤالا :

ألم تروا أو تسمعوا في حياتكم عن الصحافة في الصين الشعبية ؟ هل بها صفحات للإعلان ؟ هل بها مطاردة نشطة وتغطية كاملة للجريمة وسفاسف الأمور ؟ هل ، وهل ، وهل . .

ألم تروا أو تسمعوا في حياتكم عن التلفاز والإذاعة السوفيتية ، وكيف أنهما في خدمة أهداف الحزب والدولة إلى أقصى حد وأبعد درجة ؟ فجميع برامج الأطفال ، وكتب ومجلات الأطفال ، ونوادي الأطفال وألعاب الأطفال ، وملابس الأطفال جميعها تخدم أهدافاً واحدة ، وتغرس قيماً مشتركة . .

طبعاً ، نحن لا نناقش صحة هذه الأهداف ، أو سلامة هذه القيم بيد أننا نضرب بها مثالا لنوضح كيف أن المجتمعات الشيوعية وعت ومارست عملية استمرارية البث والتطبيع والإعلام لتضمن توجيه وتشكيل – بل وصناعة – أجيالها وفقاً لتصميم معين ، ورؤية محددة .

وبطبيعة الحال ، نحن لا نطالب بذات الأساليب الشيوعية ، ولكن نضرب بها مثالا لكي نوضح أسلوبه وطريقة بعض المجتمعات المعاصرة في غرس أفكارها ، وحماية نشئها . .

وفي بلادنا الإسلامية ، قد تجد العناصر اليسارية في مقدمة الجماعات التي تطالب بحرية الإعلام ، بمعنى حرية أن يتحول إلى إعلام ماركسي أو لينيني أو مادي ! ! بينما أصحاب هذه النظريات وحكام هذه المجتمعات يرفضون أي نقطة فكر تختلف عن عقيدتهم ، وأي أسلوب يتناقض مع أساليبهم .

٢– وفي الكيان الصهيوني نماذج واضحة وأساليب محكمة لتشكيل الشعب

صغاراً وكباراً شرقيين وغربيين ، مهاجرين وصابرا (١) وفقاً لأهداف الصهيونية ومنظماتها العالمية . .

ولو تتبعنا التفاصيل في المزارع التعاونية (الموشاف) أو في المزارع الجماعية (الكيبوتس) فسنجد أقصى المحاولات لتطبيع الأجيال وفقاً لمنظور معين مستمر ، متكامل ، شامل ، مغلق الباب دون أي محاولة مضادة له . .

وبصرف النظر عن هذه التنظيمات فإن المدرسة الإسرائيلية ، والبيت والإعلام ، والجيش ، ودور العبادة ، والمؤسسات الثقافية ، والأندية . . الخ . جميعها حلقات سلسلة واحدة تنظم في خيط واحد لخدمة أهداف مشتركة . . وقد يصل الأمر إلى وجود أحزاب دينية بالغة التطرف ، وأحزاب أخرى لا دينية أو ملحدة ، ومع ذلك تنتظم جميعها لتحقيق أهداف مشتركة ، وللوصول إلى مرامٍ بعيدة . .

فهم يعرفون حجم الاختلاف ويحاصرونه بحيث لا يتجاوز حجمه الطبيعي من أجل الوصول إلى أهداف مرصودة ، وغايات أهم من الخلاف . . بل قد تأتلف هذه الأحزاب معاً في حكومة واحدة ، وينضم أعضاؤها في منظمات

---

(١) اى الذين ولدوا على أرض فلسطين • وكلمة صابرا Sabra عبرية مشتقة من الاصل العربى نبات الصبار • وقد استخدم المصطلح بمعناه الاجتماعى عقب الحرب العالمية الاولى ، حيث أطلق فى مدرسة هرزليا الثانوية فى تل أبيب على التلاميذ اليهود من مواليد فلسطين الذين كانوا اقل تحصيلا دراسيا من اقرانهم المهاجرين الاوربيين ، فأرادوا تعويض نقصهم بسلوك خشن متميز ، وتمثل ذلك فى الامساك بنبات الصبار والتين الشوكى وتقشير الاخير بالايدى العارية • ثم اتسعت التسمية لتشمل جميع اليهود الذين يولدون على أرضنا الفلسطينية •

راجع : موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية • مرجع سابق • ص ٢٣٩ •

مشتركة ، وفي جيش الدفاع الإسرائيلي مقدمين أوجه الاتفاق وجوانب المشاركة ، ومؤخرين مصادر الخلاف والتنافر . .

و هناك عشرات الدراسات ناقشت كيف تكاملت وسائل التطبيع والتشكيل الصهيونية والإسرائيلية في خطط شاملة ، مستمرة ، داخلية وخارجية لتنميط الـ ١٠٧ جنسية التي تؤلف الكيان الصهيوني على أرض فلسطين !! الـ ١٠٧ جنسية ـ تقريباً ـ هاجروا إلينا ، وتحركت معهم ومن أجلهم عشرات المنظمات لتنميطهم ، وتشكيلهم ، وخلق دافعية جديدة لديهم و امتصاص قيم و رواسب قديمة ، وتصعيد قيم وسلوكيات جديدة ، وتزويدهم بمهارات واتجاهات ومعلومات لازمة لبناء الكيان الصهيوني ولتدمير الدول والشعوب العربية والإسلامية . .

وهذه المنظمات توسلت باللغة ، والتربية (١) والتعليم ، والرياضة والجيش والإعلام ، والأحزاب ، بدور العبادة ، والفنون ، والرحلات والسياحة الداخلية . . الخ . كل ذلك من أجل وضع خطة مستمرة متكاملة شاملة لتطبيع أجيالها وحقنهم بقيمها . .

والمثالان السابقان ـ من الشيوعية والصهيونية ـ عندما نشير إليهما فليس المقصود أن ينهج المسلمون نفس المنهج ويتبعوا ذات الأساليب ، ولكننا نعرض أمثلة ووقائع توضح مدى حرص الأعداء على تشكيل وتوجيه مجتمعهم توجيهاً شاملا ، كاملا ، مستمراً ، وفقاً لخطط علمية واجتماعية ونفسية ودينية وسياسية بحيث يضمنون بأكبر قدر ممكن من الاحتمال ، وبأعلى درجة

---

(١) راجع التفاصيل : حسان محمد حسان · دور التربية فى تكوين المجتمع الإسرائيلى · الكتاب السنوى فى التربية وعلم النفس · المجلدالاول ١٩٧٣ ـ عالم الكتب ـ القاهرة ·

ممكنة من الثقة ، أنهم حققوا أهدافهم وبلغوا مراميهم : خدمة لأنفسهم ، وعدواناً على غيرهم . .

فالمؤكد ، أن المنظمات الشيوعية أو الصهيونية عندما تمارس ذلك — وغيره— فهي تستهدف اعداد أجيال منها قادرة على خدمة مجتمعها وفي ذات الوقت قادرة على النيل من المجتمعات الأخرى .

لهذا كان « الكيوبتز والموشاف » — مثلا — هم أشد العناصر الصهيونية تعصباً وضراوة ، وأكثرها حرصاً على الاستيلاء على الأراضي الفلسطينية ، ولعلها أشرسها في القتال والمواجهة ، العدوان والمباغتة . . فالتعصب الشديد والالتصاق بالأرض ، وتعميق الولاءات للصهيونية منذ لحظة الميلاد والتدريب المستمر ، والتطبيع المتكامل الذي لا يهمل نقطة أو محوراً . . الخ . كل ذلك خرّج في النهاية عناصر بشرية متلهفة للدم ، مستعدة للتضحية ، متقنة للدور ، معتزة بالانتماء ، قادرة على التدمير من غير تمييز أو إدراك ، حاملة لشعار « أنا أقاتل إذن فأنا موجود » ! !

رابعا ـ الاعتماد على الذات :

ومثل هذا الاعتماد يظهر في أمور مختلفة ، وجوانب متعددة من بينها الفكر ، والمعلومات ، والعاملون ، والميزانية . .

١— فمن المستحيل أن تنطلق مقاومة الغزو معتمدة على أفكار مستوردة ، ونظريات مستعارة . من هنا فلا بد أن ترتكز على الإسلام عقيدة وشريعة ، نظرية وتطبيقاً ، مرشداً وموجهاً . فلكي نستطيع مقاومة الغزو — ينبغي أن تكون مُثل الإسلام ومفاهيمه وقيمه ومضامينه واضحة في أذهان القيادات والدعاة ، المسئولين والولاة ، ففاقد الشيء لا يعطيه .

وقد يتصور البعض أن مقاومة فكرة أجنبية بفكرة أجنبية أخرى : فالشيوعية يمكن مقاومتها بالوجودية ، والصهيونية بالماركسية . . الخ . وكل هذا وهم وخواء . . وإذا كان هناك صراع حقيقي أو مصطنع بين الصهيونية والماركسية فسرعان ما يلتئم هذا الصراع ويتوحد الجهد إذا كان الهدف هو غزو الإسلام والمسلمين والأمثلة كثيرة ، والوقائع متواترة : فكم اتصلت هذه القوى ببعضها – سراً أو علناً – لكي توزع الأدوار بينها توزيعاً عادلا ، ولكي تحاصر المسلمين من جهات مختلفة ، وبأشكال متنوعة .

وقد يتصور البعض أن مواجهة «النفوذ الأمريكي» بالاعتماد على « الدب الروسي » والمساعدات السوفيتية .

وواقع الأمر أن كلاهما طامع فينا ، ومتربص بنا . . وإذا كانت بعض المخططات تتخفى ملامحها ، وتتوارى قسماتها ، فالأيام تكشف عما يتم من تنسيق ذكي بين واشنطن وموسكو لاقتسام العالم وللسيطرة عليه . فالوفاق ، واتفاقات الحد من الأسلحة النووية ، واتفاقية « سالت ١ » ، و « سالت ٢ » وغيرها مجرد استراحة لالتقاط الأنفاس ، واستعداد لجولات جديدة تستطيع بها القوى الكبرى التفرغ لاقتسام العالم ، والسيطرة عليه بأساليب مستحدثة لا تراق فيها دماء السوفيت والأمريكان ، ولا تتناطح فيها موسكو مع واشنطن .

وقد تصور البعض أن الاعتماد على بريطانيا سلاح لمواجهة فرنسا ، ثم تكشفت الأحداث عن اتفاقيات سرية بين البلدين سنة ١٩٠٤(١) لاقتسام العالم العربي وتحويله إلى مناطق نفوذ ، وسبقت الأشارة إلى ذلك بالتفصيل في الفصل

---

(١) صحة التاريخ ١٩٠٤ وعرفت باسم «الاتفاق الودى» وكـان بين فرنسا وانجلترا .

الأول . . كما تكشفت الأحداث سنة ١٩١٦ عن اتفاقية سايكس – بيكو التي عقدت بين انجلترا وفرنسا وروسيا في سان بطرسبرج محددة مناطق النفوذ في الإمبراطورية العثمانية التي تم تقسيمها بين الدول الثلاث . فاحتجزت روسيا لنفسها المضايق والقسطنطينية مع الأقاليم المحيطة بها ، مع أربع ولايات تركية تقع على الحدود المشتركة في القوقاز . واحتجزت فرنسا لنفسها كل سوريا وجزءاً هاماً في جنوب الأناضول ، وتشتمل على بغداد والبصرة وتفصل بين المنطقة الفرنسية والخليج العربي وتشتمل من الناحية الأخرى على حيفا وعكا . كما وافق المندوبون الثلاثة على الاحتفاظ بمنطقة دولية في القدس وحولها (١) .

وقد تصور البعض – إبان الحرب الثانية – أن المحور أكثر إخلاصاً لقضايا المسلمين والعرب من الحلفاء ، فاعتمدوا عليهم وتساندوا معهم ، وارتبطوا بهم . . ثم كشفت الأحداث إبان الحرب وبعدها أن المعسكرين لا يقلان جشعاً ، ولا ينقصان طمعاً عن بعضهما .

وإذا استطردنا في ضرب الأمثلة والوقائع فلن ننتهي وهي جميعاً تخلص إلى أن الاعتماد على الأجنبي ، اعتماد على وهم باطل بل وعلى خطر مدمر . فإذا فتحنا الباب لإحدى القوى ، فإننا بذلك نزرع الغزو بأيدينا ، ونفتح باب الأطماع بإرادتنا . . وهم لا يقصدون أكثر من ذلك ! !

فأحياناً قد يثيرون النزاع ، ويزرعون الفتن ، ويضخمون الأحداث ، ويمنون بالأماني ، ويجزلون في الوعود ، ويهددون بالعدوان ، ويشجعون على التحالف كل ذلك من أجل أن تترسخ قواعدهم ، ويتسع نفوذهم . فهذه

(١) راجع التفاصيل : جلال يحيى · العالم العربى الحديث · المدخل · مرجع سابق ص ٥٠٩ ، ص ٥١٥ ·

القوى جميعها شبيهة بالسرطان الخبيث ، لو تمكنت خلاياه ، لفتكت بالجسم بكامله ، وأودت بحياته (١) . .

وقد تبدو بعض هذه القوى صديقة ومعطاءة ، ودودة وخيرة ، كريمة ومساندة ، إلا أن كل ذلك من قبيل الشراك الخداعة ، والأضواء اللامعة التي تجذب الفراشات لحرقها لا لخدمتها ! !

لهذا أقول أن مقاومة الغزو الفكري تحتاج من جميع الدول والهيئات الإسلامية إلى تنسيق وتآزر ، شريطة أن يكون هذا كله في إطار من فكر إسلامي صحيح ، واعتماد أصيل على الذات ، وارتكاز قوى على العقيدة ، فبقدر اعتمادنا على القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة نبراساً وهادياً ، مرشداً وموجهاً ، يكون نجاحنا في مقاومة الغزو الفكري والانتصار على مؤامراته ودسائسه . ولقد كان القرآن الكريم ولايزال وسيظل إلى الأبد — هو المنطلق الأول للإعلام الإسلامي (٢) . وإلى هذا يشير تبارك وتعالى في توجيهه لنبيه صلى الله عليه وسلم « فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيرا » (٣) .

---

(١) راجع التفاصيل :

ـ محمد مرسى شامة · الخطر الشيوعى فى بلاد الاسلام ·

ـ ابراهيم سرسيق ·الشيوعية وتأثيراتها على الدعوة الاسلامية ·

ـ محمود عبد الوهاب غايد · الخطر الشيوعى فى بلاد الاسلام وأثره على الدعوة الاسلامية ·

ـ محمد شريف الزيبق ·تحالف الصهيونية والمسيحية لمحاربة الاسلام وجميعها من بحوث المجلد الخامس للمؤتمر العالمى لتوجيه الدعوة واعداد الدعاة سنة ١٣٩٧ الذى نظمته الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ·

(٢) راجع التفاصيل : محمد المجذوب · نحو اعلام اسلامى · المرجع السابق · المجلد الرابع ص١٠ ـ ١٢ ·

(٣) سورة الفرقان : آية ٥٢ ·

ولا شك أن أكبر عوامل السقوط في سيرة المجتمع الإسلامي ــ ماضياً أو حاضراً ــ الانصراف عن هداية هذا الكتاب الحكيم المنزل من رب العالمين . من هنا كانت شكاة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مولاه حين يقول « يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا » (١) .

والمسلم الحق ، والدولة الإسلامية ، والمنظمة الإسلامية ، ومواجهة الغزو الفكري ينبغي ألا تخرج عن المثال الحي للمعاني الربانية السامية كما يتضح من قول السيدة عائشة (رضي الله عنها) حين سئلت عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأجابت : كان خلقه القرآن (٢) .

٢ـ أما فيما يتعلق بالمعلومات ، فينبغي أن تكون لدى الدول الإسلامية المعلومات الكافية والعميقة الخاصة بها وبجميع الدول الإسلامية على الأقل . وإذا تعذر ذلك على كل بلد إسلامي فالحد الأدنى أن توجد بالهيئات الإسلامية الكبرى ــ مثل رابطة العالم الإسلامي ــ المعلومات الغزيرة والكافية ، والدقيقة والشاملة من جميع البلاد الإسلامية . وعندما نقول الدقيقة والشاملة نقصد أن تضم جميع أو معظم ــ نظم حياتها ، وخططها وتوقعاتها ، من مصادرها ووفق آخر الإحصاءات والبيانات المتوافرة .

وبذلك كله يصبح العالم الإسلامي دائرة معارف أو موسوعة تضم شؤونه وشجونه ، وآماله وتوقعاته ، وتحدياته وطموحاته . ومثل هذه الموسوعة إذا كتبت بخبراء مسلمين ، بموضوعية وحيدة ، تقدم للمسلمين وغير المسلمين خدمة جليلة طالما انتظرها العالم . فبدلا من الاعتماد على كتابات المستشرقين ، والجامعات ومراكز البحوث والمخابرات الأجنبية ، نعتمد على أنفسنا ونستند إلى عقولنا .

---

(١) سورة الفرقان : آية ٣٠ . (٢) رواه مسلم وأحمد .

ومثل هذه الخدمة العلمية التعليمية ، يمكن أن تتم عن طريق « بنك للمعلومات الإسلامية » حيث تتجمع المادة العلمية ، ثم تنقى وتصفى ، لاختيار الصالح منها والموضوعي ، ثم تستخلص منها دراسات علمية جادة توضح للمسلمين واقعهم ، والمخاطر المحدقة بهم ، والغزوات المدبرة ضدهم . .

وبذلك تتكشف الصورة بموضوعية وصدق ، وبهدوء ورفق . .

وهذه الموسوعة يمكن أن تشمل معلومات كافية عن الأقليات ، الإسلامية في جميع بلدان العالم لتتكامل الصورة ، وتتضح المعالم .

بطبيعة الحال ، هناك دراسات وبحوث من هذا النوع باللغة العربية (١) ـ وبلغات غير عربية ـ لكن ما نطالب به هو دراسات أوسع عرضاً ، و أغزر مادة بحيث يمكن الاعتماد عليها لاتخاذ قرارات إسلامية لخدمة دوله ، ومقاومة غزوه . .

ونحن لا نريد أن نذكر بالدراسات اليهودية والصهيونية التي تشمل معلومات تفصيلية كاملة عن جميع منظمات وقيادات الحركة الصهيونية والمؤيدين لها في العالم ، بحيث يسهل عليهم الاتصال والتنسيق والتبادل والعطاء .

طبعاً ، عدد اليهود في العالم لا يتجاوز ٢٥ مليوناً ، وغالبهم على مستوى ثقافي وفني يسهل معه جمع بياناتهم وحصرها وتبويبها .

والموقف جد مختلف بالنسبة للمسلمين فعددهم ٣٢ ضعف عدد اليهود ،

---

(١) من ذلك الكتاب الذى أصدره أربعة من أساتذة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض وهم الدكتور محمد السيد غلاب والدكتور حسن عبد القادر والأستاذ محمود محمد شاكر والدكتور محمد فتحى عثمان بعنوان «البلدان الاسلامية والأقليات المسلمة فى العالم المعاصر» الرياض ١٣٩٠ هـ .

كما أنهم منتشرون في مناطق يستحيل أحياناً الوصول إليها ، أو حصرهم داخلها . فثم مناطق في العالم مفروض فيها عزل المسلمين ، وقطع صلتهم بغيرهم ، ففي الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية – مثلا – ملايين وملايين لا تتوافر عنهم بيانات كافية .

٣– وفيما يتعلق بالعاملين في حقل مقاومة الغزو الفكري ، فلا بد من توافر شروط أساسية تضمن صدق ولائهم ، وعمق خبرتهم ، ودقة تدريبهم ، وجودة انتقائهم .

فالعاملون في حقل مقاومة الغزو الفكري لا بد من توافر صفات شخصية ، وعلمية ، وفنية ، وتدريبية تجعلهم على مستوى القدرة والكفاية والدربة والاتقان بحيث يكونون على مستوى المسئولية : مستوى ومحتوى ، إعداداً وتدريباً . كيفاً وكماً ، تجديداً وتجويداً . وبذلك كله لا يقلون في درجة من الدرجات عن أعدائهم ، ولا ينخفضون في نسبة من النسب عن مهاجميهم . .

وليس هناك أية جدوى من أن يمارس العمل في حقل مقاومة الغزو عناصر مهزوزة أو ضعيفة ، هامشية أو محدودة . بل لا بد أن تختار كل دولة ومنظمة إسلامية أبرز قياداتها ، وأمضى سهامها ، وأعلى كفاءاتها بحيث يكونون جميعاً فريقاً متناغماً ، وعقولا راسخة ، وجهوداً متكاملة .

أما أن يتولى الدعوة والمقاومة قيادات أو أفراد يمارسون العمل من موقع « الوظيفة » وبأساليب كبار أو صغار الموظفين المحترفين فذلك قتل للمقاومة وإضاعة للجهد . وإذا كنا نتحدث عن النقطتين السابقتين عن فكر إسلامي عميق ، ومعلومات غزيرة متدفقة فمثل ذلك – وغيره – يحتاج جهازاً من العاملين يتقنون جواهر دينهم ، ويحذقون الدفاع عنها ، ويعون أساليب الغزو ، ويطلعون على مخططاته .

ومن ثم فيشترط في هؤلاء الإتقان لفروع وعلوم دينهم بالتفصيل الدقيق والمعرفة الكافية . ثم يكون منهم من يتقن لغات أجنبية يقرأ من مصادرها الأولية ، ويكتب بلغاتها الأصلية . ومنهم من يتقن أساليب قياس الرأي العام ، وتغيير الاتجاهات ، وسائر المقاييس الاجتماعية والنفسية التي تحتاج تخصصاً ودربة .

وعلى هذا الأساس ، ينبغي أن يضم جهاز مقاومة الغزو فريقاً من الخبراء والفنيين في مختلف الفروع الشرعية ، والتاريخية ، والاجتماعية والنفسية ، والتربوية . . الخ . فالجهد ليس مجرد وعظ وإرشاد ، والمسئولية ليست محاضرة ودرسا بل متابعة ذكية نشطة ، متعمقة واعية لكل الحيل والأساليب التي يتحايلون بها علينا ، بحيث نكشف للمسلمين المكائد التي تدبر . والأهم من الكشف تزودهم بالطاقات والمعلومات التي تمكنهم من الرد على أي شبهة ، ومن تجاوز أي مكيدة ، ومن مقاومة أي غزو .

وإذا استطاعت أجهزة مقاومة الغزو أن تحصن قيادات وإطارات نشطة ، فإنها بدورها تستطيع أن تباشر دورها بفاعلية وحيوية لتحصين غيرها ، ولتطعيم قطاعات جديدة . وبهذا تتكامل الجهود ، وتستمر الحلقات ، وتُغطي سائر قطاعات المجتمع ، وسائر مراحله العمرية والاجتماعية . . تأسيساً على ذلك ، فإن العاملين في المقاومة لن يركزوا على قطاع واحد من المجتمع – كما سبق أن أسلفنا القول في الأساس الثالث – بل سيتحركون على جبهة عريضة تشمل الأطفال والمراهقين ، والشبان والشابات ، الرجال والنساء ، المتقدمين والشيوخ (١) .

---

(١) راجع التفاصيل : ابراهيم سرسيق . أصول الإعلام الحديث وتطبيقاته . المؤتمر العالمي لتوجيه الدعوة والدعاة ، مرجع سابق ، المجلد الرابع ص ٣٨ ، ص ٤٦ .

وهناك مجموعة أخرى لسمات رجل الإعلام المسلم منها : الصدق ، وتحري الحقيقة ، وقوة الحجة ، والحكمة في نشر الخبر، وفنية الأسلوب(١)، وجميعها صفات نبهنا إليها المولى عز وجل في كتابه الكريم ، وأوضحها رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنته الطاهرة ، وسنعود إليها بتفصيل أكثر في أسس تالية . .

وفيما يتعلق بقطاع النساء المسلمات فالأمر يحتاج رعاية وعناية :

وفي تقدير كاتب هذه السطور يستحيل علينا تخصيص قطاع الـ ٤٠٠ مليون مسلم أو يزيد — من غير قيادات وإطارات نسائية فاهمة وقادرة ، ومتمكنة وواعية تنشط في صفوف هذه الملايين ، توجه حركتهن ، وتنقي أفكارهن ، وتحصن شخصياتهن . بدون ذلك يظل هذا القطاع الخطير ، الهام والمؤثر بعيداً عن متناول رسالتنا الموجهة إليهن .

وهذه نقطة غاية في الأهمية فيما يتصل بالعاملات فلا بد من إعداد جيش ضخم ، وإطارات متكاملة من الفتيات والسيدات مزودات بأحدث أساليب مقاومة الغزو الفكري ، ينتشرن بين الصفوف ، ويوجهن ملايين النساء المسلمات . .

وبطبيعة الحال ، لا يخفى علينا الخطورة الفائقة ، والأهمية القصوى للمرأة : أما ، وزوجة ، وأختا . فهي في جميع هذه المواقف والأدوار تساهم بجهد هائل في التطبيع الاجتماعي ،وإكساب الضمير ،وتوجيه الشعور واللاشعور من هنا فإهمال هذا القطاع ، أو التعامل معه بأساليب عتيقة بالية ، يجعله في موقف لا يحسد عليه . .

---

(١) راجع التفاصيل : محمد ابراهيم نصر · الإعلام وأثره في نشر القيم الاسلامية وحمايتها ·دار اللواء · الرياض ١٣٩٨ ، ص ٣٨ ، ص ٦٨ ·

وإذا أخذنا في اعتبارنا أن الغالبية الساحقة من المسلمات أميات ، ويعشن في مناطق بعيدة عن أساليب إعلام الرجال وندواتهم ، ودروسهم ومعاهدهم فيصبح من الضروري والملح ، والمهم والأساس أن نبحث عن وسائل جديدة عميقة وفعالة ، تنفذ إلى مجتمعاتهن وتجمعاتهن وتضمن توعيتهن وتحصينهن ضد الغزو المباشر وغير المباشر .

وقد يتصور البعض أن نساءنا بعيدات عن تيارات الغزو ، وفيضانات التخريب ، بيد أنهن حالياً أو مستقبلا ، أردنا أوْ لم نرد ، وعينا أو لم نع يتأثرن بدرجة أو بأخرى بموجات هذا الغزو . وتكفي إشارة بسيطة للأزياء الغربية ، وكيف يروج لها في صحف ومجلات ، وإذاعة مرئية وأفلام سينمائية ، وتجمعات وفئات بحيث أن المرأة المسلمة – أياً كان موقعها – تجد نفسها محاصرة أو شبه محاصرة ، ومستهدفة لعدوان بطرق مختلفة .

٤– وأخيراً تأتي نقطة الميزانية . فلا يمكن لدول إسلامية كثيرة أن تواجه الغزو معتمدة على إمكانياتها المالية المحدودة . وإذا أخذنا في اعتبارنا بعض دول إسلامية مثل جمهورية اليمن (في عام ٩٤ / ٩٥ بلغت قيمة وارداتها ٩٨١ مليون ريال وصادراتها ٥٣ مليون ريال فقط) وجمهورية بنجلاديش (التي يقل نصيب الدخل الفردي فيها عن ١٠٠ دولار سنة ١٣٩٤ وتصل نسبة الأمية إلى ٨٥٪) وغينيا بيساو ، وتشاد (١) لأدركنا عمق القضية ، وجسامة المسئولية . .

فكثير من البلاد لكي يستقيم لها الاعتماد على نفسها ، والاضطلاع بمسئولياتها فلا بد لها من مساعدة وقروض ، وتمويل وتنمية لخدمة قضايا شعبها ، دفاعاً عن الإسلام . .

---

(١) راجع التفاصيل : محمدالسيد غلاب وآخرون • البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة فى العالم المعاصر مرجع سابق صفحات متفرقة •

فالأمر المؤكد أن البلاد والجماعات الإسلامية الفقيرة لو قدمت لها المساعدة من دول إسلامية غنية ، و من بنوك ومنظمات إسلامية لكان ذلك أكبر خدمة ممكنة لتنمية الاقتصاد والشعوب ، لخدمة العقيدة والرسالة . .

فكثير أو قليل من البلاد والجماعات الفقيرة ، قد يقع فريسة قوى أجنبية ، أو جهاز تبشير وتدمير ، يقدم القرض والمساعدة ، ليهدم العقيدة ويغزو الإرادة . .

لهذا أكرر القول أن المساعدة والقرض الإسلامي خدمة للإسلام والمسلمين ، ودعم للاقتصاد والمجتمع ، وسد أمام موجات الغزاة . .

ومثل هذا التمويل والدعم يرفع من مستوى الشعوب الإسلامية ويزيد من دخلها ، ويستثمر إمكاناتها ، ويشعرها بوحدتها ، ويعمق أواصر أخوتها ، ويؤكد لها معنى قوله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (١) . والحمد لله فهناك هيئات إسلامية – مثل بنك التضامن الإسلامي – تقوم بجزء من هذا الدور ، إلا أن ما نطالب به هو توسيع القاعدة ، وتعميق الأسس بحيث تكون القروض والمساعدات عطاء وخيرا ، واستثماراً ونفعاً ، وحماية وسداً ، سواء للمقرضين أم المقترضين ، أم لمقدمي المساعدة أم المتقبلين لها . .

ولا ينبغي لأية دولة إسلامية أن تتصور أنها إذا كانت غنية وقادرة ، عالم وواعية فهي بعيدة عن الغزو أو نائية عنه .. فالغزو يتحرك ويطوق ، ويتزايد ويحاصر ، ولو استطاع أن يسقط فريسة هنا وهناك ، فإن رصيد مكاسبه يزداد ، بحيث يصبح أكثر تهديداً للبعيد ، وأشد خطورة على الآمن . .

---

(١) سورة آل عمران : آية ١١٠

لهذا فالمساعدة والقرض ، ليست فقط خدمة للبلد الإسلامي الفقير ، بل أيضاً للبلد الإسلامي الغني ، لأنها تقيم سداً أمام محاولات التغلغل والسيطرة التي تنتشر من بقعة لأخرى ، ومن قاعدة لثانية ، ومن بلد إلى بلد .

كذلك فإن مساعدة الجاليات والأقليات الإسلامية يشد من أزرها ، ويجعلها على صلة بسائر عالمها الإسلامي ، ويجعل لنا صوتاً في عدد أكبر من البلدان ، ويكسب لصفوف الإسلام عدداً أكبر من المقتنعين .

وإذا كانت هذه النقطة الأخيرة اقتصادية فهي جوهرية لخدمة جميع الأسس والنقاط السابقة ، لأنه يستحيل تحقيق مقاومة شاملة ،ومنسقة ، ومستمرة من غير تمويل كاف ، وميزانية ملائمة شريطة أن تستثمر بأفضل أنواع الاستثمار وبأرقى أنواع الخدمة .

وهنا تظهر من جديد قضية المعلومات ، والعاملين السابق الإشارة إليها .. فمن غير معلومات غزيرة متجددة . . ومن غير عاملين أكفاء جديرين قد تصبح مشروعات التمويل والقروض الإسلامية بمثابة أعمال خيرية ومساعدات عينية ، وهذه من أخطر ما يكون على الإسلام والمسلمين ! !

فليس المطلوب أن يشعر فقراء المسلمين أن أغنياءهم يحسنون إليهم ، بل يقدمون لهم العمل الإنتاجي ، وفرص العمالة المحترفة ، والتشغيل الاقتصادي السليم ، والزيادة الحقيقية في الدخل والإنتاج ، في الخدمات والمرافق . .

أما المساعدة العينية ، والملابس والأغذية ، والطرود والأغطية فهذه أمور مؤقتة تحل أزمة طارئة ، لكنها لا تحل الأزمة بعيدة المدى . . كما أن الدول الإسلامية الغنية لا تستطيع أن تكون طوال عمرها قادرة على مجرد التمويل السائل والمساعدةالفورية . .

لذلك كله فلا بد من الدراسة والبحث والمعلومات والبيانات ، والخطط

والبرامج ، والأكفاء والمتخصصين لتقديم المشورة البناءة ، والتخطيط بعيد المدى ، ودراسة الجدوى الاقتصادية للمشاريع والمؤسسات . وثمة مثل شائع يقول إذا أردت ، أن تقدم لجائع خدمة ، فلا تقدم له سمكة ، بل علمه طريقة الصيد ! !

وهذا المثل ينطبق على هذا الموقف ويفسر كثيراً من دقائقه .

فما يحتاجه المسلمون في الدول التي بحاجة إلى معونة وقرض ، هو المشروع البناء ، والتشغيل الاقتصادي النموذجي الذي يقدم للملايين فرصة عمل جادة ، ودخلا منظوراً وغير منظور يخدم المجتمع ويطور الاقتصاد ويرفع مستوى الخدمات . وبذلك كله — وبغيره — نقف أمام الغزو صفاً متراصاً ، وجبهة واحدة ، وقلعة صامدة . والمؤكد أن ديننا الحنيف أعطى للعمل المنتج ، والجهد الشريف ، والربح الحلال ، والعرق المبذول قيمة ووزناً أكثر من أي مذهب معاصر أو فلسفة يتشدقون بها . والقرآن الكريم ، والسنة المطهرة فيهما كثير من الحث على العمل المنتج ، والإنتاج النافع .

وقضية ضرورة تمويل الهيئات والحركات الإسلامية ناقشها أحد الباحثين بقوله « بينما تتلقى مؤسسات التبشير المساعدات الضخمة من مختلف الدول الاستعمارية ، وتجمد لديها كل سند مادي وأدبي وسياسي وعسكري ، نجد المؤسسات الإسلامية على عكس ذلك في حالة حرمان شـديد ، وحجب للخبرات الفنية ، ونقص للمعلومات الضرورية . مما يضطر هذه المؤسسات في كثير من الأحيان — أن تقف موقف المستجدي من أيدي المحسنين المسلمين ، كما يضطر الباحثون المسلمون أن يجمدوا أقلامهم حين تقف في وجوههم

عقبات النشر ، أو تضطرهم ضرورات العيش إلى قتل أوقاتهم في أعمال كسب العيش » (١) .

صحيح أن بعض الدعاة المسلمين ـ كانوا وما زالوا ـ بسطاء يعتمدون على إمكانات بسيطة ، إلا أن لهم فعاليات ضخمة وتأثيرات لا تمحى . وصحيح أن بعضهم يعتمد على جهده الذاتي دونما تمويل مالي وتدريب فني ، وجهاز محترف وقدموا خدمات لا تنسى ولا تبلى ، بل إن الإسلام انتشر في كثير من الدول الآسيوية والإفريقية عن طريق دعاة وتجار وعلاقات شخصية ناجحة ومن خلال ضرب النموذج والقدوة . إلا أن الموقف اليوم يقتضي يقظة أكثر ، وانتباهاً أعمق ، ودعماً أوفر ، وتدريباً أجود حتى نستطيع تجاوز الشراك والمكائد وتحقيق الأهداف ، والمطالب في مدة أقل وبعمق كاف . .

خامسا : التجسيم الطبيعي للظواهر :

في بعض الحالات نحن نبالغ ونجسم ، وفي بعض الحالات نهون ونقلل ، وكلا الموقفين خاطيء ومضر ومجحف وفاسد . فالمبالغة والتجسيم ، أو التهوين والاستخفاف يلحق الضرر بمقاومة الغزو ، ويضعف من معنويات العاملين فيه .

١ـ فالمبالغة والتجسيم تجعل المسلمين وهيئات مقاومة الغزو في موقف صعب ، وفي زاوية ضيقة . فهم يتصورون أن العدو محيط بهم في كل مكان ، والسموم منتشرة في كل الأطعمة ، والفساد في جميع الأجواء .

وقد يؤدي ذلك إلى حالة من الذعر والهلع ، والشعور بالمحاصرة . ومثل

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني · أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها : التبشير ـ الاستشراق ـ الاستعمار · دراسة وتحليل وتوجيه دار القلم · دمشق ـ بيروت ١٣٩٥ص ٦١٤ ، ٦١٥ ·

هذه الحالة قد تؤدي أحياناً إلى مزيد من الانتباه والحرص ، وقد تؤدي عكساً إلى نوع من الاستسلام أو الشعور بفقدان الأمل . .

فإذا قدر المسلمون حجم أعدائهم تقديراً مبالغاً فيه ، فقد يتصورون أنهم محاصرون من كل اتجاه ، وقد يجعلهم هذا الموقف – الشعوري واللاشعوري – في حالة إحباط ، أو شعور بفقدان الثقة بالنفس ، ولنضرب مثالا على ذلك :

قد يتصور بعض الكتاب والمفكرين المسلمين أن اليهود وراء كل شر ، وصناع كل إثم ، ومحركي كل دعوة هدامة في العالم ، وخلف كل مذهب تخريبي وعدواني وانحلالي . .

وقد يتصور بعض الساسة والقادة المسلمين أن اليهود مسيطرون على كل مقدرات العالم الاقتصادية ، والسياسية ، والاستراتيجية ، فهم أصحاب البنوك ، ورؤوس الأموال في العالم ، وفي الولايات المتحدة على نحو خاص . وهم الذين يوجهون أجهزة الإعلام ، وتخطيط القرار ، وصناعة السياسة في العالم ، وبخاصة في الولايات المتحدة . وهم الذين يكمنون وراء كل الانقلابات والتشويهات والانحرافات في العالم : فهم الحكومات الخفية ، والأجهزة السرية ، والمجامع الدولية . . الخ .

وهكذا عشرات التقديرات والاجتهادات تعطي اليهود أكثر من وزنهم وأكبر من حجمهم وتجعلهم قيادة العالم العلنية والسرية ، ومحور الارتكاز في كل انقلاب وتغيير . فهم الذين يصنعون الرئيس الأمريكي وهم الذين يغتالون الرئيس الأمريكي ، وهم الذين يجبرون الرئيس الأمريكي على الاستقالة وهم الذين يحركون الخارجية الأمريكية أو الدفاع والمخابرات الأمريكية ..الخ. والمدهش في هذه التقديرات – أن اليهود صناع السياسة السوفيتية في الماضي والحاضر بدءاً من ماركس ، إلى أحداث ١٩٠٥ ، إلى ثورة ١٩١٧ ، إلى ستالين ، إلى تحريك كبريات وصغريات سياستهم اليومية .

وبطبيعة الحال ، الأمر لا يخلو من وجود عشرات المصادر العربية ، والمترجمة (١) ، والأجنبية تردد هذه القضية ، وتجسم تفاصيلها ، وتعطيها أكبر من وزنها إلى حد أنها تحولت إلى نوع من الأسطورة وتحول اليهود معها إلى قوة خفية وكائنات خارقة : تغلغلت ، وسيطرت ، وتحكمت ، فحكمت العالم .

أعود فأقول :إن مثل هذه المبالغة قد تجعل العمل الإسلامي مكبلا أو فاقداً للثقة ، أو تشعره كأنه يناطح الصخر ، ويقاوم المستحيل . وفي قليل أو كثير من الأحيان تكون الجماعات الصهيونية ، والماسونية وراء هذا الزعم : تكتب عنه بطريقة غير مباشرة ، وتلقي عليه مزيداً من الزيت ، لتتأجج نيرانه ، ويشتعل لهيبه ترهب به من تشاء ، وتخيف به من تريد . .

وفي تقدير كاتب هذه السطور ، أن بعض الكتابات التي كتبت ، وبعض التقارير – التي زعم – أنها سُربت ، وبعض التقديرات التي بُثت بذكاء وخبث أعطت للصهيونية والماسونية والبهائية أكبر من حجمها . ولعل من وراء الكتابة والتسرب والبث قوى منهم تسترت بذكاء ، وتخفت بمهارة ، فبدت الأمور في غير حجمها ، والأوزان في غير موضعها ، والنفوذ في غير محله . .

فمن الذي يستطيع إثبات أن مجلس النواب أو الشيوخ الأمريكي خاضع تماماً للنفوذ الصهيوني والإسرائيلي كماً أو كيفاً ؟ ومن الذي يستطيع إثبات أن الجامعات والإعلام والخارجية والدفاع الأمريكي – مثلا – تابع تمـــاماً للنفوذ الصهيوني ؟

---

(١) من ذلك – مثلا – كتاب وليام جاي كار . أحجار على رقعة الشطرنج ترجمة سعيد جزائرلي ، دار النفائس، بيروت . الطبعة الثالثة ١٣٩٩ ولعل الكتاب به كثير من التقديرات المبالغ فيها ، والتحليلات المضخم فيها .

كل ما في الأمر ، أن القيادات اليهودية والصهيونية بالولايات المتحدة الأمريكية نشطة وذكية ، ماهرة ومدربة . من هنا يعلو صوتها في مواقف كثيرة أكبر من حجمها . كما أنها قوية التنظيم وثيقة الترابط ، عميقة الانتماء . من هنا لا تترك فرصة من غير استغلال ولا تهمل موقفاً من غير محاولة للاستفادة منه . أما من حيث العدد والسيطرة . والنفوذ ، ونسب التواجد فهم أقلية لا تتجاوز ستة ملايين داخل ما يزيد عن ٢٣٥ مليوناً من الأمريكيين .

فالقضية قضية تنظيم وذكاء ، وليست سيطرة كاملة أو هيمنة لا يمكن زحزحتها .. فالأمريكي اليهودي – مثلا – حريص على الإدلاء بصوته الانتخابي كل الحرص بعكس كثير من الأمريكيين ، كما أن تنظيمه وتحريكه يتمان بذكاء ورنين عال ، مما يشعر المرشح والمراقب – الداخلي والخارجي – أنهم صناع السياسة الأمريكية .

وعندما ألفت الانتباه إلى هذه النقطة في مقاومة الغزو الفكري فكل ما أستهدفه أن الأمة الإسلامية تستطيع بالاعتماد على نفسها ، وتنظيم حركتها ، وتوجيه امكاناتها ، والضغط بعددها ، واستثمار رصيدها ، أقول تستطيع أن تفرض مطالبها على العالم بأسره بدون اعتماد على قوة خارجية .

ولو حسبنا عدد المسلمين – مثلا – في الولايات المتحدة فأنهم لا يقلون – في بعض التقديرات – عن ٥ مليون ، والسؤال :

كيف يؤدون رسالتهم كمواطنين ، وفي نفس الوقت كمسلمين وسط أمتهم الإسلامية ؟ كيف يتحركون وينشطون ، وينتظمون ، ويُنظمون ؟

لو أجبنا على هذا السؤال بسؤال آخر لأدركنا الفرق :

كيف يتحرك المواطنون الأمريكيون من جذور يونانية للمطالبة بحقوقهم

داخل الولايات المتحدة ، وداخل موطنهم الأصلي ؟ وكيف يضغطون على حكومة وطنهم لتحقيق مصالح موطنهم ؟ وكيف يضغطون لتحقيق مصالح اليونان ، وللوقوف ضد البلاد المتصارعة مع اليونان ؟

مثل هذه الأسئلة توضح أهمية التنظيم والتكامل ، وتوضح أن الأقليات يمكن أن تمارس دورها من غير تكبير أو تجسيم .

وأخوف ما أخافه ، أن المسلمين قد يتأثرون بهذه التهويلات فيتوقفون عن كل نشاط ، ويمتنعون عن كل حركة . . فكيف ينشطون وأعداؤهم مسيطرون على العالم ؟ كيف يتحركون وأعداؤهم متحكمون في مقدراته ؟ ؟

لهذا قد تحدث حالة إحباط وفقدان أمل ، وانكماش وتراجع مما يتيح لأعدائنا مزيداً من السيطرة ، وكثيراً من التحكم .

والآن لننتقل إلى الموقف المضاد . .

٢ــ حالة التهاون والاستخفاف ، من المؤكد أن تأثيرها أخطر من الحالة السابقة . فإذا افترض المسلمون حسن نية كل من يتعاملون معه ، فهم بذلك يقدمون له أفضل خدمة ، وأحسن هدية .

وكثيراً ما يعمد الغزو الفكري إلى تصوير الدول الكبرى ، وأجهزة التبشير والغزو ، على أنها حملان وديعة ، وكائنات بريئة كل هدفها الخدمة وحماية الشعوب . .

ولكن الخطورة أن « صبيان » هذه الأجهزة وعملاءها المتسترين يقنعون مواطنيهم بهذه القناعات ، ويروجون لهذه الدعايات : فهؤلاء ما تسللوا إلا لحماية الشعب والدفاع عن مصالحه ضد الإمبريالية ، وهؤلاء ما قدموا إلا للدفاع عن الحرية والعالم الحر وإعلاء شأن الدين ! !

وهكذا تروج في الأسواق عملات زائفة مفادها أن هذه الأجهزة لاخطورة فيها ، وهؤلاء الغزاة جاءوا لدفع نكبة وإزالة نقمة ، ولنشر خير وتحقيق رخاء..

والثقة بمثل هذه التبريرات اعتماد على عقاقير مخدرة تضر بالجهاز العصبي للأمة ، وتفقدها دقة التقدير . من هنا تأتي الحسابات في غير محلها ، فأحياناً تُسطح المسائل وتؤخذ بعدم اكتراث . وأحياناً تهمل الأمور وتعامل باللامبالاة . وأحياناً لا تؤخذ الاحتياطات وينظر إليها بإهمال . .

من هنا فالاستخفاف والتهاون ، قد يجعلنا نلتقط الطعم في غفلة ، ونشرب السم في غفوة . وأعداؤنا لا يطلبون أكثر من ذلك ، ولا يطمحون في أبعد من هذا : حالة استسلام وتراخ ، وتقبل وتجاوز ، وتساهل وتنازل ، وتقصير وإهمال..

والتنازل غالباً يقود إلى تنازل . . والتفريط يؤدي إلى مزيد من تفريط . . والإهمال يقود إلى خسائر أكبر . وهكذا سلسلة متتالية ، وحلقات متتابعة بدايتها الاستخفاف والتهاون .

لهذا نبهنا المولى سبحانه وتعالى إلى ضرورة العناية والاستعداد بالتقدير والحساب فقال جل شأنه : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » (١) . ونهى جل شأنه عن موالاة الأعداء واتخاذهم بطانة ودعامة : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير » (٢) ونفس المعنى يوجه محدداً لموالاة اليهود والنصارى فيقول سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين » (٣) .

---

(١) سورة الانفال : آية ٦٠ (٢) سورة آل عمران : آية ٢٨

(٣) سورة المائدة : آية ٥١

سادسا ـ الصدق والموضوعية :

يرتبط بالتجسيم الطبيعي للظواهر ، الصدق والموضوعية في الإعداد ، والصياغة ، والعرض ، والتقويم .

فلكي نعد الخطة الكافية لمواجهة الغزو الفكري ، وللرد على سمومه ونفوثه وأحقاده ومكائده فلا بد من أساس يضاف إلى الأسس السابقة هو : الصدق والموضوعية،والأمانة والالتزام . وعندما نقول الصدق والموضوعية ، فليس ذلك بغريب عن الإسلام ، وليس ذلك بجديد على شريعته ، فالقرآن الكريم عامر بالآيات التي تدعو للصدق فقال جل شأنه : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » (١) . وقال تعالى : « واجعل لي لسان صدق في الآخرين » (٢) . وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : « إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا . . وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا »(٣) . . (متفق عليه) .

وإذا توقفنا قليلا عند عملية الاتصال البشري فلعلنا نلمح فيها ستة عناصر : المرسل ، والرسالة ، وأداة الاتصال ، وتفسير المستقبل ، واستجابة المستقبل ، وصدى الرسالة (٤) .

---

(١) سورة التوبة : آية ١١٩ (٢) سورة الشعراء : آية ٨٤

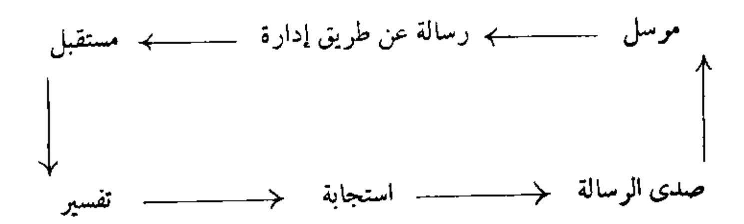
(٣) رواه ابن مسعود رضي الله عنه . راجع رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين . باب الصدق .

(٤) راجع التفاصيل : زيدان عبد الباقى . وسائل وأساليب الاتصال فى المجلات الاجتماعية والتربوية والإدارية والإعلامية . القاهرة ١٩٧٤ ص ١٨ ، ٢٠

ولعل الشكل التالي يوضح المقصود . .

شكل رقم (١) :

توضيح عملية الاتصال البشري :



والاتصال أو التبليغ الإسلامي يشترط مراعاة الصدق في جميع العناصر بحيث تضمن أن دورات التفاعل تتم بطريقة صحية وصحيحة ، وأمينة وموضوعية . أما المبالغة والتهويل،والخداع والتضليل ، والطنطنة والشنشنة ، والكذب والافتراء ، فليس من التبليغ أو الإعلام الإسلامي في شيء .

وحتى مهما بالغ أو افترى الأعداء والمغرضون ، فالإسلام يأمرنا بأن نرد بموضوعية وأمانة ، ونتجنب أية محاولة للخروج عن المحجة البيضاء ، والرسالة السمحاء .

وسمة الصدق التي يتسم بها الإعلام والتبليغ الإسلامي مستمدة من صدق الرسالة والرسول صلى الله عليه وسلم: فهذا النبي الكريم لم يعرف عنه الكذب ، لا في جاهلية ولا إسلام ، وشهد له الأعداء قبل الأصدقاء بصفاء الوجدان وصدق اللسان.وعندما أراد عليه الصلاة والسلام الجهر بالدعوة صعد على الصفا وجعل ينادي : « يا بني فهر ، يا بني عدي ، يا بني نوفل ، يا بني عبد شمس . .

لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقي ؟ فأجابوا بصوت واحد : ما جربنا عليك كذباً » (١) . .

فالإسلام مبنى على الصدق ، ومرتكز على الحق . . فالله سبحانه وتعالى « خلق السموات والأرض بالحق ، وطلب إلى الناس أن يبنوا حياتهم على الحق ، فلا يقولون إلا حقاً ولا يعملون إلا حقاً . من هنا كان الاستمساك بالصدق في كل شأن ، وتحريه في كل قضية . والمصير إليه في كل حكم ، دعامة ركينة في خلق المسلم ، وصبغة ثابتة في سلوكه وكذلك كان بناء المجتمع الإسلامي قائماً على محاربة الظنون ، ونبذ الإشاعات وإطراح الريب ، فإن الحقائق الراسخة وحدها هي التي يجب أن تظهر وتغلب . تسود وتسيطر »(٢) .

وإذا كان كذلك ، فمقاومة الغزو الفكري ينبغي أن تكون واضحة الهوية بينة المقصد ، محدودة الأسلوب ، صادقة المحتوى ، بعيدة عن الظن . مجافية للتخمين . وفي هذه المعاني قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » (٣) . وقال أيضاً : « دع ما يريبك ، إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة » (٤) .

---

(١) راجع التفاصيل :
– ابراهيم سرسيق . أصول الإعلام الحديث وتطبيقاته ، المجلد الرابع من المؤتمر العالمى لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة . مرجع سابق ص ٦٧ ، ص ٦٨
– محمد ابراهيم نصر . الإعلام وأثره على نشر القيم الإسلامية وحمايتها ، مرجع سابق ص ٣٨ _ ٤٥ .
(٢) محمد الغزالى . خلق المسلم . دار الكتب الحديثة . القاهرة . الطبعة السابعة ١٣٨٤ ص ٣٨ .
(١) رواه البخارى . نقلا عن المرجع السابق ص ٣٨
(٢) رواه الترمذى . نقلا عن المرجع السابق ص ٣٨

ومهما كانت الأراجيف التي يرجف بها الغزاة ، والأكاذيب التي يكذبون بها على أنفسهم وعلى غيرهم ، فواجب الإعلام الإسلامي أن يكون صادقاً أميناً ، هادئاً رصيناً . أما حملات التشهير والمبالغة فلا جدوى منها ولا فعالية لها . .

صحيح قد يبدو في الظاهر أنها آتت أكلها وحققت أهدافها بيد أن الواقع غير ذلك يؤثر على الظاهر دون الباطن ، وتلمس السطح دون الأعماق، وتعطي استجابات فورية دون تغيير الاتجاه . .

وقد يغتر البعض بأن بعض النظم السياسية – في الماضي والحاضر – أتقنت فن الدعاية والإعلان ، والتلقين والإعلام وحققت نجاحات باهرة . بيد أن هذه النظم المبنية على تهويل وتضليل سرعان ما يكتشف زيفها وتتساقط أركانها . فالنازية – مثلا – أتقنت استغلال وسائل الدعاية والإعلان ، بل إن معظم النظريات الإعلامية الحديثة نشأت في أحضان النازية ، أو للرد عليها . .

بيد أن الأحداث والتطورات كشفت الزيف ، وعرت الباطل . لهذا تراجع ملايين الألمان عن النازية بمجرد سقوط قبضتها المخيفة ونظامها الحديدي فما أقيم على باطل فهو باطل . . ومهما كان الذكاء والحشد ، والتعبئة والرصد ، فالمحصلة النهائية تساوي صفر ، لأن الأساس واهٍ ، والقاعدة مغلوطة .

لهذا ينبغي أن يحرص إعلامنا . و هو في دور المواجهة للغزو الفكري ، أن يتمسك بصميم عقيدته ، وبصلب شريعته دونما التواء أو عوج . .

وبطبيعة الحال ، لا يكون له ذلك إلا إذا كان العاملون فيه مرتبطين بدينهم كامل الارتباط ، ومتعمقين في أصوله بالغ التعمق ، وبذلك يستطيعون الرد على خصومهم بأدب الإسلام وصدق الإسلام ، وأمانة الإسلام . .

وليس من مصلحة الإسلام أو المسلمين ، أن نسف في الرد ، أو نبتذل في الهجوم . و إذا كان أعداؤنا يمارسون ذلك ، فليس ذلك بمسوغ لممارسته فنحـــن نعلم أنهم – في مجموعهم – فقدوا نقاوة العقيدة ، وصفـــاء السريرة ، و نصاعة الحجة ، وسلامة المنطق . ولهذا فإذا أسفوا فلا تثريب عليهم ، وإذا جانبوا الصواب فلا مفاجأة منهم !!

ونحن على العكس من ذلك تماماً :

فنحن أصحاب رسالة نؤمن بصدقها وعلو شأنها . . ونحن أصحاب رسالة نؤمن أنها خاتم الرسالات وأتم الديانات . .

لهذا ينبغي أن يكون دفاعنا عنها يتناسب شرفاً مع قدسيتها ، ويتطاول ارتفاعاً مع مكانتها . ليس فقط مكانتها في العالمين ، بل أصلا عند رب العالمين .

ونحن نعلم أن أجنحة المكر الثلاثة : الاستعمار ،والصهيونية ، والشيوعية كثيراً ما اختلقت الروايات ، وافتعلت الأكاذيب للهجوم على الإسلام . وعندما نقول اختلقت و افتعلت ، فإننا نردد بعضاً من اعترافاتهم وشيئاً من أخلاقهم . فكثيراً ما اعترفت هذه الأجهزة بأنها زروت ودست ، واختلقت وافتعلت ، وكذبت وشوهت ، وأضافت وافترت . وكل ذلك شيء طبيعي وبدهي :

فالذي يريد هدماً للحق لا بد أن يفترى عليه ، والذي يريد تشكيكاً في الصواب لا بد أن يفتئت فيه ، والذي يريد مهاجمة الإسلام لا بد أن يحرف فيه . .

فالغازي والمهاجم والمتربص لا يستطيع هدم الإسلام بإدراك نقائض في صميمه ، أو تفجير تناقضات من داخله ، أو اكتشاف عدم اتساق في بنيته .

لهذا كله كان لا بد من الاختلاق والتحريف ، والافتراء والتشويه .

لكن ما هكذا ينبغي أن يكون موقفنا في الرد والاعتراض ، والمقاومة والتصدي فيكفينا أن نعود إلى نقاء الأصل ، وإلى عذوبة المورد بدون حيل ميكيافيلي ، وأساليب جوبلز ، واتهامات بريا ، وألاعيب مكارثي(١) . ويكفي أننا نؤمن بالآية الكريمة « كنتم خير امة اخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر » (٢) وبالآية الكريمة « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (٣) لذلك فالدعوة إلى الخير وبالخير ، والدعوة إلى المعروف وبالمعروف ينبغي أن تكون من أسس مقاومة الغزو الفكري .

وبقدر صدقنا مع أنفسنا ، وفي دعوتنا بقدر نجاح رسالتنا . أما ، إذا واجهنا الكذبة بكذبة ، والفرية بفرية فلن نكون من الإسلام في شيء . فالإسلام الذي لا يقبل الكذب على طفل صغير ، لا يقبل الدفاع عنه بالكذب . فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قال لصبي : تعال هاك ثم لم يعطيه فهي كذبة » (٤) .

فإذا كان الإسلام لا يقبل التدليس على الطفل ويعتبره كذباً ، فالمؤكد أنه لا يقبل التدليس على الناس لرد الخصوم ، أو إفحام المعارضين .

وبقدر فهمنا لديننا ، واكتشافنا لجواهره ، بقدر قدرتنا على استجلاء معانيه ، وفهم مراميه ، وعرضها على الناس واضحة جلية ، قوية نقية .

---

(١) الأول المفكر الايطالى المشهور بكتابه «الأسير» والثانى وزير الإعلام النازى المشهور بحملاته الضخمة ٠ والثالث وزير داخلية سوفيتى اشتهر بدسه المكائد للآخرين ٠ والأخيــــر عضو مجلس شيوخ أمريكى اشتهر بحملاته الكاذبة للإيقاع بخصومه ٠ (٢) سورة آل عمران : آية ١١٠
(٣) سورة آل عمران : آية ١٠٤ (٤) رواه أحمد ٠

ونحن نعلم أن أجهزة التخريب الثقافي والغزو الفكري حاولت طمس معالم هذا الدين ، وإخفاء جوانبه ، وتقديمه لغير معتنقيه بصورة محرفة ممزقة ، وتقديمه لمعتنقيه بصورة ناقصة مشوهة (١) . لهذا علينا درء هذه الشبهات ، وإزاحة هذه التراكمات بالعودة إلى النبع صافياً ، وإلى الحق ناصعاً نتلمس القوة في قوة ديننا ، والحق في نصاعة حجته ، والوضوح في اتساق مبادئه دونما تزيد أو تكلف ، أو ادعاء أو تبرير ، أو تشهير أو تزوير .

ولنترك التزوير والتبرير لأصحابه الذين ألفوا ذلك للدفاع عن مبادئهم ومصالحهم . فجميع أجهزة الغزو الفكري تضطر للتدليس والتبرير دفاعاً عن شرعيتها المزعومة ، وتبريراً لوجودها المشبوه ، وطلباً لمواردها ، ودفاعاً عن نفسها ، وعن مصالح الذين يحركونها . فهم في قليل أو كثير من الأحيان ، لا يصدقون أنفسهم ، بل يخدعونها : يبررون ، ويعرضون ، ويمارسون كل الحيل النفسية – الشعورية واللاشعورية – وكل الأساليب الدفاعية لكي يقنعوا أنفسهم ويغرروا بغيرهم . والدليل على ذلك أن بعض العاملين في هذه الأجهزة – في مواقع قيادية وعادية – يعيشون حياتين :

حياة أمام الناس يرتدون فيها رداء المهنة ويتمسكون بأساليبها ويتشدقون بنظرياتها ، وحياة مع أنفسهم وخلانهم يخلعون فيها الرداء ويمارسون حياتهم بحرية ويسخرون من ألاعيبهم . ولهذا يحدث – أحياناً – أن بعض عاملين في أجهزة غزو وتخريب فكري يمكن شراء ذممهم وتغيير لافتاتهم ، وتعديل وجهتهم . . فهم مجموعة محترفين يبيعون خدماتهم لمن يدفع أكثر !! وهناك عشرات

---

(١) راجع التفاصيل فى :

– الفصل الثانى من هذا الكتاب .

– عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى أجنحة المكر الثلاثة . مرجع سابق ص ٤٢٧ – ص ٤٩٠

– على محمد جريشة، ومحمد شريف الزيبق . أساليب الغزو الفكرى للعالم الإسلامى . مرجع سابق ص ١٨٩ – ٢٠٠

الأمثلة في التاريخ والحاضر ، لجماعات وأفراد ، عملوا في حقل الصحافة والإعلام وعلى استعداد لبيع مجهودهم لمن يدفع أكثر بصرف النظر عن الجهة والوجهة ، والمقصد والغاية . ولا يقتصر الأمر على صغار المحترفين ، بل قد تجد منهم كباراً مشهورين ، يستغلون قلمهم وريشتهم ، وفنهم وخبرتهم ، ومهارتهم وتدريبهم لمن يملأ جيوبهم .

وبالضرورة تجدهم يتقنون تبرير الأفعال ، وتغطية التحركات بدعوى الخوف من « السيف » ، لكنهم لا يشيرون إلى « الذهب » و « الطمع في السلطة » و « الرغبة في الاستحواذ » و « الإصرار على التسلق » وغير ذلك من صفات النفاق ، ومظاهر الطمع ، وخصائص اللاانتماء .

ومثل هذا كله ، مما يأباه الإسلام على دعاته ، ويرفضه للمدافعين عنه ، لأن هذه الصفات إذا احتلت فرداً أو منظمة جعلت عمرها قصيراً وأملها في النجاة محدوداً . . وكم من منظمة وهيئة أقيمت خارج العالم الإسلامي وداخله ، لغزوه وتخريبه ، وانضم إليها هؤلاء المحترفون المدلسون ، فانكشف أمرها ، وخبت نارها ، وحرقت محركيها قبل انطفائها . . وكم من حزب ، وتنظيم وتشكيل ، ولجان ، ومؤتمرات ، وقرارات ، وترشيحات صممت من أجل تدمير العالم الإسلامي ، فدمرت من روجوا لها . وكم من فرق ، وشيع تزيت بزي الإسلام زوراً وبهتاناً وحاولت تقويضه من الداخل فانهارت على رؤوس مخططيها (١) . .

---

(١) راجع تفاصيل هذه الشيع :
- على عبد الحليم محمود · الغزو الفكرى وأثره فى المجتمع الإسلامى ص ١٨٩ ـ ٢٠٢
- أنور الجندى · العالم الإسلامى والاستعمار السياسى والاجتماعى والثقافى ص ٩٧١ ـ ٤٩٩
- عبد الرحمن حسن حنبكة · أجنحة المكر الثلاثة · مرجع سابق ص ٢٠٩ ـ ٢١٧

وإذا كان الإسلام يعف عن هذه الدناءات والصغائر ، فينبغي أن نكف عن التعامل مع المرتزقة المحترفين الذين يبيعون جهدهم في بورصة المذاهب والأفكار . بل علينا جميعاً أن نكشف حيلهم ، ونمتنع عن الاستعانة بهم ، أو الإشادة بإنتاجهم .

وهذه النقطة تسترجع ما سبقت الإشارة إليه في الأساس الخامس عند معالجة العاملين في مقاومة الغزو الفكري : صفاتهم وخبرتهم ، ومحتواهم ومستواهم وعقيدتهم وسلوكهم . فنحن لا نحتاج فقط إلى خصائص ومواصفات للعاملين في قيادة مقاومة الغزو الفكري ، بل أيضاً في جميع العاملين في أجهزته منعاً من تسلل عناصر حاذقة في الخبرة متقنة للصنعة ، بيد أنها محدودة الولاء ضعيفة الإيمان .

ويتصل أيضاً بنقطتي الاعتماد على الذات والموضوعية أن كثيراً من المنظمات المحلية الإسلامية لا تستطيع الاعتماد على نفسها في إعداد دعاتها ومندوبيها مما يقتضي مشاركة مركزية من المنظمات الإسلامية الأم . فرابطة العالم الإسلامي ، ومنظمة المؤتمر الإسلامي ، والمؤتمر العالمي للمساجد ، وبنك التنمية الإسلامي ، واتحاد الإذاعات الإسلامية ، والجامعات الإسلامية الكبرى مثل جامعة الأزهر والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وجامعة عليكرة بالهند .. الخ كل هذه وغيرها من منظمات وجامعات يمكن أن تشترك معاً في إعداد دعاة وقيادات لمقاومة الغزو الفكري ، وصد هجماته ، وكشف ألاعيبه .

فعن طريق إعداد مركزي ، وبنك للمعلومات الإسلامية ، وتمويل مناسب ، واعتماد على الذات يمكن الانطلاق في دعوة إسلامية عالمية المدى ، عميقة الصدى لا تكتفي بموقف المتابع ، بل تتحول إلى موقف المشارك والمهاجم ، الناصح والموجه .

ونتنقل الآن إلى الأساس السابع .

سابعا : تعدد وسائل الدفاع والهجوم :

قد يتصور البعض أحياناً أن الخطبة والعظة ، والدرس والتوجيه هي أفضل وسائل الدعوة ، وأقوى وسائل الرد والكشف .

بيد أن الأمر يتجاوز ذلك – أو ينبغي أن يتجاوز ذلك – إلى الكتاب والمجلة ، والصحيفة والبرنامج الإذاعي ، وبرنامج التلفاز ، والمسرحية الإسلامية ، والقصة والشعر ، والنادي الإسـلامي ، والنشاط الرياضي والترويحي الموجه وجهة إسلامية ، والمتحف والمعرض الإسلامي ، والمكتبة والمرسم ، والمختبر والمسجد . .

فمن أخطر ما يكون أن نتصور أن مقاومة الغزو يمكن أن تكون بالكلمة وحدها ، مع أن الهجوم بمختلف الأسلحة ، وعلى سائر الجبهات . .

وإلا فما معنى أن نسيطر على ميدان الكلمة ، ونرتكز على وسيلة الوعظ ، بينما العدو يتسلل إلى التلفاز والمذياع ، وإلى المختبر والنادي ، وإلى المجلة والجريدة ؟

لهذا كله – ولغيره – ينبغي أن نضع في اعتبارنا أساساً هاماً ، وركيزة ركينة هي التعدد والتنوع ، والامتداد والتوسع بحيث نشمل جميع الأدوات والوسائل ، كما اشترطنا في الأساس الأول شمول جميع القطاعات والفئات . .

فما معنى أن نكون في عصر وسائل الاتصال والإعلام ، بينما نحن ما زلنا مقتصرين على الكلمة ، وغير راغبين في الخروج منها ؟

فما معنى أن يكون الشباب والرجال والنساء على صلة بوسائل إعلام متنوعة متكاملة ، بينما نحن لا نخاطبهم إلا بالخطبة والدرس بالموعظة والإلقاء ؟

ما معنى أن نترك ملايين الأطفال لعالم « الأفلام الكرتونية » ، والمجلات ،

وبرامج الأطفال بينما نحن ما زلنا مقتصرين على الكلمة المطبوعة والكلمة الملفوظة ؟

ما معنى أن يمضي ملايين الشباب الإسلامي أوقات لهوهم وجدهم ، ورياضتهم وترويحهم في واد وتجمعات بعيدة عن الإشراف الإسلامي ، لأننا منعنا أنفسنا من دخول هذه النوادي واقتصرنا على تجمعات محدودة وأماكن مغلقة ؟ .

ما معنى أن ملايين العمال والفلاحين المسلمين يقضون وقت سمرهم وسهرهم بعيداً عن التوجيه الإسلامي ، لأن التوجيه الإسلامي لم يتصل بهم ولم يتتبعهم ؟

ما معنى أن ملايين المثقفين والموظفين سقطوا أسرى أفكار وعادات ، غريبة وغازية ، لأن فكرهم الإسلامي لم يقدم لهم في المكان المناسب ، وبالأسلوب المناسب ، وبالاقتناع المناسب ؟ .

ما معنى أن ملايين السيدات والفتيات المسلمات لا يتتبعن غير الغث والسطحي من المجلات ، لأن المجلات الإسلامية ــ في غالبها ــ جافة العرض متخصصة الموضوعات ؟

ما معنى أن تطبع ملايين النسخ من كتب إسلامية عميقة المستوى ، رصينة الأسلوب ، طويلة الشرح ، إلا أن ملايين المسلمين لا يستفيدون منها كما ينبغي لأنها تخاطب المتخصصين أكثر مما تخاطب عامة القراء ؟

ما معنى أن تطبع ملايين النسخ من كتب إسلامية لا يستفاد منها الاستفادة المثلى لأنها ألفت منذ عشرة قرون بلغة وأسلوب وتفصيل لا يصلح للعامة بل لخاصة الخاصة ؟

كل هذه الأسئلة — وغيرها — تحتاج إلى إجابة حاسمة ، وإلى رد مقنع . ومن غير هذا الحسم والإقناع تظل هناك الكثير من المسائل معلقة ، والكثير من القضايا علامات استفهام . .

فنحن نبذل جهداً قليلا أو كثيراً ، ونجتهد صواباً أو خطأ ، ونتحرك في الداخل والخارج ، وننظم المؤتمرات والحلقات ، ونطبع المطبوعات والمؤلفات ، وننشر البحوث والرسائل ، ونحي التراث وننشر المخطوطات . كل ذلك صحيح وصحي ، ومفيد وضروري ، إلا أننا لم نسأل أنفسنا عدة أسئلة توضيحية منها :

ما الجدوى الحقيقية لكل هذا الجهد ؟

كم عدد المستفيدين منه ؟

وما حجم وعمق التغييرات التي لحقت بهؤلاء المستفيدين ؟

وكم عدد الذين اقتنوا ، ثم كم منهم قرأ واستوعب ؟

وكم من الذين قرأوا هضم وتمثل ؟

وما الجدوى الحقيقية لهذه المؤتمرات والحلقات التي تعقد في العواصم الإسلامية والأجنبية ؟ .

وما مبرر أن تعقد حلقات ومؤتمرات بالعشرات في بلاد أجنبية : هل يحضرها الأجانب ؟ هل يتأثرون بها ؟ هل يستفيد منها غير المسلمين ؟ هل تثير في الإعلام الغربي موجة من التساؤل ؟ وهل تدفع غير المسلم للتفكير في قضايا الإسلام والمسلمين ؟ وما وجهة هذا التفكير ؟ هل موجبة أم سالبة ؟ ما الانطباعات التي تحدثها الدعاية والإعلام الإسلامي في لندن وباريس ، وواشنطن وزيوخ ؟ هل لها جدوى حقيقية أم تأثيرات سطحية ؟ هل هناك

مبرر للاستمرار فيها أم للتوقف عنها ؟ هل هناك مبرر لزيادتها أم لتغيير أساليبها ؟

مئات الأسئلة والتعليقات تحتاج من الأجهزة والدول الإسلامية إلى تأمل ومراجعة ، وإلى فحص وتدقيق خوفاً من أن تستمر في اندفاعها بدون تقويم وتبصر ، ومن غير تعمق وتدبر . .

فأحياناً قد نندفع في إعلام ومقاومة الغزو بأسلوب وطريقة نتصور أنها الأصلح والأنفع ، من غير دليل ولا مستند ، وبدون مراجعة وتحليل . نندفع في طريقة قد ننفق فيها الملايين وننشغل سنين من غير دراسة للجدوى والقيمة ، والتأثير والنتيجة . .

فإعلامياً وفنياً ، ليس المهم الحركة ، بل المهم تأثير هذه الحركة . وليس المهم الفعل ، بل المهم نتائج هذا الفعل . .

لهذا أقترح كأساس سابع لمقاومة الغزو تعدد الوسائل وتنوعها وخروجها عن دائرة اللفظ والجملة ، إلى ميدان أوسع ، ومجال أرحب . إلا أنني في نفس الوقت أحذر من أن ننجرف في أنشطة وفعاليات دون أن نعرف نتائجها جيداً ، ودون أن نتوقع آثارها بعمق .

ومثل هذه المعرفة ، والتوقع ، ليست سراً أو رجماً ، بل الآن وبحكم عشرات التخصصات والتقنيات العلمية يمكن إجراء دراسات وتوقعات ، وبحوث وقياسات يمكن من خلالها الحكم على نشاطنا ، وتقويم مشروعاتنا .

وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في نقطة العاملين ، والميزانية ، والمعلومات فنحن بحاجة إلى تواكب علماء ومتخصصين ، ولتآزر باحثين وفنيين من مختلف الفروع حتى يمكنهم دراسة وتقويم ، وفحص ومراجعة مؤسساتنا وكفاحنا الفكري والإعلامي . .

ولا شك أن بعض هذه البحوث موجودة أو في طريقها للوجود ، بيد أن ما أطالب به مزيداً من البحث والدراسة ، بدون حساسية أو خوف ، وبذلك يمكننا اكتشاف مواقع أقدامنا ، وتوقعات عملنا لكي نحكم هل نستمر في هذه الجهود أم نتوقف عنها ، وإذا توقفنا ، فما هي خطط الجديد ؟ وما أساليبه ؟ ما محتواه ومستواه ؟ من الذين سيعملون فيه ويقودون خطواته ؟

ومثل هذه الخطوات أضحت الآن بدهيات وأوليات في المشروعات الاقتصادية : فلا يمكن أن يتم مشروع ، من غير دراسة الجدوى الاقتصادية له ، ومن غير تحليل للكلفة والمنفعة ، والكلفة والفعالية ، واكتشاف حلقات الهدر والفقد ، ورفع مستوى الكفاية والإنتاجية ، وتحسين مستوى المنتج من غير زيادة في التكلفة أو إضاعة للوقت أو إهدار للجهد ، ودراسة مستوى العاملين وتحليل كفايتهم ودرايتهم ، وتحسين ظروف العمل ، وتقليل نسب خسائره وإصاباته ، وخاماته وأدواته . .

كل ذلك أضحى بدهياً وأوليا في كل المشروعات الاقتصادية ، ونحن في مجال الدعوة ومقاومة الغزو ندير أجهزة ضخمة ، بميزانيات هائلة ، وأهداف متنوعة ، وبالآف العاملين وملايين الأرصدة ، وعشرات المراكز المنتشرة في أنحاء العالم ، ومئات المؤلفات والنشرات ، ومئات المخازن وأدوات النقل والشحن .. الخ وكل ذلك – وغيره – يحتاج إدارة حديثة ، و تشغيلا مبتكراً ، ورقابة حازمة ، وتوجيها فعالا ، وأداء منضبطاً ، وتقــويماً فعالا . .

والشائع الآن أن المشاريع الراهنة تستخدم أساليب ونماذج في الإدارة مثل : « بيرت » ، الميزانية المبرمجة ،والإدارة بالأهداف ،وأساليب « دلفى » ، "والسمبلكس" ، وطريقة المخزون ،وأساليب التماثل ،ونظرية الألعاب ، وغير ذلك من أساليب بحوث العمليات ونظم الإدارة . وإذا كان ذلك كذلك

في ميادين الصناعة والخدمات ، والحرب والسلم فينبغي أن تكون كذلك في إدارة منظمات الدعوة ومقاومة الغزو الفكري . .

وأنا بطبيعة الحال ــ لا أريد عودة إلى موضوع المقارنة بيننا وبين غيرنا : فجميع أجهزة الغزو الفكري ، لا تتخذ قراراً إلا بعد دراسة وفحص ، ولا تطبع كتاباً إلا بعد تحليل ونظر ، ولا تصدر منشوراً إلا بعد بحث وتنقيب ، ولا توزع ملصقا إلا بعد مراجعة ومقاونة . . ومثل هذه الدراسات والمقارنات لا تقتصر على شخص واحد ، أومدير واحد ، بل يشترك فيها مئات المتخصصين في المادة العلمية ، ونفسية الشعوب ، والحرب النفسية ، والغزو الفكري ، والألوان ، والإعلام وقياس الرأي العام ، . . الخ . بحيث لا تطبع الملصقات وتوزع إلا بعد دراسة لنفسية الجماعات البشرية الموجه إليها هذه الملصقات ، فالصورة ، والكلمة ، واللون ، والشعار ، والحجم ، ونوع الحرف ولغة الكتابة ، ومستواها . . الخ . كل ذلك وغيره ليس اجتهاداً مبنياً على رأي المكتبين والإداريين ، بل قضية علمية تبحث في مختبرات للتصوير والتحميض والتكبير والتسجيل .. الخ والأهم من كل هذا أنها تبحث وتدرس عن طريق خبراء بنفسية الجماعات المستهلكة لهذه الملصقات . وتاريخ الحروب النفسية ، والانتخابات ، وحملات الدعاية مليئة بالأمثلة التي تثبت أن الرسالة الإعلامية قد تؤدي إلى عكس نتيجتها من جراء خطأ فني في تصميمها ، أو جهل بنفسية المتعامل معها أو عشرات الأسباب التي قد يجهلها غير الخبراء برغم تأثيرها الخفي ، الذي قد لا يظهر مباشرة ، بل يحتاج وقتاً لكي تظهر معالمه . .

من هنا فثمة احتمال أن نطبع كتاباً ، أو نعد منشوراً ، أو نصدر ملصقة ، أو نسجل شريطاً ، أو ننظم حملة إعلامية ضد غزو فكري أو لصالح قضية معينة ، ثم ننسى أموراً كثيرة ، رغم أن الأعداء والغزاة يلتفتون إليها ويركزون عليها . .

من هنا نكرر القول أن مقاومة الغزو تحتاج جهداً خارقاً ، وجهوداً مكثفة ، وخبراء متكاملين ، وفنيين ومترابطين ينتظمون جميعاً في فريق عمل يستكشف ويحلل ، ويدرس ويرد ، ويعد ويراجع . .

وعملية التقويم والمراجعة هذه قد تتم أحياناً بطريقة عفوية ، أو تتسم بالمجاملة وحسن النية . ومن هنا تتم هذه المراجعات – إذا تمت – بدون فعالية أو نتيجة ، وبدون تأثير أو عائد . فإذا تمت عمليات التقويم بطريقة روتينية تقليدية ، فإنها لا تقودنا إلى مؤشرات صحيحة أو مراجعات ذكية والنتيجة النهائية أننا قد نستمر في نفس الطريق ، وبذات الأساليب بدون استفادة أو تطوير . .

وعندما نقوم بالتقويم والمراجعة ، فذلك ليس جهداً ورقياً أو عملية شكلية بل يحتاج متابعة ميدانية ودراسة حقلية . . فالتقويم لا يتم داخل مكاتب أو من خلال الأوراق والمطبوعات ، بل من خلال جهد فعلي اقياس تغيرات السلوك ، وتقلبات الأداء . فنحن لا نستطيع الحكم – حكماً علمياً – بأن هذه الحملة قد نجحت في مقاومة غزوة فكرية ، من غير قياس للتغيرات التي لحقت بالسلوك والمفاهيم والاتجاهات . .

ومثل هذه العملية جزء من الدراسة العلمية المتخصصة التي نطالب بها وندعو إليها لقياس تغير الأداء ، وانتقال أثر التدريب والتوجيه . .

وعلى هذا الأساس ، فإعداد المادة العلمية ، واختيار وسيلة التواصل ، واختيار المادة والوسيلة ، ثم الانتشار والتوزيع ، وأخيراً قياس التغير في الآراء كل ذلك لا بد أن يتم بطرق علمية وبأجهزة متخصصة ، وإدارة حديثة وحرص إسلامي . .

وخلال عملية الإعداد والقياس ، والتخطيط والتقويم لا بد أن نأخذ في اعتبارنا تكامل الوسائل ، واتصال حلقات تأثيرها :

فالكتاب الإسلامي ينبغي أن تكمله المطبوعة الإسلامية . والمطبوعة والكتاب يكملهما البرنامج الإذاعي المسموع والمرئي . وكل ذلك تكمله المحاضرة والندوة . والمحاضرة والندوة يثريها ويرفع من مستوى كفاءتها الصورة والشريط والشرائح الملونة والأفلام ، والمطبوعة المناسبة .

وبذلك كله تستكمل الحلقات : المجتمع بكافة قطاعاته وفئاته ، والملايين صغيرهم وكبيرهم ، والهيئات حكومية وشعبية ، الوسائل سمعية وبصرية ، وبذلك نشمل المجتمع طولا وعرضاً وعمقاً ، ونغطي جميع جوانب الحياة ، بطول الحياة ، وعرض الحياة ، ومثل هذه الاستراتيجية طويلة المدى ، وعريضة الجبهة ، ومتعددة البدائل ، ومتكاملة الأساليب تضمن لنا مقاومة للغزو : رفيعة المستوى ، وعميقة الأثر ، ومركزة الجهد . وبذلك لا نترك جبهة من غير تغطية ، ولا ندع وسيلة من غير دعم ، ولا نهمل غزوة من غير رد . ولا شك أن جميع أبحاث الاتصال البشري والإعلام والرأي العام وتغيير الاتجاهات وقياس نفسية الجماعات والأفراد وفروع علم النفس تؤيد ما ذهبنا إليه من تعدد الوسائل أو قنوات الاتصال ، وتكامل الرسائل الموجهة ، بحيث نضمن أن المستقبل انفعل ثم استجاب :

الانفعال المناسب والاستجابة المقصودة . .

وبدون ذلك قد ندور في حلقات مفرغة تستهلك الجهد ، وتحرق الوقت ، وتستنزف الموارد ، وربما تضيع الهدف أو تحقق نتائج محدودة لا تستحق كل هذا العناء والجهد .

ثامناً : دراسة نفسية المهاجمين والمقاومين :

لا نستطيع الوصول إلى أهدافنا بالدرجة المطلوبة ، والعمق الكافي ، والأمور ما زالت ملتصقة بالسطح لم تتجاوزه إلى الأعماق والدخائل .

ومن هنا نفترض أن الأساس الثامن في مواجهة الغزو الفكري الدراسة العلمية المتعمقة للجناحين معاً : جناح المهاجمين ، وجناح المقاومين . .

فكيف لنا أن نعمل بطريقة علمية ومنظمة ، عميقة ومتجذرة ونحن لا نعرف أهداف الغزو ، المعرفة العميقة الكافية ؟ والمؤكد أنه لا تكفي المعرفة السطحية أو القشرية ، أو المعرفة المبنية على سرعة حكم ، أو انفعال رد . والمؤكد أنه لا تكفي المعرفة المبنية على معلومات قديمة وخبرات سالفة .

فالغزو يغير من أساليبه وألوانه ، كما قد يغير من أهدافه ، ويبدل في ترتيب أولوياتها . من هنا فلا بد من دراسة متعمقة دونما تحيز أو انفعال لهذه الغزوات لتحليل أساليبها وتطورها ، وللوقوف على أسرارها ودقائقها . .

ومثل هذه الدراسة تقتضي حيدة ونزاهة ، وموضوعية وأمانة ، وجلداً ومثابرة ، وطول نفس وأناة ، ومعاشرة وفهم ، وبذلك كله نستطيع اكتشاف الدوافع والاتجاهات ، والوسائل والغايات . .

ومن الممكن أن تتم هذه الدراسة بتحليل أفعال وسلوكيات هذه الهيئات الغازية مع مجموعة إسلامية استهدفها الغزو . ومن خلال التحليل والتدقيق يمكن اكتشاف كثير من التفاصيل قد تخفى علينا أو نادراً ما التفتنا إليها . .

ومؤكد أن مثل هذه الدراسة أفضل بكثير من مجرد التأمل المكتبي ، والتنظير الورقي هذا فيما يتعلق بالجناح الأول . .

أما الجناح الثاني أعني نحن الذين وجهت إليهم السهام ، واستهدفهم العدوان فلا بد من دراسة عميقة لنفسية الجماعات الإسلامية في مختلف بقاعها ومناطقها .

ولا شك أنه من السذاجة المفرطة أن نتصور الـ ٨٠٠ مليون يفكرون

ويسلكون ، وينفعلون ويستجيبون بطريقة واحدة أو متماثلة . فهناك عشرات الاختلافات والفروق الفردية والجماعية ويكفي إشارة لعبارة ابن خلدون « للبقاع تأثير على الطباع » . .

مثل هذا التفاوت يحتاج إلى دراسة وفهم ، وتحليل وتفسير .. ومن غير الجائز أن نترك ميدان الدراسة والتفسير لهيئات أجنبية ، ولمراكز بحوث مرتبطة بها تدرس الأمة الإسلامية في تجمعاتها المختلفة بأساليب مختلفة ، وتهدف سبر أغوارها ، وفهم شخصيتها . .

إذن لا بد للهيئات الإسلامية ، بخبرائها وعلمائها ، وبموضوعيتها وحيدتها من دراسة شخصية المسلمين هنا وهناك ، وفي هذه القارة أو تلك ، وفي هذا المجتمع أو ذاك . .

ولا شك أن مثل هذه الدراسات تعترضها عقبات جمة ، إلا أن الحلول ممكنة .. فعن طريق تنظيم العلماء المسلمين في هذه القارة وتلك ، وفي هذه البلدة وتلك يمكن الوصول إلى كثير من الخطط والمشاريع العلمية التي يمكن بها الدراسة والتحليل .

أما الاعتماد على هيئات أجنبية ، وعلى دراسات أجنبية فذلك ما سبق أن حذرنا منه في الأساس الرابع . :

فمن غير اعتماد أكيد على الذات ، وفهم عميق للإمكانات ، وتحريك ممتاز لها ، قد تستمر كثير من المؤسسات مجرد نشاط من غير فعالية .

فلا بد إذن من دراسة عميقة موضوعية لنفسية المهاجمين والمدافعين ، والغزاة والذين وجهت إليهم حراب الغزاة . .

وبطبيعة الحال ، ليس المقصود بالدراسة النفسية مجرد وقوف عند وصف

وتشخيص ، بل المقصود الدراسة الشاملة للاحتياجات والدوافع ، وللمحركات والمثيرات ، وللاستجابات وردود الفعل . فقد تكون المشكلة في جماعة إسلامية نقص خدمة طبية ، أو نقص تموين أو مياه . وقد تكون المشكلة نقص مدارس وجامعات ، أو ضعف تمويل أو ادخار . وقد تكون المشكلة في عدم وجود سوق للعمل ، أو سوق لتصريف المنتجات . وقد تكون الجهل والأمية بأنواعها ودرجاتها المختلفة . .

من هذه الثغرات والنقوص ، يتسلل الاستعمار ، وتتغلغل الشيوعية ، وتحاول الصهيونية والمؤسسات المرتبطة بها تدميراً وتخريباً لأصالتنا ، وتفكيكاً لعرى ديننا ووحدتنا . .

لهذا كله لا بد من الدراسة العميقة لنفسية وظروف ومتغيرات كل جماعة استهدفت أو تستهدف للغزو حتى نفهم الأرضية الثقافية ، والنقص الموجود ، والثغرة التي حاول الأعداء التسلل منها . .

فالعدو يدرك نقطة الضعف ، ومركز الاهتمام وينهال عليه :

١ـ فإذا كانت الجماعة تشكو نقص خدمة طبية ، تسلل إليها في مؤسسة طبية ثابتة أو متنقلة ، تحمل مبشرين أو مناوئين . . من هنا قال الطبيب بول هاريسون في كتابه الصادر بلندن سنة ١٩٤٣ بعنوان « طبيب في بلاد العرب »(١) إن المبشر لا يرضى عن إنشاء مستشفى ولو بلغت منافع هذه المستشفى منطقة عُمان بأسرها . لقد وُجدنا نحن في بلاد العرب لنجعل رجالها ونساءها نصارى ! !

ولا يقتصر الأمر على نص في كتاب ، أو مقالة في صحيفة ، بل هناك مؤتمرات وجلسات عقدت للربط الوثيق بين التطبيب والتبشير : ففي عام

---

(1) Paul Harrison, Doctor in Arabia, London 1943.

١٩٢٤ أقام المبشرون مؤتمراً عاماً وعقدوا جلساته في القدس واستانبول وحلوان (مصر) وبرمانا (لبنان) وبغداد . وخلال هذه الجلسات في خمسة بلدان مختلفة ـ أجمع المؤتمرون على أهمية التطبيب وصلته المباشرة بالتبشير ، بل إن جلسات القدس ركزت على ذلك وجعلته محور اهتمام (١) . .

وإذا كانت هذه التواريخ مضت منذ ٥٥ عاماً فلعلها الآن توقفت . . إلا أن الواقع يثبت عكس ذلك فما زالت سارية المفعول ، مرسومة الخطوات .

و للتدليل على ذلك تكفي إشارة للاهتمام الواضح الذي أولاه الرئيس الأمريكي الأسبق « جون كنيدي » ومن بعده الرئيس « جونسون » لجيش السلام الأمريكي الذي زرع في مناطق مختلفة للعالم من أجل خدمة الملايين الفقيرة ، وعلاج المحتاجين ، وتعليم الأميين ، وتدريب المدربين وفي نفس الوقت « أمركة » هذه الثقافات ، وتبديلها ، وتغييرها نحو التعاون والائتلاف ، والانسجام والتصالح مع السياسة الأمريكية ، « التي جاءت إليكم في الأحراش والجبال إلا للخدمة المخلصة ، والإعانة الصادقة في مقابل أن تتعاونوا معنا ، وتحسوا مصالحنا ، وترتبطوا بنا ، وتقفوا سداً معنا ضد الشيوعية ! ! »

وبطبيعة الحال ، عملية التقايض والمقابلة هذه لا تتم بأساليب مباشرة أو بطرق ساذجة بل لا يشار إليها على الإطلاق من قريب أو بعيد ، بل تأتي من خلال السياق ، والخدمة الفعالة ، وإنجاز المهمة ، وشعور الفرد الفقير بأن الحكومة الوحيدة المهتمة به هي حكومة واشنطن رغم بعد الشقة وطـول المسافة ! ! بل إن هذا المواطن قد يكون شاكياً أو متبرماً أو هارباً من حكومته ، ثم تأتي هذه الإرساليات والبعثات إلى باب كوخه ، أو مرفأ قاربه ، أو تجمع قطعانه . .

---

(١) راجع التفاصيل : مصـطفى الخالدى وعمر فروخ . التبشـير والاستعمار فى البلاد العربيـة ص ٥٨ ـ ٦٤

وتجربة « جيش السلام الأمريكي » من التجارب المعاصرة التي تحتاج منا إلى جهد في الدراسة ، ومتابعة في التحليل :

فهذا الجيش ليس جيش مبشرين أو دعاة ، ولا يضم خطباء أو بلغاء ، كما أنه لا يضم مرتزقة أو هواة بل خلاصة التعليم الجامعي والدراسات العليا الأمريكية ، يختارون وينتقون من الـ ٣٠٠٠ جامعة أمريكية ، ثم يدربون تدريباً طويلا - لسنة أو سنوات - من أجل فهم طبيعة المجتمع والجماعة التي سيتطوعون لخدمتها .

وخلال هذه الدراسة للغة المحلية ، والعادات ، والتقاليد ، والثقافة والتحديات النفسية ، والتطلعات يتم استكشاف هذه الشعوب وتحليلها بحيث يذهب جيش السلام إليها مزوداً بكل مهارات التعامل ، وأساسيات التأثير .

والمؤكد أن برامج الدراسة لا يتولاها رجال دين أو سياسيين بل خبراء وأساتذة يستقدمون من كل الفروع ، توضع أمامهم كل البيانات والدراسات بحيث يتأكدون أن الخريجين أضحوا على المستوى المناسب للغزو ، والمحتوى المناسب للتأثير . .

ثم تنزل هذه الفرقة أو تلك لا للوعظ أو التبشير ، ولا للدعاية أو التبرير ، بل للخدمة الطبية والتعليمية والهندسية والإنشائية والاجتماعية والزراعية والغذائية والإرشادية والصحية . . الخ .

وبذلك كله - وبغيره - يضمن جيش السلام أنه قد وصل إلى أعصاب الجماعة التي قدم إليها ، ولمس مشاكلها الحية ، وبدأ في علاجها العلاج المناسب لأصحابها ولمصلحة الولايات المتحدة ! !

والمؤكد أن هذا المبعوث - باختياره وإعداده - بتجهيزاته ومعداته ، لا يلجأ للخطبة ومكبر الصوت ، ولا يعمد إلى النصح والإرشاد بل يعتمد على

وسائل متكاملة معقدة ، ومتداخلة مركبة ، تتناسب مع نفسية الجماعة التي يتعامل معها وتحل مشاكل عانوا منها .

وهذا المبعوث لا يحتاج إلى مترجم أو دليل ، فهو يتقن اللغة المحلية

وهذا المبعوث لا يتعارض مع قيم الجماعة وأشكال عرفها ، فقد درسها ودرب على طريقة التعامل معها بذكاء وحرص . .

كما أنه ليس بحاجة إلى شرطي أو نقطة حراسة ، لأنه يقدم للأهالي الخدمة التي ربما عجزت حكومتهم عن تقديمها أو قصرت في أدائها . .

وخلال الخدمة والاتصال ، والتفاعل والارتباط تتم عمليات تغيير الاتجاهات بطريقة معقدة ودقيقة . .

فالطبيب أو المهندس الأمريكي في ساعات راحته يصطحب معه جهاز عرض سينمائي ، أو عرض للشرائح ، أو جهاز فيديو ملون ويجلس وسط أهالي القرية أو أطفال القبيلة ويعرض عليه شيئاً من هنا وهناك ، باللغة المحلية ، وبالأسلوب المتناسب مع مفاهيم المشاهدين . .

ولا شك أن الأسئلة ستتوالى ، وردود الفعل ستتفاوت فتبدأ جلسات حوار ومناقشة ، ومداعبة وتسلية يمكن من خلالها زرع قيم ونزع أخرى ، وتأكيد ولاءات وزعزعة أخرى ، وبث اتجاهات ومحو أخرى . .

لهذا أكرر القول أن تجربة « جيش السلام الأمريكي » وغيرها من التجارب التي توجهها المعسكرات الرأسمالية والاشتراكية ، وتحركها منظمات دينية وعلمانية بحاجة إلى دراسة وبحث ، وتقويم ومراجعة . .

وفي نفس الوقت لا بد أن نراجع معلوماتنا ونتائج خبراتنا عن التعامل مع المبشرين والغزاة ، فكثير من هذه المعلومات مضى عليه ما يزيد عن نصف

قرن عندما كان التبشير مكشوف الوجه ، دميم الخلقة ، واضح النبرات ، عالي الصوت . وما زلنا نردد في كتبنا ودراساتنا الكثير من هذه الأساليب والوسائل ، رغم أن الزمن عفى عليها ، والتغيير لحق بها ، والتطور أعـــاد تشكيلها . .

فالأصوات المرتفعة أصبحت تثير ضجة أكثر مما تقدم خدمة . . والوسائل المباشرة أصبحت ردود فعلها صاخبة دموية . . والتدخل الساذج ، والتبشير المتعمد ، والتشويه المقصود أضحى عملات قديمة لا يصلح التعامل بها في سوق الغزو وميدان التغريب .

لهذا كله تغيرت الوسائل ، وربما لم تتغير استجاباتنا ! ! فنحن ما زلنا نقرأ ، أو نترجم الكتب والنشرات القديمة التي كانت تصدرها جمعيات التبشير منذ سبعين عاماً أو يزيد ، عندما كانت جميع الظروف ، والاعتبارات مغايرة لواقع اليوم . . فالمؤكد أن الشعوب الإسلامية ــ وغير الإسلامية ــ أضحت أكثر استنارة . . والمؤكد أن الحكومات الإسلامية أضحت أكثر حرصاً . . كما أن وسائل الاتصال وتبادل المعلومات أصبحت أكثر انتشاراً : فما قد يحدث في غابة إفريقية ، أو في مستنقع آسيوي تتناقله وكالات الأنباء وتعلم به الأجهزة الرسمية والشعبية . لهذا كله ، تغيرت الوسائل والأدوات لتتناسب مع النفسيات والمشاكل الجديدة ، ومع ذلك لم تتغير ــ أحياناً ــ أساليب المواجهة والمقاومة . .

ولا بد من اعتراف وتوضيح هنا :

فكاتب هذه السطور عندما اضطلع بكتابة هذا الكتاب لم يجد مادة كافية مؤلفة أو مترجمة ــ تتناول أساليب الغزاة وحيلهم ودسائسهم الجديدة ، بل كل ــ أو معظم الموجود ــ عبارة عن تعليقات على جهود المبشرين منذ سبعين عاماً ، ومؤتمراتهم منذ ستين عاماً ! !

والأخطر من ذلك ، أن أسماء المبشرين المعاصرين لا توجد إشارة إليها ! !
فكل ما في مراجعنا أسماء من انتقلوا إلى ربهم منذ عقود ، وكأن التبشير توقف بموت هؤلاء الآباء . .

لهذا قلت أن الوسائل تغيرت ، وما زالت استجاباتنا شبه ثابتة . . فما زلنا نعيش على سيرة الماضي ، وعلى تحليل التاريخ ، وفحص وقائع قايمة ، أما الجديد والراهن ، والحديث والمعاصر فهو بعيد عن التحليل ناء عن الضوء قلما يصل إليه بيان أو لسان ، أوباحث أو كاتب . .

لهذا فنحن في حاجة ماسة لدراسة نفسية المهاجمين الجدد ، ونفسية المهاجمين الحاليين بحيث لا يستغرقنا تاريخ ، ولا يصرفنا حائل عن دراسة الواقع الراهن والساحة الحالية ، وما يخطط لها ويدبر ، وينفذفيها ويتم . .

٢ ــ أما إذا كانت الجماعة في حاجة إلى خدمة تعليمية ، فإن أجهزة الغزو والتغريب لا تتأخر ، ومن هنا تسرع إلى إقامة المدارس وتأسيس المكتبات ، وإرساء قواعد للمعلمين والموجهين ، بل ان الأمر يمتد إلى أكثر من ذلك : فتنظم ساعات للاستذكار ، وقاعات للاطلاع الليلي تزود بإمكانات الدرس والترفيه ، وبالمدرسين والمراجعين . ومن ينتظم في هذه المدارس ، والمكتبات ، والمراكز تقدم له الهدايا والجوائز ، وتوفر له الخدمات والتسهيلات . .

وقد تكون هذه الخدمات عينية مثل جوائز ، وأموال ، وكتب ، وأدوات وقد تكون رحلة داخل القطر أو خارجه ، أومجموعة كتب وأشرطة واسطوانات تقدم له الثقافة الجديدة حيث يكون ، وفي أي مكان يقطنه .

وقد لا يحتاج الأمر إلى مدرسة ومركز ، بل يكفي الاستماع إلى مذياع ! !

فمن خلال المذياع تقدم الخدمة التعليمية والثقافية والترفيهية وتربط المستمع بجوائز مادية وعضوية ، وعينية وثقافية . . فمن يتابع برامج اللغـــة

الإنجليزية أو الفرنسية في هذا البرنامج أو ذاك ، يكتسب مهارة جديدة ، وقد يحصل على جوائز حيث كان ، وأياً كان . .

ومثل هذه المدارس تقدم خدمات كثيرة ومتداخلة ، تخدم أهدافاً قريبة وبعيدة ، تضر بالماضي والحاضر والمستقبل (١) .

إلا أن الذي فات على الكثيرين أن هذه المدارس قدمت خدمة كان الأهالي يشعرون بالحاجة إليها . وقد تكون هذه الحاجة ضرورية وهامة ، وقد تكون طارئة وملحة . وقد تكون هذه الحاجة من أساسيات البناء ، أو من الصرعات التي نشرها المستعمر ، وقد تسد نقصاً في الأمة ، أو مجرد متابعة لفكر مستورد مشكوك في قيمته . .

المهم ، أن هذه المدارس قدمت بالفعل خدمة أو خدمات ، لهذا أقبل عليها البعض بحسن نية أو بسوء قصد ، فاستفادوا منها واستفادت منهم أجهزة التبشير والتغريب والغزو . .

---

(١) راجع التفاصيل :

ـ مصطفى خالدى وعمر فروخ · التبشير والاستعمار فى البلاد العربية مرجع سابق ص ٦٥ ـ ١١٢

ـ عبد الرحمن حسن حنبكة ·أجنحة المكر الثلاثة · مرجع سابق ص ١٥٦ ـ ١٥٩

ـ على عبد الحليم محمود ·الغزو الفكرى وأثره فى المجتمع المعاصر · مرجع سابق ص ١٢٧ ـ ١٤٠

ـ على جريشة ومحمد الزيبق ·أساليب الغزو الفكرى للعالم الإسلامى مرجع سابق ص ٦٢ ـ ٦٩

أنور الجندى · التربية وبناء الأجيال فى ضوء الإسلام · دار الكاتب اللبنانى · بيروت ١٩٧٥ · ص·ص ١٩ ـ ١٠٧

ـ جلال يحيى · العالم العربى الحديث · المدخل · مرجع سابق ص ٢٠١ ـ ٢٠٤

والموقف الإيجابي – من وجهة نظري – لا ينبغي أن يقتصر على الهجوم والرفض ، والقذف والاستهجان ، بل لا بد أن يمتد إلى موقف أكثر إيجابية حركية . .

فماذا تقدمه هذه المدارس من خدمة تربوية وتعليمية تجعل أولياء الأمور والتلاميذ مقبلين عليها ؟

وما الذي ينقص مدارسنا الإسلامية الأصلية التي جعلت البعض يزور عنها ؟

وما الوسائل التي يمكن بها تطوير مدارسنا وجامعاتنا الإسلامية الأصلية لكي تنافس وتواجه غيرها في الداخل والخارج ؟

وما الوسائل التي يمكن بها تطوير مؤسساتنا التعليمية حتى قبل أن نطالب بإغلاق هذه المدارس المستوردة ؟

مجمل القول ، قبل أن نصادر على الآخرين ونطالب بتصفيتهم لا بد أن نطور مؤسساتنا التعليمية إدارة ومحتوى ، وطريقة ونتيجة .. فلا بد أن تتخرج لدينا أفواج ودفعات تنافس الآخرين وتتفوق عليهم في ميدان العمل والإنتاج ، الخدمة والفعالية . .

ليس معنى ذلك أن ننقل من تجارب الآخرين أو نكرر برامجهم بل المقصود أن ننطلق بأجيالنا في تربية إسلامية واثقة وعميقة ، حديثة ومنتجة : مبنية على احتياجات المجتمع ، وموجهة برسالة الإسلام ، ومتوجهة لخدمة المستقبل . ومثل هذه أفاض في شرح معالمها بعض الكتاب والباحثين(١) ، ولنا عودة إليها في الفصل التالي . .

---

(١) راجع التفاصيل :
– أبو الحسن الندوى · نحو التربية الإسلامية الحرة · مرجع سابق ص ص ٥٧ – ٧٢
=

تاسعاً ـ التبسيط والمناسبة :

يقول المولى عز وجل : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » (١) . ويقول أيضاً في مجادلة ومقارعة أهل الكتاب : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم » (٢) . . وفي الحديث النبوي الشريف : « خاطبوا الناس على قدر عقولهم » . .

يفهم من هذا كله أن المقارعة والدعوة ، والرد والصد ينبغي أن تكون على درجة عالية من الإقناع والوضوح ، والتبسيط والمناسبة . .

ولقد سبقت الإشارة في الأساس السادس إلى أن الإسلام يعف عن الدس والتدليس ، والمبالغة والتهويل ، والآن نؤكد ضرورة الوضوح والتبسيط .

فلا يمكن مخاطبة فئة أو جماعة من المسلمين إلا بالمستوى والمحتوى ، واللغة والطريقة ، والمثال والنموذج المتلائم معهم ، والمناسب لظروفهم . .

وهذه المناسبة تعني التواؤم مع ظروفهم الاقتصادية والثقافية ، والتعليمية ، والنفسية . ومع ظروفهم الاجتماعية الراهنة . .

وليس معنى ذلك أنالدعوة أو مقاومة الغزو ينبغي أن تترخص أو تتدنى ،

=ـ أنور الجندى · التربية وبنـاء الأجيال فى ضوء الإسلام · مرجـع سابق ص ص ١٥٣ ـ ٢١٧

ـ أنور الجندى · التربية العـدد١٨ و ١٩ من معلمة الإسلام · دار الاعتصام القاهرة ـ ١٩٧٧

ـ عبد الفتاح عشماوى · التعليمفى بلاد المسـلمين وكيف يكون إسلاميا · المؤتمر العالمى لتوجيـه الدعوة وإعداد الدعاة ، المجلدالثالث مرجع سابق ·

(١) سورة النحل : آية ١٢٥

(٢) سورة العنكبوت : آية ٤٦

أو تتهاون أو تتناسى،أو تدغدغ المشاعر أوتسترضي الجمهور ، فذلك من أفعال المارقين المستهترين ، وما كان للدعوة الإسلامية أن تفكر فيه أو تمارسه . فشرف الغاية ، ونبل المقصد يفرضان شرف الوسيلة ، وكرامة التوجيه ، والمؤكد أننا لسنا بحاجة لمطاردة الجمهور في مخادعه ، أو تضليله بالبهرجة والألوان الصاخبة ، أو دغدغة حواسه بالمثيرات والشهوات المحرقة . .

لهذا كله ــ وبغيره ــ أقول إن إسلامية المنهج ، وفنية الأسلوب لاتتعارضان مع البساطة والوضوح، والمناسبة والتلاؤم ، فليس المقصود بإسلامية المنهج أن تكون المادة جافة أو متجمدة . . وليس المقصود بفنية الأسلوب أن تكون متبهرجة أو مترخصة بل الذكاء الشديد والنجاح البالغ في الجمع بين الإسلامية والفنية في مزيج متكامل ، ولون متميز . .

فكم نحن في حاجة ماسة ، وضرورة ملحة لإعلام وتوجيه إسلامي يجمع بين خصائص المنهج الإسلامي ، وخصائص الأساليب الإعلامية الحديثة نفيد من إمكاناتها ، ونستثمر طاقاتها . .

فوسائل الاتصال لكل منها طاقة وإمكانية ، ومدى وحدود ، ونغمة، واستعداداً . فهناك وسائل حارة (كالراديو أو السينما) وأخرى باردة (كالتيلفون والتلفاز) .

والمقصود بالوسائل الحارة التي تمد حاسة واحدة وتعطيها وضوحية عالية أو تحمل إليها كمية كبيرة من المعطيات فلا تترك الكثير للمستقبل كي يكمله أو يملأ فراغه . أما الوسائل الباردة فذات وضوحية منخفضة ، فالتليفون ــ مثلا ــ لا تتلقى الأذن من خلاله إلا مجموعة ضئيلة جداً من المعلومات ، ومن ثم يقتضي من المستمع قدراً عالياً من المشاركة والإكمال (١) .

---

(١) مارشال ماك لوهان · كيف نفهم وسائل الاتصال · ترجمة خليل صابات وآخرين · دار النهضة العربية ــ القاهرة ١٩٧٥ ص ٣٢

ومثل هذه التفاصيل والدقائق الفنية تحتاج خبراء إعلام مسلمين : يدرسون الميدان ويفهمون أسراره ، ثم يقدمون خلاصة خبرتهم لخدمة الدعوة ومقاومة الغزو . أما الاعتماد على البداهة والإحساس العام ، أو الاعتماد على الخبرة والذوق دون دراسة وتخصص ، فلن تُجدي كثيراً ولن تخدم معركتنا ، وخصوصاً أن الأعداء والمهاجمين مزودون بأحدث تقنيات الإعلام ، وأرقى بحوث الاتصال . ولقد سبقت إشارة إلى أنهم يعتمدون على مختبرات وعلماء ، ودراسات وقياسات قد تستغرق سنين عدداً للوصول للسلاح المناسب والذخيرة الملائمة . .

وكما أن السلاح العسكري يجري إعداده على مدى سنوات ، ويختبر ويفحص لشهور وسنوات ، كذلك السلاح الفكري فهو موضع دراسة جادة ، واستكشاف هائل ، وتجريب مستمر ، وتقويم دائم . .

لهذا ينبغي ألا يقصر الإعلام الإسلامي في هذه المهمة ، أو يتخاذل في هذه الناحية بل عليه الانطلاق بأقصى سرعته ، نحو أهدافه الأصيلة ، وجذوره المتعمقة لكي يصل إلى قلوب وعقول مستقبليه ، ولكي يؤثر في استجاباتهم وسلوكهم التأثير المطلوب والاستجابة المبتغاة . .

أما الجفاف والنمطية فينبغي أن تختفي من إعلامنا الإسلامي ومقاومتنا الفكرية . وعندما نشير هذه النقطة فلأن مصدر الشكوى موجود وماثل أمامنا :

فلو تصفحنا الكتاب الإسلامي لوجدناه غالباً غارقاً في الحروف والأسطر دون شكل أو رسم توضيح أو تقريب . وفي بعض الحالات قد تجد لون الورق كئيباً كابياً ، والإعداد والاخراج فقيراً محدوداً . .

ولو تصفحنا مجلة الأطفال الإسلامية – إن وجدت فكم هي شحيحة

نادرة ! ! — لوجدناها غير مشوقة أو جذابة . .

ولو تصفحنا المسرح الإسلامي — وكم هو قليل ونادر — لوجدناه غارقاً في بطون التاريخ ، وفي حكايات الماضي كأن حاضر ملايين المسلمين لا ، يصلح للتقديم والعرض والتعليق والنقد . .

ولو تصفحنا بعض مطبوعات الأدب والفن الإسلامي لوجدناها عالية النبرة ، وعظية الأسلوب ، خطابية الاتجاه . .

وهذا ما نريد التأكيد عليه :

لا بد أن يضع الخبراء المسلمون أيدينا على خصائص كل وسيلة ، وميزات كل أداة بحيث نستثمرها الاستثمار الأمثل المناسب لإمكاناتها ، والمتميز عن غيرها . لأنه من المحال والمستحيل أن تتحول جميع أدوات الإعلام والمقاومة الإسلامية إلى الخطابة والعظة ، والإلقاء والتوجيه المباشر . وإذا ما فعلنا ذلك فإننا نسيئ استخدام أدوات بملايين العملات ، كما أننا قد ننفي — كثيراً أو قليلا — من المستمعين والمشاهدين والقراء . .

لهذا كله فلا بد من مزيج دقيق بين المنهجية الإسلامية والفنية الإعلامية بحيث نوظف هذه الأدوات التوظيف الصحي والصحيح ، والمناسب والملائم . وبذلك كله نضرب المثل للقدوة الإسلامية ، والسلوك العف ، والاتزان المطلوب والإقناع الهادئ ، وبذلك أيضاً نقدم لغير المسلمين الدعوة بالأسلوب الصحيح ، والنهج القويم :

فمن المستحيل أن نكسب مسلمين إلى صفوفنا ، بالخطابة الانفعالية ، والصوت الغليظ ، والنبرة العالية ، والتهديد المستمر ، والوعيد الدائم . .

وهذه ملاحظة أخرى على نغمة المقاومة والإعلام . .

فالوعيد المستمر ، والتهديد الدائم تجعل إمكانية الحوار شبه مغلقة وإمكانية التفاعل شبه محدودة . فهي تقصر دائرة المستقبلين على أعداد قليلة اعتادت هذا النوع من الإعلام أو توحدت معه فلا ترى سواه ، وإذا كان الحديث الشريف ورد فيه (بشروا ولا تنفروا) فينبغي أن يكون ذلك نبراساً لنا وهادياً لطريقتنا :

فالدعوة الغليظة والنبرة العالية والاتجاه المفعم بالأسى والوعيد ، والخطبة المشبعة بالويل والثبور قد تناسب البعض ، والمؤكد أنها لا تناسب آخرين ، من هنا نجد بعض الناس ينصرفون مللا وهلعاً وسأماً من التكرار والترديد .

فالداعية الناجح ، والمقاوم الموفق هو الذي يعرف جوهر دينه جيداً ، ويعرف نفسية من يتعامل معهم ، وكيف يتعامل معهم ليكسب منهم كل يوم فريقاً وفريقا ، بدلا من أن يخسر أو لا يكسب ، فكأنه يخسر . .

فالدعوة الصالحة لا تسوغ للداعي أن يفقد خلقه مع من لا خلق له ، ولو شغل بتأديب كل جهول يلقاه لأعيته الحيل من كثرة ما سوف يلقى (١) . لذلك عد القرآن الكريم في أوائل الصفات التي يتحلى بها عباد الرحمن ، هذه المداراة العاصمة :

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » (٢) .

وقال تعالى : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليما . إن تبدو خيراً أو تخفوه أو تعفو عن سوء فإن الله كان عفـــواً قديرا » (٣) .

---

(١) محمد الغزالي · خلق المسلم · مرجع سابق · ص ٩٦

(٢) سورة الفرقان : آية ٦٣ (٣) سورة النساء : آية ١٤٨ ، ١٤٩

إذن الدعوة حق وبالحق ، وصدق وبالصدق بدون تزيد أو تنطع ، ومغالاة أو غلو ، أو إفراط أو تفريط . ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « هلك المتنطعون » قالها ثلاثا . .

وفي شرح هذا الحديث الشريف قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب « في هذا الحديث تحذير بالهلاك لأولئك الذين يتكلفون في الدين فوق الوسع ، ويحملونه فوق ما يتحمل ، إذ الدين دين سماحة ويسر ، جاء من عند الله للتسهيل والتيسير وإسعاد البشرية ، فمن جنح بالألفاظ عما يراد بها ، أو حرم على نفسه المباحات والطيبات فقد عرض نفسه للوعيد الشديد الذي حل بمن قبلنا من أقوام هلكوا وعذبوا بسبب تجاوزهم الحد المشروع في الدين . ومن هنا تدرك سماحة الإسلام وحكمته ومراعاته لصالح البشرية » (٤) . .

تأسيساً على ذلك كله ، فمنهج الدعوة والمقاومة والإسلامية يقوم على أسس كثيرة منها الفطرة والبساطة ، والصدق والوضوح والاعتدال والاتزان ، والقدوة والسلوك ، .. الخ والمهم عندنا التأكيد على البساطة والمناسبة باعتبارها الأساس التاسع للمقاومة بدون تنطع أو تزيد أو إفراط أو تفريط أو إهمال للعقيدة أو الأسلوب .

وثمة تصور شائع في بعض الأوساط أن الفكر الديني بطبيعة القائمين عليه متهجم متحذلق ، أو مترفع متعال ، أو متجمد متيبس ! !

ومثل هذا التصور الخاطيء ، إشاعة مضللة لا بد من الرد عليها بالدليل العلمي والقدوة الفعالة . ولا بد أيضاً من تصفية مظاهرها لمن يتصور الدعوة ترديداً لكلمات ضخمة ، وتنديداً بالمسلمين ، وتنكيلا بحاضرهم . .

---

(٤) من كتاب التوحيد الذى هو حق على العبيد . باب ما جاء أن سبب كفر بنى آدم وتركهم دينهم هو الغلو من الصالحين .

وبطبيعة الحال ، ثمة أخطاء وعيوب وانحرافات وتشوهات في حياة المسلمين تحتاج بحثاً وتعليقاً ، لكنها لا تحتاج إلى تنديد وتشهير . . ولعل السؤال الذي يطرح نفسه أحياناً :

ماذا يستفيد المسلمون من مجرد التنديد والتشهير بأحوالهم ؟ ماذا يستفيدون من الهجوم المتواصل ؟ هل يساعدهم على اكتشاف طريق الصواب والسلامة ، أم يسد معظم الشعاب والسبل ؟ هل الشكوى والتبرم المستمر هي الحل ؟ أم محاولة اكتشاف سبل النجاة ؟

والخطورة الكامنة في الشكوى والتنديد أنها أحياناً قد تكون متاهة يصعب الخروج منها : فقد تؤدي إلى زيادة المواجع والشكاية ، وإلى شعور عميق بالذّنب ، وإحساس غامر بالإثم . .

ومثل هذه المشاعر قد تكون سوية صحية ، إلا أن زيادتها عن حدها قد ينقلب إلى ضدها ! ! فيستحيل مرضاً نفسياً يقعد الأمة عن السلوك والحركة ، ويكبلها بقيود خفية تورث الإحباط ، وتسبب التقاعس .

صحيح أن الشعور بذنب المسلمين له ما يبرره في واقعهم الراهن من تخلف وتمزق ورياء ونفاق إلا أن ما أحذر منه أن يتحول هذا الشعور إلى عقدة نقص تنغص الحياة ، وتحجب رؤية المستقبل . .

صحيح أن تنغيص الحياة ليكتشف الإنسان أخطاءه وسوء تصرفه ، شريطة ألا يتحول إلى شعور بالندم يحرق الأعصاب ، ويغلق الطريق ، ويقفل باب الاجتهاد : الفكري والحركي ، والفردي والجماعي ، والمحلي والإسلامي . .

ومراجعة الأساس الثامن تكشف عن مطالبة بدراسة نفسية المسلمين ، ومعرفة أحوالهم الثقافية والمجتمعية والدينية والنفسية والاقتصادية بحيث

تأتي الدعوة ومقاومة الغزو لتملأ فراغاً موجوداً ، ولتسد نقصاً ملموساً ، ولتعالج عيباً ماثلا .

أما التعميم والإطلاق والتشهير والتنديد والأغلاظ والإكراه فربما تؤثر في قطاع إيجاباً ، وربما تؤثر في آخر سلباً . ربما تكسبنا أنصاراً ، وتفقدنا آخرين . . تضم إلى صفوفنا دعاة ، وتخصم من حسابنا قواعد وجماهير . .

من هنا لا بد أن تتوافق الطريقة والأسلوب مع الفئة التي تتخاطب معها والقطاع الذي نقصده :

فالمثقفون المسلمون غير الأميين ، والريفيون غير الحضريين ، والمسلمون في الجزيرة العربية غيرهم في جنوب شرقي آسيا ، والذين تفاعلوا مع الثقافة الغربية غير النائين عنها ، والصغار غير الكبار ، والرجال غير النساء . . الخ عشرات التقسيمات والمجموعات تحتاج رعاية وجهداً ، واهتماماً ومتابعة. وبذلك تختلف طريقة الدعوة والمقاومة ، ومستواها ومحتواها ، وأساليبها وخطواتها من جماعة لأخرى ، ومن مستوى لآخر . .

صحيح أن الأهداف واحدة ، والخطوط العريضة واحدة ، إلا أن الاختلاف في طريقة التناول والعرض ، في أسلوب الاقتراب والتأثير كل ذلك في إطار من قول الحق لإشراف الخلق « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » (١) فكيف نجمع بين روح الإسلام ، وفنية المقاومة ؟ هذا هو السؤال الكبير الذي حاول الأساس التاسع الإجابة عنه بدون خوف أو حرج ، أو حساسية أو تراجع . .

ونتقل الآن إلى الأساس الأخير من أسس مقاومة الغزو الفكري .

عاشراً : الدفاع والتبليغ :

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٥٩

عاشراً ـ الدفاع والتبليغ :

لعله قد اتضح أن الدعوة والمقاومة ليست رد فعل فقط بل فعل أيضاً . ليست مجرد صد ، بل هجوم أيضاً .

فمن بين الأسس الراسخة التي يجب اعتمادها في مقاومة الغزو الفكري أن المقاومة خير وسيلة للدفاع ، والوقاية خير من العلاج ، والتحصين المبكر أفضل من انتظار العدوى . لهذا فمن الطبيعي جداً أن تتحرك المقاومة في خطوط متواصلة ، ودفاعات منتظمة بحيث لا تنتظر في قواعدها وخنادقها ، بل تتقدم في نقاط أمامية ومواقع تبادلية .

فبدلا من انتظار وقوع الغزو ، علينا استخدام كل الوسائل التي تحول دون وقوعه . .

وبدلا من الاقتصار على الاستجابة ، علينا الانتقال إلى مواقع الأحداث . ومثل هذا الانتقال يتيح لنا : متابعة ذكية ، ورصداً نشطاً ، واكتشافاً مبكراً ، ومعرفة طازجة . وبذلك نتابع الأحداث فور وقوعها ، ونتعقب التغيرات حال قيامها مما يجعلنا باستمرار على بينة بما يدور على المسرح وخلف ستائره ، بما يجري عندنا وحولنا . .

ومثل هذه المتابعة لا تقتصر على مجرد رصد الأحداث ، بل المشاركة أيضاً في صنعها . .

فالقوة اليوم ليست في انتظار ماذا سيحل بنا من هجوم ، أو يطرأ علينا من غزو ، بل في تداركه قبل وقوعه ، واكتشافه قبل بدايته . .

لهذا كانت الدعوة الإسلامية دفاعاً وتبليغاً . .

وخاصية كهذه تقتضي الاكتشاف المبكر ، والإنذار الواضح ، واتخاذ الخطوات الملائمة للصد والردع ، والدفاع والهجوم ، بل ومنع الهجوم قبل وقوعه . .

وإذا كان الغزو الفكري بمثابة سرطان يستهدف السيطرة على عقل الأمة وجهازها العصبي ، فالمؤكد أن أفضل علاج هو اكتشافه مبكراً وتشخيصه سليماً ، مع تحديد موضعه ، ومعرفة موقعه . .

أما الانتظار حتى يستفحل المرض ، وتنتشر سمومه ، وتتسع خلاياه فذلك عين الخرق ، وغاية الاستخفاف التي سبق التحذير منها في الأساس السادس عند تأكيد ضرورة التحجيم الطبيعي للظواهر ، وإعطاء كل منها وزنه الحقيقي دونما زيادة أو نقصان ، أو إفراط أو تفريط . .

ولقد سبقت إشارة في الأساس الثامن إلى ضرورة دراسة نفسية المهاجمين والمقاومين ، وهي وثيقة الصلة بما نثيره الآن من استطلاع وإنذار مبكر . .

فكلما كانت لدينا دراسات نفسية واجتماعية شاملة عن خطط الهجوم استطعنا إلحاق الفشل بها مبكراً ، بل استطعنا إخمادها قبل أن تبدأ ، أو فور أن تبدأ . .

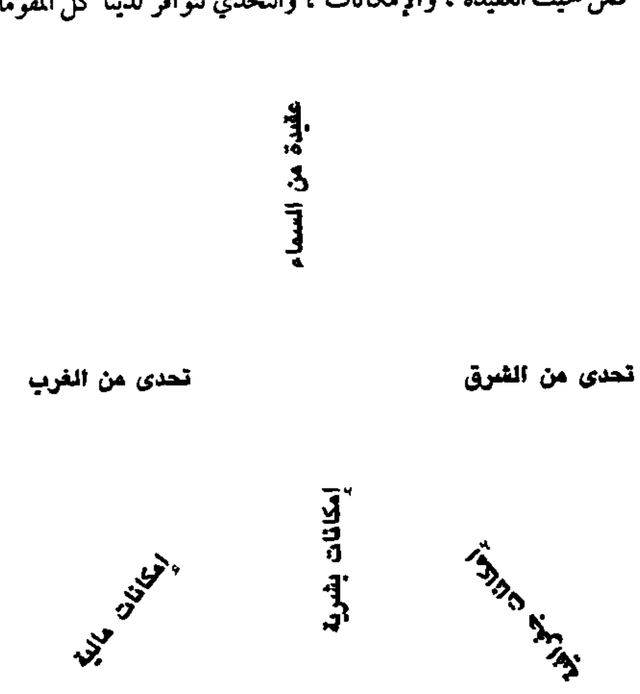
فالدراسة العميقة والإحاطة الشاملة توفر لنا قدرة على التسلل والاستطلاع . فبدلا من أن ننتظر هجومهم ، نبادر بالهجوم . وبدلا من أن ننتظر عبور قواتهم ، نعبر إليهم . فالدراسة والبحث بمثابة جسور ومعابر نصل بها إلى قلب العدو فنستطلع نواياه ، ونقرأ أفكاره . والعلم والتجريب بمثابة مفارز متقدمة ، ورؤوس حراب تطلعنا على أسرار العدو وتفاصيل خططه . .

وبذلك كله ــ وبغيره ــ نتجاوز مواقع أقدامنا إلى خطوط العدو ، ونمتد بفكرنا من الماضي إلى الحاضر ، ونتشوف من الحاضر ملامح المستقبل .

بمثل هذه الاستراتيجية المتكاملة : الصد والهجوم ، والاستطلاع والدفاع ، والتبكير والإنذار ، والنشاط والردع نستطيع أن نبادر ونواجه ، وننطلق ونتجاوز ، ونرد ونتحدى . .

والحمد لله ، فنحن لدينا كل مقومات هذه الاستراتيجية من عقيدة راسخة ، ورسالة لا تبلى ، وكتاب محفوظ ، وسنة لا تتبدل ، وموارد ضخمة ، وقوى بشرية هائلة ، وامتداد جغرافي شاسع ، ومواقع استراتيجية هامة ، وتاريخ حضاري عريق ، وأصالة خبرة لا تصدأ ، وتحد لا ينقطع ، ومواجهة لا تهدأ . .

فمن حيث العقيدة ، والإمكانات ، والتحدي تتوافر لدينا كل المقومات :



وكل ما هو مطلوب منا حشد الإمكانات ، ودقة التنظيم ، والتعبئة تجاه أهدافنا . وبذلك تظهر القيمة الحقيقية لما يربو على ٨٠٠ مليون مسلم أي حوالي خمس سكان العالم . .

ومثل هذه التعبئة لا يمكن نقلها من ملفات الأجانب ، أو استنساخها من دفتر الماضي ، بل لا بد لها من صيغة تناسب تحديات الحاضر ، وتوقعات المستقبل ، مستهدية بسنة الله « ولن تجد لسنة الله تبديلا » (١) فعلى ضوء القرآن والسنة توضع استراتيجية إعلامية تحاول الوصول لأهدافنا السامية ، وقيمنا الراسخة . .

وقد يعيب البعض على هذه الخطة عدم عصريتها ، إلا أنه فاتهم أن القرآن والسنة صالحان لكل عصر ، والعيب فينا عندما نخطيء التفسير وننحرف في التطبيق .

كما قد يعيب البعض على إعلام دول إسلامية ويعتبره دليلا على ضعف الإعلام الإسلامي ، إلا أنه فاتهم أن التطبيق غير المبدأ ، والتنفيذ غير الرسالة وما قد يوجد من خطأ ، أو يكتشف من قصور فمرجعه إلى التطبيق والتنفيذ ، ليس له صلة بالمبدأ أو الرسالة . فالرسالة مستندة إلى القرآن الكريم الذي « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (٢) .

---

(١) سورة الأحزاب : آية ٦٢ (٢) سورة فصلت : آية ٤٢

الفصـــل الرابع

وسائل مقاومة الغزو الفكرى

كانت الأسس العشرة السابقة ركائز لمقاومة الغزو الفكري ناقشت الشمول لكافة القطاعات والفئات ، والتنسيق بين الدول والهيئات ، والاستمرار في جميع المراحل ، والاعتماد على الذات ، والتحجيم الطبيعي للظواهر ، والصدق والموضوعية ، وتعدد الوسائل ، ودراسة نفسية المهاجمين والمدافعين ، والتبسيط والمناسبة ، وأخيراً الدفاع والتبليغ .

وجميعها أسس حاولت التركيز على التفاعل بينها ، باعتبار أن الواحد منها لا يستقيم بغيره . .

ومن المؤكد أن هناك أسساً أخرى (١) تحتاج بحثاً وتنقيباً لهذا أكدت طوال الفصل الثالث أن استراتيجية المقاومة وخطة التصدي . لا تحتاج فرداً واحداً ، بل فريقاً متكاملا..ولا تحتاج فئة متخصصين ، بل فئات مترابطة..ولا تحتاج صوتاً عالياً ، بل عملا علمياً دؤوباً..لا تحتاج وسيلة واحدة ، بل وسائل عدة . .

وقضيةالوسائل محورالفصل الرابع ، كماسيتضح إنشاءالله في الصفحات التالية.

ناقش الفصل الأول تاريخ الغزو ، وحلل الفصل الثاني أهداف الغزووسائله ثم عالج الفصل الثالث أسس مقاومة الغزو ، والآن نناقش أهم الوسائل التي تضطلع –أو ينبغي أن تضطلع– بمهمة مقاومة الغزو ، والرد على دعاواه .

وبداءة هذه الوسائل موجودة في جميع المجتمعات ، ومؤثرة في جميع الفئات . . فمن حيث الوجود موجودة . . ومن حيث التأثير مؤثرة . .

لكن السؤال الأساسي :

كيف نجعل وجودها إسلامياً ؟ وكيف نجعل تأثيرها في اتجاه الإسلام ؟

كيف نجعل المستوى والمحتوى ، والشكل والمضمون ، والمبنى والفحوى لخدمة الإسلام والمسلمين . .

---

(١) راجع التفاصيل : سيدقطب ٠ طريق الدعوة فى ظلال القرآن ص٧٩–١٠٢

والوسيلة في حد ذاتها محايدة ، فمن الممكن أن تكون أداة تسلية أو توعية ، تسرية أو تلهية ، جد أو هزل ، صدق أو كذب ، نعمة أو نقمة . .

إذن المهم ليس الوسيلة في حد ذاتها ، بل توجيهها . . وليس المهم وجودها ، بل إدارتها . .

وبطبيعة الحال ، ليس المقصود بذلك « أن نهمل الوسائل أو نسقطها من الحساب » .

فالوسائل هي أداتنا لتحقيق ، ما نؤمن به من أهداف وينبغي العناية الكاملة بها ، والتدقيق في بحثها واختيارها ، إذ الوسيلة الفاسدة تضيع الهدف الصالح وتحيد عن الطريق » (١) .

إذن الهدف من هذا الفصل ليس إستعراض وسائل جديدة ، أو إقتراح وسائل لم يسبق إستخدامها ، بل عرض الحالية ، وتحليل القائمة بأسلوب يضمن :

تكامل أدوارها ، وتخاصب رسالاتها ، وتواصل أصحابها ، وتذويب ما بينهم من صراعات ، وإزالة ما ينجم من خلافات . .

وبذلك — وبغيره — تستثمر الأدوات الحالية الاستثمار الأمثل ، وتوجه الوسائل الحالية التوجيه الأفضل لتصبح :

قنوات إعلام للإسلام ، وبالإسلام ، ولمصلحة الإسلام . .

وأدوات دفاع عن الإسلام ، ورد على خصومه ، وإقناع لهم . .

ووسائل درء الشبهات الغزو ، ومحو آثاره ، وإزالة بقعه . .

---

(١) محمد قطب · منهج التربيــة الاسلامية · دار الشروق · بيروت الطبعة الثانية ص ١٢

ومؤسسات تأصيل قيم إسلامية ، وزرع لبذورها ، ورعاية لثمارها . .

وبناء على العشر الأسس في الفصل السابق ، ينبغي لوسائل المقاومة :

أن لا تخدم قطاعاً واحداً بل جميع القطاعات . . ولا تركز على فئة واحدة بل جميع الفئات . . ولا تنصب على مرحلة عمرية واحدة بل جميع المراحل . . ولا توجه لدولة بعينها بل لجميع الدول الإسلامية . . ولا تستخدم وسيلة واحدة بل جملة وسائل . . ولا تتحرك على مستوى واحد بل عدة مستويات . . ولا تتصدى لغزوة واحدة بل جميع الغزوات . . ولا تنتصر لمبدأ إسلامي واحد بل لجميع المبادىء . . ولا تتراجع في معركة واحدة بل تتقدم بجميع المعارك . .

لهذا كله ــ ولغيره ــ فوسائل مقاومة الغزو يجب أن تشمل المباشرة وغير المباشرة ، المدرسية واللامدرسية ، الجماعية والفردية ، الداخلية والخارجية ، البشرية والمادية ، التقليدية والمستحدثة ، الدفاعية والهجومية . . وبذلك لا نترك وسيلة من غير استثمار ، ولا أداة بغير توجيه . .

وبغير هذا الاستثمار والتوجيه يصبح ميدان المعركة موزعاً بيننا وبين الغزاة ، وربما يسيطرون على القطاع الهام والنشط ، والفعال والمؤثر . .

فما معنى أن تسيطر الدولة الإسلامية على مدارسها ، ثم تنسف أجهزة الإعلام ما بنته المدرسة ؟

ما معنى أن تجتهد المساجد في أداء رسالتها ، بينما النوادي والتجمعات تسير في اتجاهات عكسية أو معاكسة ؟

طبعاً ، ليس المقصود أن تكون هذه المؤسسات نسخة مكررة من « المسجد » تؤدي رسالته وتقوم بواجباته ، ثم تتوقف عند ذلك . بل المقصود أن تتشرب

روح الإسلام ، ورسالة المسجد وتُبنى على شريعة الإسلام ، وبما لا يتعارض مع تعاليمه . وبذلك تتواكب المؤسسات ، وتتكامل الأدوات ، وتتخاصب الأدوار دون تصادم أو مقارعة أو كف تعطيل .

ومن المؤكد أن الكف والتعطيل ليس من مصلحة المسلمين ، لهذا كان الغزو حريصاً على إيجاده ، ومصراً على استمراره ، دون هوادة أو توقف ، أو راحة أو تعطل :

فإذا استطاع مجتمع مسلم أن يحل صداماً حالياً ، فليصدر إليه آخر ينشغل به ، وينهمك فيه ! !

وكلما خفف مجتمع من آثار صدمات ، وقلل من نتائج كدمات ، تصدر إليه صراعات ، وتصعد فيه اختناقات .

وهكذا يظل العالم الإسلامي مشغولا مهموماً ، يعاني مشاكل جديدة قبل أن يفرغ من حل القديمة . . سلسلة متوالية ، و حلقات متصلة ، ممهد لها بليل ، ومخطط لها في ظلام لكي يظل كل قطر غارقاً في مشاكله ، مشغولا في همومه .

وإذا ما استطاع مجتمع أن يوجه وسائل تربيته وتثقيفه وجهة إسلامية صحيحة ، فليفاجأ بوسائل جديدة لم يعهدها من قبل ، ولم يعد لها حساباً . ولهذا عندما وردت كلمة « سلسلة » أو « حلقات » كان ذلك مقصوداً :

— فإذا نجحت المدارس — مثلا — في توجيه الأطفال والمراهقين ، فليجدوا أنفسهم في غمرة تيارات جديدة ، ووسائل مستحدثة لم يعهدوها من قبل ، ولم تعمل لها المدارس حساباً . من هنا قد ينصرف ، أو يتسرب ، أو ينهمك بعض التلاميذ في أنشطة تهدر الوقت ، وتلتهم الجهد ، وتصرف عن الاستذكار .

— وإذا نجح المنزل — مثلا — في توجيه أبنائه وجهة إسلامية ، فلتصدر له

وسائل تقتحم داخله وتحدث فيه تغييراً بطيئاً أو سريعاً ، أومباشراً أو غير مباشر . ومثل هذا الاقتحام ـ بالمجلة ، والتلفاز ، والفيديو ، والعادات ـ ليس صدفة ، أو عفوية ، بل جهد مخطط ، وعمل مرسوم . .

لهذا قد يبدو من المستحيل إحكام السيطرة على جميع وسائل الاتصال والإعلام . ويصبح البديل الأمثل هو « التربية الإسلامية » و « التنشئة الإسلامية » التي يمكن بها إعدادالأجيال إعداداً صحياً وصحيحاً ، وسليماً ومستقيماً ، وراسخاً وعميقاً . وبهذه التربية نضمن حصانة للأجيال يعصمها من الانحراف ، ويمنعها من الانزلاق .

إذن التربية هي طريق إعداد أجيال :

ملتزمة لا شاردة ، ومنضبطة لا مارقة ، وسوية لا معوجة ، ومتزنة لا مهزوزة ، وبهذا نضمن سلامة الخط ، واستمرار المسيرة ، وتواصل الأجيال . وأما الرقابة التدخل ، والتحكم والتوجيه فغالباً ماتكون حلولا مبتورة : ضعيفة التأثير ، ومحدودة القيمة .

تأسيساً على ذلك سنبدأ في مناقشة عشر وسائل متكاملة لمقاومة الغزو الفكري نبدأها بالجوهر والأساس :

أولاً : التربية والمنزل

لا جدال في أن المنزل أول مؤسسات التطبيع الاجتماعي وتكوين الشخصية : أي مجموعة السمات الثابتة نسبياً ، التي يسلك بها الفرد في المواقف المختلفة ، ويمكن منها توقع استجاباته .

وهذه الشخصية محصلة تفاعل وراثة مع بيئة ، وفطرة مع اكتساب (١) . وتؤكد كثير من البحوث النفسية والتربوية أن البيئة تبلور إمكانات الوراثة ، وتعطيها معناها الحقيقي ، وشكلها النهائي ، ومحتواها الفعلي .

إذن الإنسان يولد على الفطرة ، وبحسب ما يتفاعل معه من بيئة ، ويحيط به من محيط يبدأ في اكتساب الاسم والصفة ، والدين والخلق ، واللغة والمعنى ، والشخصية والمعالم ، والفعل والانفعال ، والمشاعر والوجدان ، والولاء والارتباط ، والقيم والمثل ، والصدق والكذب ، والاستقامة والانحراف ، والاعتدال والاعتلال .الخ .كل ذلك بدرجات مختلفة ، ونسب متفاوتة .

فالأصل إذن أن الإنسان يولد على الفطرة السمحاء « فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم » (٢) . ولهذا ورد في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه «كل إنسان تلده أمه على الفطرة ، وأبواه ، بعد يهودانه وينصرانه ويمجسانه . فإن كانا مسلمين فمسلم . . » وقد ورد هذا الحديث برواية أخرى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » (١) .

إذن الذي يوجه الفطرة وينميها الوسائط التربوية المختلفة وفي مقدمتها المنزل .

من هنا فتأثيره أعمق من غيره ، مهما طال الزمن ، وتغيرت الأحوال . ولا يعني ذلك أنه لا يمحى ، بل المقصود أنه نافذ العمق ، قوي النفوذ .

---

(١) راجع التفاصيل : عبد الفتاح جلال . من الأصول التربوية في الإسلام . المركز الدولى للتعليم الوظيفى للكبار فى العالم العربى ، سرس الليان . جمهورية مصر العربية ١٩٧٧ ص ٥٠ ـ ٥٢

(٢) سورة الروم : آية ٣٠

(١) صحيح مسلم . كتاب القدر .

من هنا يمكن القول بأن :

ما يحكم المنزل ، يشكل الأمة . .

وما يوجهه ، يوجه المستقبل .

ومن يسيطر على تقاليده ، يسيطر على مقاليد المجتمع .

صحيح قد تتلاشى آثاره ، بل تتقلب ، إلا أنها حالات خاصة وظروف استثنائية فالقاعدة أنه : أول الجهات ، وأعمق المؤسسات ، وأنشط الوسائط . وثم بحوث تؤكد ذلك بالدليل القاطع ، والإحصاء الدقيق ، والمقارنة البينة .

والتربية الإسلامية – النشطة الواعية ، العميقة المتأصلة – ينبغي أن تستمر :

بطول الحياة ، في جميع مراحل العمر .

وبعرض الحياة ، في جميع نظم المجتمع .

وبعمق الحياة ، في جميع جوانب الشخصية . .

وبذلك نعد أجيالا :

تلتزم بالكتاب والسنة دستوراً وشرعة ، وتقتدي بالسلف الصالح ولاء وانتماء ، وتخدم مجتمعها إنتاجاً وجهداً ، وتحافظ على مواردها صيانة وحماية ، وتحمي أرضها عرقاً ودماً ، وتجدد مستقبلها علماً وفناً ، وتصون قيمها أخلاقاً وعفة .

والمنزل الإسلامي يمكنه القيام بأدوار غاية في الأهمية شريطة :

١– أن يفهم كل من فيه الإسلام فهماً قائماً على التعمق ، خالياً من البدع ، مدركاً للأهداف والمرامي .

٢– أن يكون كل فرد فيه قدوة للطفل في الكلمة والسلوك، والمعاملة والعبادة ، والمظهر والجوهر ، والسر والعلن .

٣- أن يشيع فيه جو الروحانية الصافية التي يبدو فيها الارتباط بالله في أوضح صوره وأقوى مظاهره ، كالحرص على الصلاة جماعة ، والمشاركة في توزيع الزكاة ، واحترام القيم الدينية ، والتمسك بالفضيلة والأمانة ، والصدق والإخلاص (١) .

٤- أن تقدم فيه المعلومة الدينية بالأسلوب المناسب لإدراك الأطفال ، الملائم لمستوى نموهم . فتفسير القرآن الكريم ، وشرح سيرة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، والحديث عن صحابته والتابعين ، وتناول قصص الأئمة والقادة ينبغي أن يتناسب مع إدراك الأطفال ويثير اهتمامهم ، ويحرك مشاعرهم .

٥- أن تكون الدعوة فيه قائمة على الموعظة الحسنة ، والكلمة الطيبة ، والقدوة الصالحة . من هنا قال رب العزة : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة (٢) .

٦- أن تكون الأخلاق فيه إسلامية أصيلة دون تقليد أو ادعاء ، أو مظهرية أو تمثيل « فالتقليد في أشكال العبارات يستطيعه من لم يشرب روحها أو يرتفع لمستواها . فربما قدر الطفل على محاكاة أفعال الصلاة وترديد كلماتها » .

وربما تمكن الممثل من إظهار الخضوع وتصنع أهم المناسك . . لكن هذا وذاك لا يغنيان شيئاً عن سلامة اليقين ، ونبالة المقصد ومعيارهما الخلقي العالي » (٣) . .

---

(١) راجع التفاصيل : محمد صلاح الدين مجاور · تدريس التربية الإسلامية · أسسه وتطبيقاته دار القلم · الكويت ١٣٩٦ ص ٢٩- ٣٤ .

(٢) سورة النحل · آية ١٢٥

(٣) محمد الغزالي · خلق المسلم: مرجع سابق ص ١١

بهذا كله – وبغيره – يمكن للبيت القيام بدوره التربوي الصحي والصحيح الناصح والواضح :

غرساً للقيم ، وتأصيلا للوعي ، وتربية للضمير ، وتنمية للأخلاق ، وتوجيهاً للسلوك ، وغرساً للتقوى ، وزيادة للإنتاج ، وحماية للموارد ، ومحافظة على الوقت ، وتقليلا للهدر ، وترشيداً للإنفاق ، وتجويدا للعمل ، وتجديداً للأدوات ، وإتقاناً للخدمة ، وتحملا للصعاب ، ومغالبة للتحديات ، وقهراً للمشاق ، وإنجازاً للخطط ، ومثابرة على الدرس ، واهتماماً بالتحصيل ، وشغفاً بالعلم ، وتقديراً للجد ، واحتراماً للثقافة ، وتمسكاً باللغة . وبذلك يصبح البيت الأساس المتين والركن الركين الذي تعتمد عليه سائر الوسائط ، وتبني عليه فعلها .

والمهم جداً للدور التربوي للمنزل أن يتم بتلقائية وبساطة ، وبهدوء ورفق ، وباحترام وتقدير ، وبحنان ودفء ، وبعاطفة وولاء مما يجعل الاكتساب والغرس ، والتدعيم والتعزيز بغير حاجة إلى قوة القانون ، وسلطة الدولة . .

هذه هي الثمرة إذا كان البيت يقظاً واعياً ، ومربياً مرشداً ، وموجهاً مقنعاً ، ومستقراً سوياً .

أما إذا كان البيت لاهياً منصرفاً ، مشغولا منشغلا ، وغافلا مهملا ، ومفككاً ممزقاً ، وضعيفاً واهياً ، وقاسياً وحشياً ، وعابساً متجهماً ، وبارداً خاوياً ، وجاهلا مقصراً ، وعابثاً محطماً ، فسيثمر ثمرة مرة ، ونبأتاً ضاراً :

فالمر والضرر هما النتيجة الطبيعية لبيت زاخر بالأثاث ، وعامر بالطعام ، ومقصر في رسالته الدينية والتربوية . .

فالبيت ليس هيكلا أو مبنى ، أو إنفاقاً أو طعاماً ، بل علاقات إنسانية .. وهذه العلاقات إن لم تقم على أسس صحية وصحيحة يفقد رسالته ويتحول إلى مكان إقامة ، ومائدة طعام . .

وهذه العلاقات إن لم تطبق الشريعة والعقيدة ، سراً وعلناً فإنها تصبح علاقات مصلحة ، وتفاعلات جماعة فرضت عليها الإقامة تحت سقف واحد . .

لهذا كله ، حرص الإسلام على الأسرة والمنزل ، والأبوة والبنوة، والأمومة والقربى ، والأخوة والزوجية ، لهذا قال المولى عز وجل : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن أشكر لي ولوالديك إلي المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا » (١) . . ويقول رب العزة في سورة الإسراء : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا (٢) .

وإذا كان هذا هو واجب الإبن نحو أبويه ، فواجبهما نحوه لا يقلّ بل يزيد . . ولهذا قال الصادق المصدق عليه الصلاة والسلام : « جعل الله الرحمة مائة جزء . وأنزل في الأرض جزءاً واحداً فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتّى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » (٣) . وقال أيضاً عليه السلام : « من لا يَرحم لا يُرحم » ، « ولا تنزع الرحمة إلا من شقي » .

وسئلت عائشة رضي الله عنها : ماكان رسول الله يفعل في بيته ؟ فقالت «كان يكون في مهنة أهله » (أي خدمتهم) فإذا حضرت الصلاة يتوضأ ويخرج إلى الصلاة » (٤) .

لله درك يا رسول الله . . يعمل في خدمة بيته وأهل بيته ، وإذا جاءت الصلاة يتوضأ ويخرج لها . كم منا اليوم يساعد أهل بيته ؟ وكم منا يسهم في أعمال منزلية تخفف عن أهله ، وتعطي أولاده النموذج والمثال ؟

---

(١) سورة لقمان : آية ١٤ ــ ١٥ (٢) سورة الإسراء : آية ٢٤
(٣) البخاري . (٤) مسلم .

وعن عائشة أيضاً رضي الله عنها : « ما كان أحداً أحسن خلقاً من رسول الله ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال : « لبيك » . كم منا اليوم يصرخ في وجه زوجه صباحاً ، ووجه أولاده مساء ؟ وكم منا يسيء معاملة والديه واخوته ؟ .

وإذا كان التأكيد في الصفحات السابقة على الرفق وطيب الخلق باعتبارهما السبيل الأساسي لتربية الوجدان وغرس القيم ، فهذا ما سبق أن دعانا إليه نبينا عليه الصلاة والسلام ، فعن عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله : « ان الله رفيق ، يحب الرفق ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ، وما لا يعطي على سواه .

إذن الحرارة والدفء، والرفق واللين ، والنصح والرشد ، والقدوة والمسلك ، والبر والعطف ، والإحسان والمعروف هم جوهر التربية الأسرية الإسلامية ضماناً لغرس عقيدة ، وتأصيل قيم ، وتربية شخصية . لهذا كان ابن خلدون محقاً كل الحق ، ومنصفاً كل الإنصاف في قوله : « من كان مرباه بالعسف والقهر سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعاه إلى الكسل ، وعمل على الكذب والخبث ، وعلمه المكر والخديعة ، وصارت له هذه العادة خلقاً . . » .

فالعسف والقهر قد يأتي بنتائج سريعة ، وانضباط شكلي ، وخوف من السلطة إلا أنه لا يربي شخصية للقيادة وتحمل المسئولية ، ولا يبني بشراً للتحدي والمواجهة . وهناك عشرات الدراسات في علم النفس الاجتماعي تؤكد هذا ، وعشرات الأمثلة من التاريخ تدل عليه .

ثانيــاً : المسجد والمدرسة

كما جمعنا التربية والمنزل تحت مظلة واحدة ، كذلك المسجد والمدرسة وبذلك نضمن جهداً مشتركاً ، وتياراً متداخلا ، وتأثيراً واحداً . .

وإذا كنا نحاول ضمان ذلك ، فالغزاة تعمدوا عكسه ! !

فمع أول سهم سدد إلينا شاع أن المسجد والمدرسة قوتان متنافرتان ينبغي جعلهما في موقف مقابلة وتضاد ، وحرب ومواجهة . ولقد ذخر الفصل الثاني(١) بأمثلة ونماذج توضح محاولات الاستعمار والتبشير لفك الارتباط ، وإحداث الاشتباك بين القوتين . .

لهذا قُسم التعليم إلى :

قديم ديني ، وحديث علماني وبذلت جهود جبارة من أجهزة الغــزو وصنائعهم ـ الرسميين وغير الرسميين ـ لكي يستقر في الوجدان الشعبي :

ـ أن الأول متجمد ، والثاني متجدد . .

ـ الأول ملتفت للوراء ، والثاني متطلع للمستقبل . .

ـ الأول يعد للوعظ والتدريس ، والثاني للوظائف العليا . .

ـ الأول للريفيين غالباً ، والثاني للحضريين عادة . .

ـ الأول مجاني ، والثاني بمصروفات . .

ـ الأول لأبناء الفقراء والفلاحين ، والثاني لأبناء الأغنياء والموظفين . .

ـ الأول في مباني متواضعة محدودة ، والثاني في مباني فخمة ضخمة . .

---

(١) راجع : الفصل الثانى ·

– الأول للبنين غالباً ، والثاني للجنسين منفصلين أو مختلطين . .

وإذا كان لهذه الازدواجيات قليل أو كثير من الحقيقة ، فسببه فك الاشتباك الذي حدث مع بداية التعليم الحديث . فلقد نشأ بإشراف الغربيين وبتوجيه منهم حاملا جرثومة العداء الأوروبي بين الدين والعلم . ثم زاد الطين بلة أن أجهزة الغزو تعمدت جعل تعليمنا الديني في موقف المستجدي لينصرف الناس عنه ، بينما التعليم الحديث في موقف القوة والسيطرة ليقبل الناس عليه .

ومبحثنا الآن ليس في أسباب قصور التعليم الأصلي ، وعدم مواكبته لعلوم ووظائف العصر ، بل المهم أن الفكر الأوروبي صدر إلينا ثنائيته المعروفة :

الصراع بين الكنيسة والمدرسة،وبين الدين والعلم ، وبين النقل والعقل ، مما بدا معه أن القوتين لا يمكن الجمع بينهما ولذلك فعلى كل ناشئ ومتعلم أن يحدد اتجاهه منذ البداية :

إلى تعليم أصلي ، أو تعليم حديث . .

إلى كتاب ومسجد ، أو مدرسة أو جامعة . .

وهذه الثنائية التي صدرت إلينا ، وأسهمنا نحن – بوعي أو لا وعي – في استمرارها ما زالت مؤثرة على حياتنا المعاصرة بدرجة أو أخرى ، بلون أو آخر .

والسؤال الأساسي الآن :

كيف نعيد الارتباط بين المسجد والمدرسة ؟

كيف نبني الجسور بين التعليم الديني الحديث ؟

كيف نتلاشى آثار الماضي وبصمات التغريب ؟

كيف نحقق التوازن بين المثقفين شرعياً والمثقفين مدنياً ؟

بطبيعة الحال ، هذه الأسئلة واردة في جميع المجتمعات الإسلامية بدرجات مختلفة ، ونبرات متفاوتة(١) : فقد يكون الصراع حاداً في بعضها ، ناشئاً في أخرى ، معدوماً في ثالثة . وحتّى إذا لم يكن موجوداً اليوم ، فربما ينشأ غداً .

لهذا كله — ولغيره — لا بد أن تكون إجاباتنا حاسمة عن هذه الأسئلة ، فنكرانها لا يفيد ، والهروب منها لا يجدي .

وبطبيعة الحال ، فجميع الإجابات الأجنبية — شرقية وغربية — مرفوضة ومصادر عليها منذ البداية . لأن الدول الشيوعية حذفت الدين من حياتها ، ومعظم الدول الغربية منعت تدريسه في مدارسها الحكومية . .

إذن لا بد أن تكون إجاباتنا حاسمة ومتميزة ، واضحة وقاطعة ، وبدون ذلك يستمر الخلط الفكري ، والتشتت الوجداني .

---

(١) راجع التفاصيل :
ـ أبو الحسن الندوى · نحـــو التربية الإسلامية الحرة فى الحكومات والبلاد الإسلامية مرجع سابق ص·ص ٥٧ ـ ٨٠
ـ محمد سعيد رمضان البوطى ،تجربة التربية الاسلامية فى ميــزان البحث ، المكتبة الأموية ، دمشق ، ١٣٨٠ ، ص·ص ٢٢ ـ ٢٥ و ١١١ـ ١٢٧
ـ أنور الجندى ، التربية وبنـــاء الأجيال فى ضوء الإسلام · مرجــع سابق ص·ص ١٥٣ ـ ٢١٨
ـ محمود السيد سلطان · مفاهيم تربوية فى الإسلام · مؤسسة عـــلى جراح الصباح · الكويت ١٩٧٨ · ص·ص ٤١ ـ ٤٨ ·
ـ محمود السيد سلطان · مفاهيم تربوية فى الإسلام · مؤسســـــة الوحدة · الـــكويت ١٩٧٧ ص·ص ١٠٣ ـ ١١٩
ـ عبد الفتاح عشماوى · التعليم فى بلاد المسلمين وكيف يـــكون إسلاميا · المؤتمر العالمى لتوجيـــه الدعوة وإعداد الدعاة · مرجع سابق المجلد الثالث ·

وليس من مهمة هذه الدراسة تحليل المدرسة الإسلامية أهدافاً وفكراً ، محتوى ومستوى ، منهجاً وطريقة ، تدريساً ونشاطاً ، معلماً وإدارة ، تمويلا ومراقبة ، توجيهاً وتقويماً ، لكن المهم لبحثنا توضيح بعض معالم صلة المدرسة بالمسجد على النحو التالي :

١- من المستحيل اليوم المطالبة بتصفية التعليم الحديث أو إلغاء التعليم الديني ، ومن ثم فالبديل الوحيد أن يتطور الاثنان معاً مستندين إلى الدين فكراً وأهدافاً ، توجيهاً واتجاهاً . وفي نفس الوقت يتطور – نظام التعليم الديني طريقة وإدارة ، ومناهج ومحتوى ، ويصف ما به من تكرار وترديد ، من اعتماد على الذاكرة والتسميع ، ويطعم بجرعات أكبر من المواد الحديثة بحيث لا يقل خريجه عن بقية زملائه بل يمتاز عليهم بتعمقه في العلوم الشرعية .

٢- أن ترتبط دراسة المواد الدينية بتفسير وعلاج مشكلات الحياة الراهنة ، بحيث لا تهرب من حاضر إلى ماضي ، ومن تحديات راهنة إلى مشكلات تاريخية وكلما شعر الطالب أن دراسته الدينية تفسر ظواهر مجتمعه وتناقش بدعه وخرافاته ، وتحلل سلبياته ، وتوجهه لإيجابياته كلما زاد ارتباطاً بها وتعلقاً بمناهجها .

وبطبيعة الحال ، قد لا تسمح بعض سلطات بذلك ، مما يضطر إدارات المناهج إلى الغرق في التاريخ ، وتجاهل قضايا الحاضر .

٣- أن يتحول النشاط الديني في المدرسة إلى طاقة حية ،وشعلة متأججة ، وفكر خصبٍ ، وغرضٍ نشطٍ تستثمر فيه كل الإمكانات .

من هنا تأتي أهمية المعسكرات الإسلامية والمسرح الإسلامي ، والصحافة والإذاعة ، بالإضافة للندوة والمحاضرة . والمعسكرات الإسلامية ضرورة

أكثر من غيرها ، ففيها تمارس جميع الأنشطة الرياضية والاجتماعية والترويحية وفقاً للتوجيه الإسلامي .

ومن الخطأ الشائع أن يقتصر النشاط الديني على وعظ وخطابة ، أو تكون أنشطة هزيلة الإمكانات محدودة الموارد . وخطورة ذلك أن الشباب بدون إقناع وجذب ، قد ينصرف إلى أنشطة أخرى ينهمك فيها ويستغرق ، وفي النهاية نندب حظنا ، ونتحسر على شبابنا الذي استهلكت « كرة القدم » معظم وقته ! !

لهذا أقول قبل أن نندب أو نتحسر ، لا بد أن نغير وسائلنا بحيث يجد الشباب تحت مظلة النشاط الديني كل ما يستهدفه من رياضة وترويح ، وكل ما يفيده من نشاط وفكر . وبذلك كله نحمي شبابنا ونؤمن مستقبلنا .

وثمة تجارب ناجحة في دول إسلامية لفكرة المعسكرات ، ورغم ارتفاع تكاليفها إلا أنها من أجدى الوسائل في تشكيل شباب إسلامي نشط متحمس رياضي اجتماعي ، لهذا « ينبغي أن تخرج التربية الدينية المدرسية من دائرة المعرفة النظرية إلى النشاط والممارسة ، والحركة والتنفيذ » (١) .

٤- أن تلجأ مناهج التربية الدينية إلى الحوار الهادئ والمناقشة الهادفة والإقناع المنطقي بخاصة أنها تتعامل مع مراهقين يتسمون بالقلق ، والرغبة في المعرفة ، وتنتابهم أحياناً حالات شك وأوقات ضياع لا منقذ منها غير الحوار الهادئ والإقناع المنطقي .

أما إيصاد الباب ، وإغلاق الحوار ، والانغلاق في كتب فلن يجدي مع القاعدة العريضة من الشباب . .

---

(١) محمد صلاح الدين مجاور . تدريس التربية الإسلامية . مرجع سابق ص ٥٣

٥- أن تحترم الإدارات التعليمية مناهج الدين ، ومواقيت الصلاة ، وساعات دراسته ، وتعطيه من الاهتمام والرعاية ما تعطية لدروس الرياضيات واللغة الإنجليزية ! ! وفي كثير من المجتمعات الإسلامية نجد للتربية الدينية عدداً محدوداً من الحصص ، متأخراً في الوقت ليس له نصيب في نجاح أو رسوب . .

٦- أن تتوثق الصلة بين أهداف جميع المواد وأهداف المواد الشرعية ولا يقتصر ذلك على أهداف ومناهج ، بل يمتد إلى المعلمين أنفسهم ، فكلما شعر الطالب أن معلميه فريق متكامل ، أدرك وحدة المعرفة . وعكس ذلك نجده أحياناً في بعض مدارسنا :

فمدرس الفيزياء أو الجغرافيا يدرس مادته بدون توضيح صلتها بالفكر الديني .

ومدرس المواد الشرعية يدرس مادته بدون توضيح صلتها بسائر المواد .

وقد ينجم عن ذلك تعارض أو تضارب يؤدي إلى صدام مصطنع بين العلم والدين ، وإلى انفصال شبكي يحجب الظاهرة العلمية عن بعض الطلاب ، والحقيقة الدينية عن بعضهم الآخر . ومثل هذا التمزق لا يرضي الدين ، ولا يخدم العلم .

٧- ضرورة إعداد معلم التربية الدينية بأساليب جديدة تركز على دراسة نفسية طلابه ، وفهم مشاكلهم ، والمشاركة في إقناعهم ، والرد على أسئلتهم .

وليس من العيب أن نعترف بأن إعدادنا لمعلم المواد الشرعية بحاجة إلى إعادة نظر جديدة وجادة .

وقبل قضية الإعداد تأتي قضية الانتقاء :

فهل كل مدرس للمواد الشرعية مهيأ لأداء رسالته ؟

وهل تتوافر فيه الصفات الشخصية والمهنية والعلمية للقيام بواجباته ؟

هل دخل كليته بناء على رغبته واختياره ؟

وهل التحق بالمهنة مقبلا عليها ، راضياً عنها ؟

وهل استمراره في المهنة يزيده رضى أم سخطاً ؟

ومن هنا في بعض الحالات قد تجد مدرساً للتربية الرياضية أو الرياضيات أصلح للدعوة الدينية ، وأنشط فيها ، وأكفأ لها من بعض مدرسي المواد الدينية ، فالقضية في الأساس شخصية واقتناع ، ومهارة وقدوة ، وقناعة واقناع ، وحساسية وذكاء .

لعل سبعة العناصر السابقة — وغيرها — تساعدنا على توثيق عرض الارتباط بين المدرسة والمسجد بحيث يخطوان معاً نحو أهداف مشتركة وغايات واحدة . ولقد أقيمت عدة مؤتمرات متخصصة نظمتها رابطة العالم الإسلامي وغيرها من منظماتنا الإسلامية لمناقشة دور المسجد التربوي ، وكيف يمكن زيادة فعاليته وتطوير رسالته ليصبح قوة تربوية وثقافية ، وتعليمية ، وتهذيبية تحتل منزلتها الهامة في قلب وسائطنا التربوية ، وليكمل دور المدرسة بدون تعارض أو تضارب بينهما .

ثالثاً : القوانين والتشريعات

من غير عودة لروح الشرع وقوانينه ، يصبح المجتمع الإسلامي إسلامياً بالإسم ، ومحكوماً بالغرب . .

فعندما وجهت إلينا سهام الغزو توالت القوانين والدساتير الفرنسية والبلجيكية

والإنجليزية والإيطالية وتسربت إلى حياتنا توجه الاقتصاد ، وتحكم الإدارة ، وتنظم السياسة ، وتفرض العقوبات .

وفي كثير من الحالات لم يقتصر الأمر على استخدام قانون أجنبي ، بل كانت تدار المحاكم ، وتصدر الأحكام بلغة أجنبية ! ! والمضحك أن آلافاً دخلوا وخرجوا من هذه المحاكم ، وصدرت ضدهم أحكام وعقوبات ؛ وهم لا يفهمون حرفاً مما يدور حولهم ويجري في شؤونهم. .

لهذا فنحن في حاجة ماسة إلى إحياء قوانينا وتشريعاتنا الإسلامية وبعثها في حياتنا الراهنة لكي توجه الحاكم والمحكوم، والدستور والإدارة ، والإنتاج والخدمات .

وبذلك كله يصبح الإسلام في حياتنا الراهنة عقيدة وشريعة ، ودنيا ودينا ، وإيقاعاً وتنظيما ، وفكراً وأسلوباً ، وقانوناً ودستوراً .

وإذا كانت بعض دول تطبق الإسلام قانوناً وشريعة ، فإن بعضها الآخر يفكر ويجتهد ، وينقب ويبحث لانتهاج نفس الطريق . ومع ذلك فما زال العدد محدوداً ، والنخبة قليلة . ومن المهم أن تعد البحوث ، وتتوفر المصادر وينعقد العزم ، ويتفرغ المتخصصون لإعداد هذه القوانين والتشريعات .

وقد توجد مقاومة من قانونيين تخرجوا في جامعات أجنبية أو في جامعات بلادهم ، وتخبط ، أو قصد وتعمد . لهذا ينبغي أن تقدم الشروح كاملة ، والدراسات مستكملة لتوعية مزيد من القطاعات والهيئات بالشريعة الإسلامية ، وينبغي أن تحشد جميع وسائل الإعلام لبث الفكرة والدفاع عنها والتمهيد لها .

وفي حالات كثيرة قد يكون انصراف أفراد وهيئات عن تطبيق الشريعة نتيجة جهل ومعلومات خاطئة سبق لأجهزة الغزو وأنصارهم بثها والدعاية لها . لهذا ينبغي أن يكون واحداً من أبرز أهداف التربية الإسلامية « هو حل مشكلات

الفكر والاعتقاد ومشكلات العيش أمام النفس الإنسانية في ضوء ما جاء به الوحي الإلهي ، وماكشف عنه العلم الكوني . وكثيرون يتطاولون على الإسلام ومبادئه وأفكاره دون فهم عميق أو إدراك صحيح ، لهذاكان الاهتمام بتوضيح الإسلام في نفوس الشباب ، أمراً مهماً . ففي هذا التوضيح كشف عن جوهره الحقيقي ودفع ما يوجه إليه افتراء وظلما (١) .

رابعاً : الثقافة والإعلام

سبق القول أننا نعيش في عصر وسائل الإعلام ، فتأثيرها في كل بيت ، وعلى كل شيء فهي – بالوعي واللاوعي – تسهم في تشكيل كل فرد في جميع مجتمعاتنا أياًكان موقعها ، وأياًكانت درجة نموها .

وكلما ازداد التعقيد الاجتماعي ، كلما ازداد اتصال الإنسان بأجهزة الثقافة والإعلام يمتص ويستقي منها ، ويتأثر ويقتدي بها . .

لهذاكله – وبغيره – ينبغي الحرص الشديد في إدارة وتوجيه هذه الأجهزة لتصبح مع المسجد ، والبيت ، والمدرسة في خط واحد ، ونحو هدف مشترك .

وإذا أخذنا في الحسبان مجموعة الاعتبارات التالية أدركنا خطورة الموقف .

١– هناك ملايين كثيفة من المسلمين ما زالوا أميين مصدر معلوماتهم الرئيسي الاتصال بالمتعلمين ، وبالوسائط التقليدية ، مع الاستماع إلى المذياع أو مشاهده التلفاز . لهذا إذا لم توجه هذه الوسائل التوجيه السليم والفعال ، الصحي والصحيح يمكن أن تتلوث معلوماتهم ، وتتشوه أفكارهم .

٢– هناك ملايين كثيفة من النساء المسلمات لا إعلام لديهن سوى الأساليب

---

(١) محمد صلاح الدين مجاور · تدريس التربية الإسلامية · مرجع سابق · ص·ص ٤٨ ـ ٤٩

التقليدية من مخاطبة ومشافهة مع جاراتهن ويأتي بعد ذلك المذياع يلتقطن منه الأخبار ، ويستمعن للأغاني والتمثيليات . .

٣- هناك ملايين من الأطفال والشباب لم يلتحقوا بمدارس ، أو تسربوا منها بعد شهور وسنوات معدودة . ومن ثم فقدرتهم على متابعة القراءة محدودة متواضعة ، من ثم يلجأون إلى أدوات الاتصال التقليدية والمذياع والتلفاز ، والصحيفة لتتبع أخبار الكرة والرياضة ، ونجوم الفن والمجتمع .

إذن في بلادنا الإسلامية ما زالت هناك ملايين سحيقة غير قادرة على التحليل والنقد ، والفرز والانتقاء . ومن ثم تأتي سرعة استهوائهم ،وسهولة التأثيرعليهم . وثمة منظر يتكرر في ريفنا وحضرنا ، وصحرائنا وسواحلنا : تلميذ أو موظف يجلس وسط مجموعة أقاربه وجيرانه الأميين يقرأ لهم في صحيفته ، ويشرح لهم رموزها . .

٤- لهذا كله لا بد من إعادة النظر في وسيلة إعلامية هامة ما زالت السائدة ، في بلادنا :

الجلسة والمنتدى ، والسهرة والملتقى ، فمن خلالها يكتسب ملايين المسلمين معلوماتهم وأفكارهم . .

لهذا يبدو من الضروري أن تفكر أجهزة الثقافة والإعلام ، والدعوة والإرشاد في وسيلة تقترب بها من هذه التجمعات وتوجهها من الداخل .

ولعل الدعاة الإسلاميين والمثقفين ، وطلاب المدارس الثانوية والجامعات والعناصر القيادية في كل بيئة يستطيعون معاً تقديم أجل خدمة وأرقى رسالة لبيئاتهم وأهليهم :

فعن طريق تنظيم بسيط لدروس ومناقشات ، وحوار وتفاعلات ، يمكن تطعيم كثير من المستمعين والجالسين بأفكار حية ، ومقاومة بدع منتشرة ومكافحة آفات متفشية .

وبذلك يصبح السامر والملتقى في المنزل والحقل ، وعلى حافة النهر والبحر ، وتحت ظلال النخل والخيمة يصبح مركزاً ثقافياً نشطاً وفعالا ، ويقظاً وحياً حيث يختلط الحديث الديني بالاجتماعي ، والدرس بشؤون العيش ، والشؤون بالشجون ، والأمل بالألم ، والبسمة بالمعاناة ، والترويح بالتوجيه ، والخبرة بالجدة .

ومثل هذه المنتديات والجلسات موجودة في كل بقعة تضم الملايين يجتمعون فيها بدون فرض أو أمر ، وكل ما نطلبه لها مزيداً من التطوير والتوجيه لتصبح جزءاً من « التربية الوظيفية » لملايينا .

٥ــ عندما عرض الأساس الأول في الفصل السابق ، جاءت إشارة لضرورة توفير الموجهة المسلمة التي تستطيع التأثير والتوجيه في وسط ملايين النساء ، والآن تصبح هذة النقطة غاية في الأهمية لتضمن أن تصل رسالتنا للسيدات والفتيات . . ومن المؤسف والضار ، أن تترك ملايين النساء الأميات نهباً للبدع والخرافة ، والأعراف الخاطئة والأفكار المضللة . .

لهذا كله لا بد من اهتمام مكثف بوسائل جديدة لضمان الوصول إلى هذا القطاع العريض المؤثر ، والمحروم المعاني من نقص التوجيه ، وقلة العناية .

لهذه الاعتبارات الخمسة ــ وغيرها ــ لا بد أن ينتظم الإعلام الإسلامي التقليدي والجديد ، والشعبي والحكومي ، والثقافي والفني في استراتيجية إعلامية واضحة المعالم ، وبينة القسمات . وثمة دراسة سبقت الإشارة إليها توضح المآخذ التي تؤخذ على إعلامنا الحالي ، وتوضح واجب الإعلام الإسلامي وسمات العاملين فيه ، والنهج الجديد الذي ينبغي أن ينهجون عليه (١) كما أن المؤتمر

---

(١) محمد ابراهيم نصر ٠الإعلام وأثره فى نشر القيم الإسلاميـــــة وحمايتها ٠ مرجع سابق ٠

العالمي لتوجيه الدعوة والدعاة الذي عقد سنة ١٣٩٧ بالمدينة المنورة جعل محور لجنته الرابعة « وسائل الإعلام في العصر الحديث ودورها في توجيه الأفراد والجماعات والمجتمعات وآثارها المضادة للدعوة الإسلامية وما يجب اتخاذه بإزائها » وبه ستة بحوث قيمة تناولت الموضوع من زواياه المختلفة ويحسن الرجوع إليها للتعرف على تفاصيل الموضوع ، ومقترحات ستة من المفكرين بشأنها . وثم اهتمام الآن في بعض جامعاتنا — وبخاصة الإسلامية — بدراسة الإعلام الإسلامي سواء في مرحلة الدراسة الجامعية الأولى أم الدراسات العليا مما يتوقع معه مزيداً من المؤلفات والرسائل في هذا الميدان .

والمهم أن تتحول هذه الأفكار والدراسات إلى تطبيق عملي يوجه حياتنا ويضيئها بنفحات من التوجيه الإسلامي بحيث نصبح على بينة وهدى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » (١) .

خامساً : النوادي والنقابات

ثمة ملايين ينتظمون في نقابات مهنية وعمالية ، وغيرهم يجتمعون في نوادي وهيئات ، ولا بد للدعوة الإسلامية أن تشملها جميعاً بحيث لا تصبح فريسة لغازي أو منتهب .

ومثل هذه النقابات والاتحادات يزداد نفوذها وتأثيرها ، ويتعمق ضغطها على مؤسسات المجتمع ، ومن ثم لا بد أن تصل إليها الدعوة الإسلامية واضحة جلية ، بينة قوية .

وعندما كنا نناقش في النقطة الثالثة القوانين والتشريعات ، أشرنا إلى

---

(١) سورة الحجرات : آية ٦

ضرورة التوعية بالتشريع الإسلامي في جميع المنظمات كي تتضح صورته في الأذهان ، ويزداد عدد المطالبين به ، المؤيدين له . والنقابات والاتحادات يمكن أن تلعب دوراً هاماً في هذا الصدد . . فلو ضمنا وصول الدعوة إليها ، ووجود القيادة المسلمة الصالحة داخلها ، لضممنا إلى صفوف قضيتنا قوة مؤثرة تضغط وتطالب ، وتؤيد وتنادي ، وتلح وتصر .

لهذا ليس غريباً أن نجد الصراع محتدماً حول هذه النقابات والاتحادات : كل حزب وفريق ، وجناح وتنظيم يريد أن يسيطر عليها ويتخذ منها مواقع قيادية ، والوضع الطبيعي أن دعوة الله ورسالته ، وكتابه وسنته ينبغي أن تكون الحاكم والموجه لهذه المؤسسات .

ولا يمكن أن يتم ذلك من غير نشاط فعال ، وجهد ذكي ، وإخلاص دائب ، وحركة يقظة تجعل خدمة الدين رائدها ومبتغاها مهما تعرضت لعنت ، ووجهت بأذى ، وعوملت بصد ، وهذا قانون حتمي يقرره العليم الخبير « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » (١) .

فالوصول إلى قلب هذه المؤسسات ، وجهازها العصبي ، ليس أمراً سهلاميسوراً ، بل جهد ومعاناة ، وتخطيط وصبر ، ومجاهدة وكفاح .. فالقوى متعددة والأعداء كثر ، والهجوم متواصل ، والضربات متلاحقة ، ولا يمكن مواجهة هذا كله من غير تنظيم دقيق ، وجهد متكامل .

بطبيعة الحال ، ثمة مجتمعات إسلامية لا تعاني من هذه الصراعات والصرعات إلا أن معظمها تعتمل في داخله هذه التيارات ، وتتحرك في صفوفه تنظيمات بعضها مصدر من الخارج ، وموصي عليه من الداخل ! ! بعضها مشبوه ومكشوف ، وبعضها خفي ومتستر ، بعضها واضح العداء والبغض ،

---

(١) سورة البقرة : آية ٢١٧

وبعضها ذكي ومقنع . . لهذا كله فالمواجهة دائبة ومستمرة ، وضرورة وملحة.

وليس من الميسر الآن سرد تفاصيل عملية التأثير على النقابات والاتحادات ، والنوادي من داخلها ، بيد أننا نشير فقط إلى ضرورة النقطة وأهميتها ، وضرورة إعداد القادة والدعاة القادرين على تولي مناصبها القيادية والتأثير في قراراتها . ولهؤلاء الدعاة صفات وخصائص أفاضت في شرحها بعض مراجع تناولت خصائص الداعية ، وشروطه ، وواجباته ، وتحديات الدعوة ، ومن يتصدون ضدها ، ومن ينتصرون لها ، وطبيعة الجهاد في الإسلام والشهادة من أجله (١) .

سادساً : مؤسسات الإنتاج والخدمات

هذه الوسائل تتعرض لغزو مباشر وغير مباشر ، وواضح ومستتر ، واقتصادي وفني . . وتكفي فقط إشارة إلى أن كثيراً من مؤسسات الإنتاج والخدمات في عالمنا الإسلامي لا تنتج بنفسها : فجميع أدوات إنتاجها وصيانتها ، ومرافقها وإدارتها مستوردة من هذه الكتلة أو تلك ، ومن هذه المؤسسة الأجنبية أو تلك !!

ومثل هذه التبعية الفنية التقنية تجعلنا باستمرار في حاجة لهذه الدولة أو تلك سلماً وحرباً ، وإنتاجاً واستهلاكا . .

والشيء الملفت للنظر أن غالبية العالم الإسلامي يعتمد حتى في أبسط لوازم غذائه على دول أجنبية !! فالقمح والأرز – ما زالا مستوردين من كتلة شرقية أو غربية ، ناهيك عن الطائرة والمدفع ، والبارجة والغواصة . .

(٢) راجع التفاصيل : سـيد قطب . طريق الدعوة فى ظـلال القرآن . مرجع سابق .

وليس من العيب أن نكون متخلفين تقنياً ، لكن العيب أن نستمر متخلفين ونتوحد مع هذا التخلف ، ونظل في كهفه قابعين . .

وإذا كانت الطائرة والبارجة تحتاج خبرة وجهداً ، وتركيباً وتصنيعاً ، ودقة ودربة ، فما القول في القمح والأرز ؟

ألسنا بقادرين حتى الآن على زراعة الوديان والأراضي الخصبة الإسلامية في أفريقيا وآسيا ؟

وإذا كان هذا القطر فقيراً متخلفاً ، فلماذا لا تسانده الدول الغنية ؟

ولماذا لا تتحول كل استثماراتنا — أو جزء كبير منها — داخل بلادنا الإسلامية في مشاريع تنموية تخدم الطرفين ؟

لماذا تظل معظم دولنا الإسلامية — غنية وفقيرة — معتمدة على رغيف خبز أجنبي ؟

ماذا سيحدث غداً لو منعوا القمح ؟ هل نتضور جوعاً ، أم نستورد أنواعاً أخرى من الخبز ؟

عشرات الأسئلة الفنية سبق الإشارة إلى بعضها :

فليس المهم تقديم معونة عينية أو مادية لقطر فقير . بل المهم الاستثمار الاقتصادي في ربوعه ، وبين ملايينه : تشغيلا للطاقة العاطلة ، واستثماراً لأرض بكر ، وتثميراً لأرصدتنا ، وحماية لمستقبلنا .

واللطمة الأخيرة لعلنا تعلمنا منها :

فعندما اشتدت أزمة الرهائن الأمريكيين في طهران ، ومنعت طهران تصدير بترولها للولايات المتحدة ، جمدت الولايات بلايين الدولة الإيرانية المودعة في بنوكها الرسمية . .

ماذا سيحدث لنا غداً ؟ ماذا سيحدث لو جمدت أو صادرت الكتلة الغربية البلايين الإسلامية المودعة فيها ؟ وماذا سيحدث لو قطعت الكتلة الغربية أو الشرقية كل طلقة بندقية تصدرها لنا ؟ أقول طلقة بندقية ، لا صاروخ طائرة أو الطائرة ذاتها ! !

فمثل هذه التبعية الفنية ، الاقتصادية والاستراتيجية تضع العالم الإسلامي بكامله في مأزق حرج .

والآن في جميع الأوساط الغربية والشرقية تجري البحوث والدراسات على قدم وساق لاكتشاف موارد للطاقة البديلة ، ولاكتشاف وتخزين بلايين البراميل من النفط لكن ماذا سيحدث للعالم الإسلامي لو منعت عنه مصادر غذائه وكسائه ، وأدوات سلمه وحربه ؟

والمؤكد أن المستوى التقني الشرقي والغربي يستطيع إيجاد البديل والحلول قريبة وبعيدة المدى لتأمين موارده بالعلم والاكتشاف ، والتحليل والحيل القوة والنفوذ ، والسلطان والتقدم . لكن ماذا يكون موقفنا ونحن عالة على غيرنا في جميع شؤون حياتنا ؟ من ورق المصرف إلى ورق الصفيح ، من الآلة الكاتبة إلى الآلة المقاتلة ، من الخبز إلى المختبر ، من الكساء إلى الدواء ، من الترفيه إلى التسليح ما زلنا عالة على غيرنا : اليوم ولسنوات مقبلة .

مثل هذه التبعية أتاحت لأجهزة الغزو فرصاً للتدخل والتحكم والسيطرة والنفوذ ، للخنق والإفناء .

وليس لنا من طريق غير الاعتماد على الذات ، ودعم المؤسسات الوطنية وتنمية الاقتصاد الإسلامي وفقاً لشريعة الإسلام ومصالح المسلمين . وعلى هذا الأساس فتوقع المزيد من بنك التضامن الإسلامي ، وسائر المشاريع الاقتصادية وبذلك نطور أنفسنا ، ونحمي بلادنا ، ونؤمن مستقبلنا ، ونخدم

الإسلام والمسلمين . وبدلا من تسلل منظمات الغرب والشرق إلى جيبوتي ، وتشاد ، والصومال واليمن ، وماليزيا ، وجزر القمر . . الخ بدلا من ذلك يجد المسلم في كل مكان ، منظمة إسلامية – عالمية ومحلية – تستثمر مواردها ، وتنمي اقتصاده وتوظف أولاده ، وترفع من مستوى دخله ، وتقدم له الخدمة المخلصة الخالصة من غير رغبة في سيطرة ، أو شبهة بسط نفوذ .

والأمر الذي لا يقبل الشك ، أن جميع المنظمات الأجنبية – دولية أو فطرية لها مصالحها وأهدافها فهي لا تبني مشروعاً في « جزر المالدين » أو « موريتانيا » إلا مستهدفة ما يخدمها . ولقد آن الأوان لكي تحل محلها منظمات اقتصادية إسلامية . تستثمر وفقاً للشريعة ، وتخدم وفقاً لمصلحة المسلمين .

وختاماً لهذه النقطة :

لقد تغيرت أساليب الغزو من كنيسة إلى مصنع ، ومن منشور إلى مشروع وينبغي أيضاً لمواجهته من استخدام ذات السلاح لمصلحة الدين والمسلمين بدون ، استعلاء أو تظاهر . ولو رأى المسلم في قرية نائية ، أو صحراء مترامية أو ساحل مهجور مشروعاً إسلامياً يطبق الشريعة ويخدم أبناءها فذلك خير دعوة وأفضل خدمةتتضاءل أمامها جميع الخطب والمطبوعات ، النشرات والاجتماعات .

سابعاً : الندوات والاجتماعات

هذه الوسيلة تكمل الوسائل السابقة ، لكنها لا تحل محلها . لهذا تكرر كثيراً في هذا البحث أن الندوة والمحاضرة ، والموعظة والخطبة لاينبغي أن تكون الوسيلة المسيطرة ، أو الغالبة .

وكيف يمكن أن تكون الوحيدة الغالبة . بينما الغزو متعدد الأبعاد متغير الوسائل ؟ ولا شك أن الندوة أكثر تأثيراً من المحاضرة والخطبة . وثم بحوث نفسية وتربوية وإدارية تؤكد ذلك وتثبته بالدليل الاحصائي ، والمقارنة الميدانية : فالندوة أكبر تأثيراً من المحاضرة سواء لغرس اتجاه ، أم لتغيير اتجاه .

فهي تتيح فرصة للمناقشة والحوار ، لاكتشاف المعلومات وإبداء المقترحات ، للإفصاح عن المكنون والكشف عن المستور ، ثم اكتساب اتجاهات ومعلومات جديدة : بطريقة أفضل ، ودرجة أعمق ، وتعزيز أوفر .

وليس هناك مبرر للتوسع في المقارنة بين تأثير المحاضرة وتأثير الندوة فكتب علم النفس الاجتماعي ، والإدارة ، والاتصال ذاخرة بأمثلة وتجارب ، وقائع ونماذج تؤكد أفضلية الندوة والحوار .

وللندوة والمحاضرة ، المناقشة والخطبة خصائص ومواصفات لا تتوافر في كل محاضر أو داعية . . وفي هذا المقام يحسن الاستعانة بخير الأنام عليه الصلاة والسلام . ولقد وصفت طريقته في الخطابة بالعبارة التالية :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفصح خلق الله وأعذبهم كلاماً ، وأسرعهم أداء ، وأحلاهم منطقاً ، حتى أن كلامه يأخذ بالقلوب ، ويسبي الأرواح ، ويشهد بذلك أعداؤه . وكان إذا تكلم بكلام مفصل مبين ، يعده العاد ، ليس بهذر مسرع لا يحفظ ، ولا منقطع تخلله ، مسكنات بين أفراد الكلام (١) . .

مثل هذه المواصفات والصفات تمتع بها خير الخلق ، وينبغي أن تكون تكون هدفاً نحاول بدعاتنا أن يصلوا إلى درجة من درجاته ، ومنزلة من منازله .

---

(١) ابن القيم الجوزية . زادالمعادمن هدى خير العباد . فصل فيكلامه وضحكه وبكائه . ص.ص ٦٤ ــ ٦٥ (بتصرف) .

والآن هناك علمياً وفنياً ، عشرات الوسائل لتدريب الخطباء والدعاة بجدية وفعالية . ومثل هذا التدريب يقتضي تحليلا لمواصفات الخطيب والداعية ، وبناء عليها ننتقي ونختار ، نميز ونمايز .

وبعد ذلك يأتي تدريب نظري وعملي ، باستخدام مختبرات اللغة والصوت ، وطرق تحليل الآراء ، وأساليب تحليل التفاعل اللفظي والحركي ، وقياس التفاعلات الاجتماعية في الجماعات الصغيرة والكبيرة ، وقياس قوة الإيحاء والحضور ، وإدارة الحوار والمناقشة مع الجماعات الصغيرة ، وأساليب تغيير الاتجاه ، . . الخ وكلها أساليب تحتاج خبراء وعلماء ، وهذا ما سبق تأكيده بالفصل الثالث عند مناقشة الأساس السابع المتصل بتعدد وسائل الدفاع والهجوم .

وبمثل هذه الأساليب والتقنيات نستطيع إثراء المحاضرة والندوة ، والأهم من هذا نستطيع تتبع آثارها ونتائجها . فما كل محاضرة تأتي بالنتيجة المطلوبة ، أو كل ندوة تحقق الأهداف المرجوة منها . .

فلكي نرفع مستوى الداعي والمقاوم ، الخطيب والمحاضر ، لا بد من جهد علمي عميق وواسع ، مؤثر وفعال . صحيح هناك دعاة لديهم الموهبة والفطرة ، الحضور والتأثير بدون دراسة وتدريب ، بيد أنهم قله موهوبة ، وبذرة محدودة . .

والذي يؤكد ما ذهبنا إليه ، أن العاملين في مقاومة الغزو الفكري يختلفون – في قليل أو كثير – عن الخطيب العادي ، والمحدث التلقائي . .

فالعامل في المقاومة يواجه سموماً سبق نفثها ، يخاطب عقولا سبق تلويثها ، يتحدى إمكانات سبق تدبيرها ، يواجه قيادات سبق تدريبها لهذا ينبغي أن يدخل المعركة مزوداً بكل سلاح ، ومعداً بكل إتقان . فلكي

تواجه فئة من خريجي أو طلاب الجامعة الأمريكية في بيروت أو استانبول – مثلا – لا بد أن تكون مزوداً بإمكانات وطاقات ، مدرباً على فاعليات وتقنيات ، مكتسباً لمعلومات ومهارات تناسب التحدي ، وتتجاوز صعابه .

لهذا كله كم كانت مشرقة ومضيئة التوصيات التي صدرت عن مؤتمر الدعوة الإسلامية لجنوب شرقي آسيا والمحيط الهادي بمدينة كوالا لمبور خلال شهر صفر سنة ١٤٠٠ هـ ، ويهمنا منها ما يلي :

– إنشاء معهد إقليمي لتدريب الدعاة والمبلغين في المنطقة . .

– إنشاء مجلس إقليمي لنشر الدعوة في منطقتي جنوب شرق آسيا والمحيط الهادي . .

– يجب أن تتوافر لكل داعية في هذه المنطقة معلومات وافرة عن خلفية المجتمع وأن يتحلى بالصفات المثالية . .

– التأكيد على إنشاء مدارس إسلامية ودور حضانة . .

– ضرورة إنشاء صندوق نقدي لتعليم الأقليات الإسلامية في مناطقها . .

– ضرورة العناية الكبرى بالدعوة في أوساط التجمعات النسائية . .

– ضرورة العناية بإعداد الموجهات المسلمات . .

– ضرورة إنشاء جهاز وطني لشئون النساء المسلمات . .

– التركيز على احتياجات الوافدين الجدد على الإسلام . .

– عدم إهمال المسلمين الذين يعيشون تحت السيطرة الشيوعية . .

– الاهتمام المكثف بتوسيع رسالة المسجد ليصبح مكاناً للتربية الروحية

الشاملة خاصة بين الشباب ، وليشمل الرياضة البدنية التي لا تتعارض مع تعاليم الإسلام (١) . .

مثل هذه التوصيات – وغيرها – نرجو من العلي القدير أن ترى النور خدمة للإسلام والمسلمين ، للدعوة والدعاة ، للمسلمين القدامي والجدد ، لغير المسلمين والملحدين . فلا شك أن الدعوة الإسلامية إذا انتشر عطرها ، وذاع هديها فستقدم للملايين من غير المسلمين أجل خدمة ، وتهديهم إلى الصراط المستقيم . .

ولعل الدعاة والمقاومين يضعون نصب أعينهم ما روته عائشة رضي الله عنها : « ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد سردكم هذا ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل ، يحفظه من جلس إليه ، وكان كثيراً ما يعيد الكلام ثلاثاً ، ويختمه بأشداقه ، ويتكلم بجوامع الكلم ، فصل لا فصول ولا تقصير » .

ولعلهم أيضاً يهتدون بطريقته في الكتابة . . فعندما كتب رسائله للملوك والقادة سطر لكل منهم بطريقة مختلفة « فكتب الرسول صلى الله عليه وسلم ورسائله قد اختلف أسلوبها باختلاف الذين أرسل لهم ، واختلاف ثقافتهم ، فنراه يرق ، ويتسم بالصفاء والوضوح في مخاطبة الملوك والرؤساء . . أما كتبه إلى القبائل العربية فتتضح فيها جزالة الأسلوب ، وقوة الألفاظ ، لأنه يخاطبهم بقاموس لغوي يتناسب مع لغتهم وتعبيراتهم » (٢) . .

---

(١) من قرارات مؤتمر كوالالمبور للدعوة الاسلامية لجنوب شرقى آسيا والمحيط الهادى · مجلة رابطة العالم الاسلامى · السنة الثامنة عشرة · العدد الثالث · ربيع أول ١٤٠٠ هـ · ص·ص ٤٧ – ٥٠

(١) محمد ابراهيم نصر ·الاعلام وأثره فى نشر القيم الاسلامية وحمايتها ·مرجع سابق · ص·ص ٦٠ – ٦٢

وقد أفاضت المراجع في وصف معجزة القرآن الكريم والسنة المطهرة في الدعوة وما تتطلبه من ثقة للداعية بنفسه ، وتحديد للهدف ، والتعرف على طبيعة المجتمع ، وتربية القيادة ، وطريقة إختيار القادة ، ومستوى تربيتهم ، وما تستلزمه من عرض واضح ، واستقطاب حول الدعوة ، وسلوك مطابق للمبادىء ، وصبر على تحمل المشاق (١) .

ثامناً : الرحلات والمعسكرات

عند عرض الوسيلة الثانية الخاصة « بالمسجد والمدرسة » ، أشرت إلى أهمية المعسكرات الإسلامية ، ولعل الفرصة الآن مواتية للإفاضة فيها . . فالمعسكرات التي تنظمها الهيئات الإسلامية – الرسمية والأهليه – يمكن أن تكون ميداناً خصباً ، وأسلوباً فعالا في مقاومة الغزو . ولعل الاعتبارات التالية توضح ذلك :

١ – ينبغي أن تغطى هذه المعسكرات جميع فئات المجتمع أهل الحضر والمدر ، الريف والساحل ، الصغار والكبار ، المتعلمين والأميين ، الطلاب والعمال ، الموظفين والفلاحين ، الأطفال والمراهقين ، الرجال والنساء . . الخ وبذلك نضمن أننا ما أهملنا فئة ، أو تركنا قطاعاً . .

والذي يؤخذ علينا أحياناً أن هذه المعسكرات تنظم للطلاب فقط دون سائر القطاعات . وحتّى في قطاع الطلاب فغالباً ما تكون لفئة معينة منهم ! ! فمعظمها لخدمة الطلاب المتفوقين والبارزين في النشاط الديني ، وهذا طيب وحسن . .

---

(١) رءوف شلبى · الدعـــــوة الاسلامية فى عهدها المكى ·مناهجها وغاياتها · مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية · القاهرة ١٣٩٤ ص·ص ١٧١ ـ ٢٥٨

ولكن ما الموقف بالنسبة لغيرهم من الطلاب المقصرين أو المنصرفين ؟ أليست هذه الفئة الأخيرة بحاجة إلى عناية وتركيز أكثر من المتفوقين والمبرزين ؟ لماذا نهمل القطاعات العريضة الواسعة ، ونركز على قطاعات مختارة محدودة ؟ لماذا نهمل المقصر عن أداء واجبات دينه ، ونركز على الملتزم بها ؟ أليس الأول أولى بالرعاية والتوجيه ، بالدعوة والهداية ؟

أسئلة كثيرة تثار حول القطاع الذي نركز عليه ، والقطاع الذي نهمله . بطبيعة الحال ، الأسلوب الذي اعتدنا عليه له مبرراته وفوائده ، وما ألفت إليه الانتباه له أيضاً خطورته ووجاهته . .

٢ ــ أن تضم هذه المعسكرات جميع الأنشطة الرياضية والاجتماعية والترويحية التي تتفق مع ديننا وتهتدي بهديه . وبذلك يجد المسلم الصغير والمراهق والكبير ، والمسلمة الصغيرة والمراهقة الكبيرة الجرعات المناسبة والتوجيهات الملائمة .

وبذلك نضمن استثمار طاقات الأمة ، وتخليصها مما علق بها من درن وغزو ، محن واحن ، تشويه وتلويث .

لهذا كم كان رائعاً من ندوة كوالالمبور التوصية بمعسكرات إسلامية ، ودور حضانة ومدارس إسلامية ، ونشاط القطاع النسائي ، ونشاط رياضي واجتماعي تحت إشراف المسجد . .

٣ ــ أن تضم هذه المعسكرات قيادات إسلامية لامعة ومؤثرة ، نشطة وفعالة ولا تترك لصغار الموظفين الرسميين الذين ربما يؤدون أعمالهم بروتينية وتقليدية ، شكلية ونمطية . .

ولهذا فالنشاط الأهلي ، والخيري ، والتطوعي أقوى تأثيراً ، وأوضح

نفوذاً من النشاط الحكومي الرسمي الذي ربما تغلب عليه ـ أحياناً ـ الدعائية والشكلية . .

٤ ـ أن تلتقي في هذه المعسكرات أنشطة فكرية متنوعة متداخلة . . فاختصاص التربية الرياضية قد يمارس دوراً فكرياً ثقافياً ، واختصاص الدعوة قد يمارس نشاطاً رياضياً واجتماعياً وترويحياً ، . . الخ وبذلك يرسخ في أذهان المشاركين والمساهمين أن الدين وحدة واحدة ، وخبرة متكاملة ، وتنظيم شامل ، ليس فيه تنطع أو تزيد ، تكلف أو ادعاء . .

٥ ـ أن تضع هذه المعسكرات في إعتبارها ضرورة العناية بأنشطة ميدانية لخدمة البيئة : صحياً وثقافياً ، تعليمياً ومهنياً ، غذائياً واجتماعياً ، ترويحياً وإنتاجياً . .

ففي داخل المعسكرات طلاب من مختلف الكليات ينتظمون في فرق لخدمة البيئة بطريقة متكاملة شاملة ، مستمرة دائبة . . وبذلك لا تقتصر الخدمة على أيام المعسكر ، بل تمتد إلى سنوات بعده . .

وفي داخل المعسكر عمال وفلاحون وموظفون وطلاب ومهنيون . . الخ يستطيعون معاً تقديم الخدمة الفعالة والمنتجة لتطوير بيئتهم ، والارتفاع بمستواها ، وعلاج مشكلاتها . .

والفتيات والسيدات ، المدرسات والطبيبات ، يستطعن جميعاً تكوين فرق عمل تقدم للمسلمة الدرس والتوجيه ، الطب والتعليم ، الإنتاج والترشيد ، التطوير والتجديد . وهذا النشاط النسائي يمكن أن يتخذ أشكالا مختلفة مثل : دار حضانة إسلامية ، مصنع ، مطرز ، مؤسسة إنتاج تتعامل مع خامات البيئة ، عيادة ، مدرسة إسلامية ، دروس تقوية للتلميذات والطالبات ، وبرامج لمحو الأمة الأبجدية والوظيفية ، . . الخ . وبهذا تصبح المرأة المسلمة سلاحاً مشهراً ، وجيشاً منظماً ضد الغزو والغزاة .

وقد تبدو فكرة المعسكرات والرحلات في بلد إسلامي لا مبرر لها ، بينما في ثانٍ تبدو أساسية وهامة :

ففي البلد الثاني جمعيات تغريبية تنشط وتتحرك . . وجماعات علمانية تزحف وتسيطر . . وجماعات حزبية تستقطب وتجمع . . وجماعات الحادية تتطاول وتستفز . . و « جيش للسلام » الأمريكي يتسلل ويزحف . . ونوادي للروتاري واللايونز تنفث سمومها وأفكارها . . وجماعات نسبت إلى الإسلام أو خرجت عليه تشكك وتمزق . وثم سفارات ومراكز ثقافية أجنبية تدفع وتمول . . وثم تنظيمات وهيئات تدس وتفح . . الخ .

كل هذا موجود بدرجة أو بأخرى ، ولا بد من مواجهة بحسم وقطع . والمشكل أن بعض الحكومات والمنظمات الرسمية ما زالت سادرة في نومها ، تحوطها الشباك وتنصب الفخاخ ، وهي في حالة فقدان وعي : قاصدة أو مهملة ، واعية أو مخدرة ، قادرة أو مغلوبة على أمرها . ولماذا تستيقظ وتفيق ، والمسيطر عليها تلامذة العلمانية وصبيان التغريب ؟ لماذا تتحرك والموجه لها فكر مشكوك فيه ؟ لماذا تقاوم وبعض قادتها أبناء الغزو البررة وتلامذته النجباء ؟ لماذا تتحدى وبعض عناصرها صنيعة الغزو ونخبته المختارة ؟

وإذا كانت المعسكرات شاقة ومكلفة ، فلعل الرحلة القصيرة ليوم أو نصف يوم تسهم في حل الموقف حيث تسودها روح إسلامية ، وتوعية رصينة ، ونشاط موجه ، ولهو بريء ، ورياضة محببة ، واستكشاف مفيد .

وفي ختام هذه النقطة نذكر درساً من صفوف الأعداء قد يفيد :

فجميع المنظمات الصهيونية والإسرائيلية في العالم حريصة كل الحرص على المعسكرات والرحلات والزيارات والاجتماعات واللقاءات . .

وما من جامعة أمريكية أو أوربية ، إلا وتجد فيها الإعلانات والدعايات

لزيارة « أرض الميعاد »و « عاصمة صهيون » و « أرض الأحلام » . . والشباب اليهودي يقبل عليها طائعاً مختاراً ، مقبلا مختالا . .

وليس المهم أن يذهب ، ولكن المهم دوره بعد أن يعود ! !

وكاتب هذه السطور يذكر كيف كان يعود الشباب اليهودي الأمريكي إلى جامعة ولاية نيويورك بعد زيادة قصيرة أو طويلة للكيان الصهيوني . . يعود كل منهم مختالا فخوراً ، مزهواً منتصراً ، داعياً موجهاً ، محاضراً متحدثاً..

يعود محملا بصورة ووثائق ، مطبوعات وخرائط ، أشرطة وأفلام ، مذكرات وذكريات ، ومشبعاً بثقافة وتوجيهات ، بفنون وآداب ، أحلام وتطلعات . .

وسرعان ما تتلقفه المنظمات الصهيونية تدور على قاعات الجامعة ، ومجالات نشاطها محاضراً وموجهاً ، شارحاً ومفسراً ، ملقناً ومقنعاً . . وسرعان ما يستقطب حوله أعداداً أكبر تذهب في الدورة التالية « لأرض الميعاد » وتعود محملة بذات السموم ، ونفس الأكاذيب . .

وبهذا كله تتسع دائرة نشاطهم ، ومجالات نفوذهم ، ومناطق تأثيرهم . .

وقد يذهب الشاب اليهودي الأمريكي أو الأوربي لقضاء عام على أرض فلسطين يعمل لقاء دولارين يومياً لبناء مستوطنات ، وزراعة مستعمرات ، وحماية كيبوتزات ، وبعد أن يعود لجامعته ومدرسته ، لناديه وحيه ينفث سمومه وينشر أساطيره . . يذهب للعمل الشاق ، البعيد ، الموحش ، القاسي لقاء دولارين يومياً ، رغم أنه يستطيع الحصول على عمل ملاصق لمدرسته أو كليته بثلاثة دولارات في الساعة ! !

هذان المثالان يكشفان عما وراءهما من دقة تخطيط ، ودهاء تنفيذ ، وزرع لولاء ، وتعميق لانتماء . .

لهذا كله لا بد من الحركة والفعل الإسلامي للرد والكشف ، التحصين والعلاج ، جاعلين شعارنا « ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً » (١) .

تاسعاً : البعثات والمهمات

تضطرنا ظروف الدراسة والعمل إلى إرسال بعثات ومهمات للخارج ، تستغرق شهوراً أو سنيناً . .

وهذا مطلب ضروري وهام لا يمكن التراجع عنه لصالح التنمية : إنتاجاً وخدمات . كما أن وجود شركات أجنبية كثيرة في مجتمعاتنا الإسلامية قد يلزمها إبتعاث عدد من خبرائنا وفنيينا وعمالنا للتدريب في مراكزها . .

وهذا مطلب حيوي ونافع يسهم في إعداد رأس مال بشري قاعدة كل تنمية ، وأساس كل تطوير إداري وتقني . .

كل ذلك مشروع وعادل ، لا غبار عليه . .

إلا أن هذه البعثات والمهمات من غير توجيه وتحصين ، إهتمام ورعاية قد ينفرط عقد بعض أصحابها :

قد لا يعودون إلى الوطن . .

أو يعودون وقد أصبحوا من الرافضين لكل ما هو إسلامي ، ومن المنادين بكل ما هو غربي . .

بطبيعة الحال ، ثم ظروف وظواهر في حياتنا الاجتماعية والسياسية

(١) سورة الكهف : آية ١٠

والاقتصادية والثقافية تورث الضجر وتحتاج إلى إصلاح . وهذه الظواهر كثيراً ما تتضخم في عين العائد من الخارج بعد تمضية عدة سنوات . .

كل هذا شيء طبيعي ، ومتوقع . .

ففي حياتنا كثير من صور ، وعديد من ظواهر بحاجة إلى تغيير . .

بيد أن نقطة الإختلاف الوحيدة : أن التغيير لا يمكن أن يتم وفقاً للمنظور الغربي أو الشرقي . . فما قد صلح لهم منذ قرون وعقود لا يصلح لنا . . ثم من الذي قال أن الموجود عندهم هم راضون عنه كل الرضى ؟

فإذا كان الغرب والشرق له كثير من تحفظات وانتقادات على تجربتهم الحضارية والثقافية ، فكيف يطالب البعض بنقلها أو استنساخها ؟

كيف نتابع مبعوثينا في الخارج ؟

كيف نتابع الآلاف المؤلفة ، بعضهم مبعوث رسمي وبعضهم غير رسمي ؟

كيف نتابع الآلاف في سن المراهقة أو بداية الشباب ؟

ما أنسب طرق متابعة جميع أو معظم هؤلاء ؟

وما أقصده بالمتابعة ليس التعنت ورصد الأخطاء والانحرافات فهذه أمور سهلة ساذجة لها أجهزتها . .

لكن ما أقصده :

كيف نتابع إسلامياً هذه الآلاف المؤلفة تحصيناً لهم ، ودعماً لمركزهم ، وإضافة لجهدهم ؟

كيف نساعدهم لحماية أنفسهم أولا ، ثم للدعوة الإسلامية ثانياً ؟

كيف نساعدهم ليتآلفوا مع الأقليات الإسلامية في الأقطار التي يدرسون بها ؟ . .

كيف نتعامل مع الآلاف : بعضهم مهاجر ، وبعضهم مبعوث ، وبعضهم مطرود ، وبعضهم مطارد ؟

ولعل الصورة تتضح بأمثلة :

– في بلد مثل فرنسا يوجد ما يزيد عن ٢ مليون عامل مسلم عربي من شمال إفريقية يضاف إليهم ما يزيد عن مليون عامل ومهاجر ومبعوث .

إذن – على أقل تقدير – يوجد ثلاثة ملايين مسلم وافد ومهاجر إلى فرنسا من جنسيات ولغات وبلاد وعادات جد متفرقة . .

– في بلد مثل الولايات المتحدة يوجد ما يقرب من ٢ إلى ٣ مليون مسلم مهاجر ، ووافد ، ومبعوث ، ودارس .

يضاف إليهم حوالي ٢ مليون زنجي مسلم أو يزيد . .

أي ما يزيد عن ٥ مليون مسلم بين مواطن أمريكي ، أو مهاجر أو دارس .

وهناك عشرات الأسئلة حول هذه الجاليات الدائمة أو المؤقتة . . طبعاً ، هناك تنظيمات واتحادات إسلامية للطلاب ، وغير الطلاب . .

لكن هل الاتحادات كافية كماً وكيفاً ؟ هل تؤدي رسالتها مستوى ومحتوى ، وبالاتقان المطلوب ، ؟ هل امكاناتها ومواردها تسمح لها بالفعالية المطلوبة ؟ هل تضم الأعداد الكافية أم مجرد أعداد رمزية ؟ هل قدمت لهم الدول والمنظمات الإسلامية المعونة الكافية الحقيقية ؟

ألا تقع هذه الاتحادات – أحياناً – فريسة الصراعات والمنافسات الموجودة

بالعالم الإسلامي ؟ ألا تحاول بعض الحكومات والمنظمات تحويل هذه الاتحادات إلى بوق دعاية لها ؟

ألا تحرمها من التمويل عند اختلاف الرأي أو فشل في السيطرة على رئاستها ؟ ألا يحدث أحياناً قطع للدعم بمجرد الفشل في انتخابات رئاسة هذه الاتحادات ؟

عشرات الأسئلة والاستفسارات ، تؤكد ضرورة الاهتمام الجاد والأساسي بمبعوثينا .

فهؤلاء قادة الغد . . وهم الذين سيضعون ، وينفذون خطط التنمية التي تنعقد عليها الآمال . . وهم الذين أنفقنا في سبيلهم كل غال ورخيص من أجل تعليمهم ، وانتقائهم ، وابتعاثهم . . وهم الذين سيحتلون المراكز الهامة في الجامعات ومراكز البحث ، والوظائف العليا . . وهم الذين سيديرون المؤسسات بعد تدريبهم وإعدادهم لشهور أو سنوات . . الخ .

إذن هذا القطاع ليس بهامشي أو جانبي ، بل قلب للتنمية والتقدم . .

لهذا كان مستهدفاً أكثر من غيره ! !

مستهدف قبل ابتعاثه . . وأثناء بعثته . . وبعد عودته لوطنه . .

وأجهزة الغزو تحاصر هذا القطاع بالوطن ، وبالخارج . . وفي بعض الحالات تكون مسئولة عن الانتقاء ، والإشراف على المبعوثين (١) ! ! ولا شك أنها تحاول اصطياد هؤلاء أثناء دراستهم وتدريبهم على أساس أنهم قادة المستقبل ، وزعماء الغد . .

---

(١) فى حالات كثيرة تختارشركات وهيئات عددا من الطلاب والمتدربين، وبناء على المنحة أو حتى البعثة الحكومية ، تشرف هذه الهيئات على طلابنا وتتابعهم وتكتب عنهم تقاريرها ٠

وهناك عشرات الأمثلة المشهورة والخفية لعملية الانتقاء ، الاعداد ، التجهيز ، الابتعاث ، الإشراف ، العودة ، التصعيد ، المؤازرة ، الدعم .. الخ . عشرات الأمثلة توضح دور أجهزة الغزو : تبشيراً ، واستعماراً ، ومخابرات ، ومراكز ثقافية أجنبية في العمليات السابقة بحيث يعود بعد ٥ سنوات جيل موجه ، مشبع ، ملقن .

ثم تفتح له الأبواب ، وتذلل له الصعاب ، وتقدم له التسهيلات ، وتمهد له الطرق ، وتزال من أمامه العقبات . وفي النهاية يرقى هذا الجيل سلم النفوذ ، وموقع القيادة . .

بطبيعة الحال ، ليس كل مبعوث بتابع أو متأثر بأجهزة الغزو الفكري . بل هناك آلاف مؤلفة أثناء بعثهم وبعد عودتهم كانوا خير مثال للإسلام والمسلمين ، وبعضهم مارس دوره في التبليغ والدعوة كخير ما يكون ، وبعضهم ذهب إلى أقصى بقع العالم إلحاداً وفسقاً ، فعاش وعاد أكثر تمسكاً بدينه وأشد إصراراً عليه لأنه تيقن من قيمة الإسلام ، وفهم إعجازه في تنظيم المجتمع والنفس الإنسانية . بل بعض المبعوثين ذهب إلى بلاد شيوعية ملحدة وعاش وعاد مخلصاً لدينه متمسكاً بتعاليمه . .

فالقضية ليست في البعثة ، بل في المبعوث . .

والقضية ليست في مهمة التدريب . بل في المتدرب . .

ومع ذلك فلكي نضمن السلامة والأمانة ، فلا بد من مجهود إداري وبشري ومالي مضاعف لخدمة مبعوثينا بالدعوة الهادفة ، والكلمة الطيبة ، والمطبوعة الواضحة ، واللقاء المثمر ، والتوجيه الفعال ، والنشاط المنتج ، والإشراف الأبوي ، والمشرفين الأكفاء ، والتنظيم الجيد ، والدعم المالي ، وزيادة أقطاب الدعوة ، والتنسيق بين الدول ، والتعاون بين المنظمات ، وعدم التطاحن ، وإنتقاء قيادات الإشراف . . الخ .

فمثل ذلك التدعيم والتحصين ـ التعزيز والتمكين يمكن لنا حماية بعثاتنا بقدر الطاقة ، والاستفادة منها بقدر الإمكان . .

عاشراً : القدوة الصالحة

ها قد وصلنا إلى الوسيلة الأخيرة لمقاومة الغزو . .

والقدوة الصالحة في الفعل مع القول ، الجوهر مع المخبر ، السلوك مع الفكر ، الجماعة مع الفرد ، الراعي مع الرعية ، الكبير مع الصغير . .

وبطبيعة الحال ، لا يمكن أن تستقيم هذه الأبعاد ، من غير صلاح الراعي والمسئول . . فعلى مستوى مقاومة الغزو لا يمكن أن يتكثف الجهد ، و تتآ ز الجهود ، وتنطلق الخطط ، وتوفر الموارد ، وتدبر الاحتياطات ، لا يمكن أن يتم ذلك – وغيره – من غير قدوة صالحة في موضع القيادة والمسئولية .

صحيح من الممكن أن تنطلق جهود ، وتجمع أموال ، وتؤخذ احتياطيات مع غيبة القيادة الصالحة ، أو بالرغم من القيادة الطالحة ، إلا أن ذلك يتطلب نوعاً رفيعاً من الدعاة ، وقلة قادرة على مغالبة الصعاب وتحدي الظلم . .

وصحيح من الممكن أن تكون الجهود الأهلية ، والتطوعية ، والحماسية أفضل وأنتع من الجهود الحكومية والروتينية ، إلا أن الجهود الأهلية – مهما كانت فعاليتها – محدودة الموارد ، بل ومن الممكن أن تكون نهباً لبطش وتنكيل السلطة الظالمة . .

إذن لكي نضمن انطلاق واستمرار ، حشد وتعبئة الجهود ، لا بد من قيادة صالحة وقدوة طيبة . .

وعلى مستوى التنظيم الإداري لأجهزة المقاومة : إذا لم تكن قياداتها

وصفوفها ، رؤوسها ومرؤوسوها ، قدوة طيبة ومثالا رائعاً فإن كثيراً من الأمور يتعثر ، وكثيراً من الأوراق يختلط :

فكيف تنطلق المقاومة بأقصى طاقتها ، وقادتها لا يؤمنون بعملهم ؟

وكيف تحقق أهدافها ، والعاملون فيها تنقصهم الخبرة والكفاية ؟

وكيف تصل إلى غاياتها ، والعاملون فيها يعانون الشعور بالنقص ازاء مهاجميهم ؟

إذن من شروط نجاح المقاومة أن يكون أصحابها قدوة في الكفاية والجودة ، الأخلاق والسلوك ، القيم والمثل ، الفعل والقول ، العلم والعمل ، الجوهر والمخبر . . وبذلك نضمن أن يؤدوا العمل على خير وجه ، ويجمعوا حولهم أفضل العناصر ، ويستقطبوا الخاصة والعامة .

أما انتقاء القدوة ، أو اعتمادها على مظهر وملبس ، كلمات وخطب فسرعان ما ينكشف أمرها ، وتذبل أوراقها . وخطورتها قبل أو بعد انكشافها ، أنها ربما تصرف بعض المخلصين ، أو تصد بعض المهتمين ، أو تصدم بعض المترددين .

ومن هنا فخطورة القيادة الطالحة لا يقتصر فقط على تبديد أموال وجهود ، بعثرة طاقات وامكانات ، بل في أنها تضر بمصالح المسلمين ، وتعطي انطباعاً سيئاً عن سائر القيادات وتعطي فرصة للتشفي والإساءة ، السخرية والتندر ، بل قد تصرف بعض المذبذبين عن جادة الطريق . .

* * *

كانت عشر الوسائل السابقة مقترحات لمقاومة الغزو الفكري تناولت الجانب المعنوي والمادي ، البشري والتنظيمي ، المباشر وغير المباشر ، المدرسي

واللامدرسي ، الفكري والسلوكي ، الجادي والترويحي ، التقليدي والمستحدث الداخلي والخارجي ، التربوي والقانوني ، الجماعي والفردي ، الإنتاجي والخدماتي ، العقلي والنقلي .

ومن المؤكد هناك عشرات الوسائل الأخرى بعضها في مصادر ، وبعضها يحتاج جهداً عقلياً للاستنباط والمناقشة . وما ذكر في الفصل الرابع بكامله مجرد أمثلة وشواهد ، بحاجة إلى مزيد من البحث والتعمق عن طريق لجان مختصة ، وعقول متفاعلة ، وتخصصات متكاملة . .

وبمثل هذا كله نقيم سداً منيعاً أمام هجمات الغزو ، ونحصن الصغير والكبير ، الرجل والمرأة ، المتعلم والأمي ، الريفي والحضري ، البدوي والبحري وبذلك نحقق قوله تعالى : «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله (١) » .

والآن إلى الفصل الآخر . .

---

(١) سورة آل عمران : آية ١١٠

الفصـل الخامس

منهج خطة للمستقبل

لن أطيل كثيراً في هذا الفصل لأن عنوانه « منهج خطة للمستقبل » ، فهو إذن مجرد ملاحظات منهجية ، وتحفظات فكرية بدون دخول في تفاصيل وإجراءات . .

لهذا سأقتصر على مجرد وصف لكيفية « وضع » خطة للمستقبل دون استغراق في « محتوى » هذه الخطة . .

وقد يبدو هذا هروباً من وضع خطة ، وهذا هو المقصود بالفعل : فليس في مقدوري أن أضع خطة . .

وليس في طاقتي مواجهة غزو تشترك فيه عشرات الدول والهيئات .

لهذا كله ألفت النظر ، وأثير الانتباه ، وأوجه الاهتمام دون قدرة على التفصيل أو الأطناب . .

بعد هذا التوضيح نناقش معاً « منهج » وضع خطة لمقاومة الغزو . ومثل هذا المنهج يمكن بلورته في العناصر التالية :

١ــ أن خطة المستقبل لا ترسم بجهد فرد واحد ، بل بفريق عمل متكامل ، متخصص ، متحمس ، مفعم بالإيمان ، مليء بالقدرة على العطاء . .

لهذا تكرر كثيراً في ثنايا الكتاب إلى ضرورة وجود « بنك للمعلومات

الإسلامية » و « شبكة للعلماء المسلمين » وبذلك تتكامل المعلومة مع العالم ، الفكرة مع المفكر ، المبحث مع الباحث . .

وبدون ذلك تبدو الجهود مبعثرة ممزقة ، عفوية مؤقتة .

ولهذا نكرر كثيراً في ثنايا الكتاب ضرورة الاستعانة بالمتخصصين المسلمين في جميع فروع المعرفة لتنتظم صفوفهم ، وتكتمل خبراتهم لمقاومة الغزو بأفضل طريقة ، وبأدق وسائل .

٢ـ أن خطة المستقبل لا ترسم برؤية مؤسسة واحدة ، بل برؤى حكومات ومنظمات ، هيئات واتحادات . .

فكثير أو قليل مما أثير خلال الصفحات السابقة لا نجاح له ، ولا أمل فيه من غير تعاون وإخلاص ، تآزر والتحام . .

وكما أن الغزاة تجمعهم وحدة الهدف ، فعلي المعتدى عليهم أن يتحدوا قلباً وقالبا ، فكراً وعملا ، وإلا تخاطفتهم الذئاب كل على حدة . .

ولهذا فإن خطة المستقبل تحتاج إلى ممثلي دول ، ومندوبي هيئات . . والحد الأدنى علينا أن نحاصر خلافاتنا ، ونضيق هوة مشاكلنا لكي تتكاتف جهودنا داخل بلادنا وخارجها ، على أرضنا وأرض غيرنا لمقاومة الغزو وصد سهامه ، وكشف مخططاته . .

٣ـ أن هذه الخطة لا تجدي فيها الملامح العامة ، بل تحتاج خططاً تفصيلية ، وإجراءات مقننة ، وترتيبات ممرحلة ، وتوقيتات مزمنة ، ووسائل محددة الخ. وبذلك كله نستطيع الوصول إلى أهدافنا بالدرجة المطلوبة ، وبالجودة المبتغاة .

صحيح الملامح العامة ضرورية ، إلا أنها لا ينبغي أن تصرفنا عن التفاصيل والدقائق ، الخطط والبرامج . فبعد وضع إطار عام لا بد من تقسيمه إلى أهداف بعيدة ، ومتوسطة ، وقريبة . .

ثم تصاغ هذه الأهداف صياغة إجرائية ، حاسمة وواضحة ، حتى نستطيع تحديد هدفنا على وجه الدقة : هجوماً ، ودفاعاً . .

٤ـ كما أن كثيراً من ملاحظاتي ومقترحاتي سجلتها في ثنايا كل فصل وعنصر . . ولعل بعض الأسس المقدمة في الفصل الثالث تصلح . لأن تكون محور مناقشة ، ورؤوس أقلام ، وبدايات لأسئلة . .

إن ما سجل بالفصل الثالث كان أسئلة واستفسارات ، مؤشرات وتنبيهات أكثر منه إجابات شافية ، وتوصيات نهائية . .

فكل ما سجلته من قبيل الملاحظات الشخصية الخاطئة والصائبة . . ومن المؤكد أنها بحاجة إلى غربلة وتصفية ، مدارسة وتحليل لاكتشاف الصحيح من المغلوط ، الصواب من الخطأ .

٥ـ وخطة المستقبل لا يمكن تصميمها مكتبياً ، بل لا بد من دراسات ميدانية ، وخبرات حقلية ، واستعانة بالمسئولين والأفراد الذين واجهوا الغزو مباشرة ، وتعرضوا لنيرانه ، وعاشوا لهيبها . .

فمن خلال المعايشة والخبرة الحية ، الملاحظة والتحليل ، الدراسة الميدانية والتتبعية يمكن اكتشاف تفاصيل خطط الغزاة ، ومن ثم توضع خطط مقاومتهم..

أما النظر المجرد ، والتحليل المكتبي فقد يرد على قضايا غير واردة ، وقد يحارب معركة غير قائمة . .

لهذا سبق أن لفت النظر إلى ضرورة متابعة أحدث صور الغزو الفكري الآن بجميع معسكراته ومؤسساته . . لأن الكثير من الأساليب والأدوات تغير ، بينما نحن ــ غالباً ــ ما زالنا نحارب ضد التبشير والتغريب بصوره القديمة ووسائله التقليدية .

من ثم ذكرت أنه في كل المراجع التي استعنت بها لم أجد تفاصيل عن مؤسسات عصرية راهنة ، فمعظم التحليلات والتعليقات على فكر مبشرين ومغربين منذ سبعين عاماً أو يزيد . .

لهذا فنحن بحاجة لتتبع ميداني فاحص لمؤسسات وهيئات جديدة تمارس دورها بخبث وذكاء ،ومهارة ،ومن ذلك – مثلا – جيش السلام الأمريكي الذي تنهش بعض فصائله في أقطار إسلامية آسيوية وإفريقية . .

٦– وخطة المستقبل هذه لا يمكن أن تكون دفاعية فقط ، بل هجومية أيضاً . . فهي بقدر ما تحصن تبلغ ، وبقدر ما تعالج تقي ، وبقدر ما تنشط على أرضنا تمتد لكشف الغزو في عقر داره . .

من هنا ينبغي أن تتكشف جهودنا في الداخل والخارج لكشف وتعرية مؤسسات هذا الغزو ، وحصارها قبل أن تحاصرنا ، ومهاجمتها قبل أن تهاجمنا ، والمصادرة عليها قبل أن تعبر إلينا .

ومثل ذلك يقتضي تعبئة للجاليات والأقليات الإسلامية في أوروبا والولايات المتحدة ، لكي تكون عوناً لنا ، وقاعدة متقدمة ، وطليعة متبصرة : تراقب عن كثب ، وتتبع عن عمد ، وتكشف عن قصد ، وتهاجم عن تخطيط . .

وبذلك تكتمل حلقات الداخل والخارج ، الغالبية والأقليات ، القاعدة والطلائع .

٧– وهذه الخطة لا ينبغي وضعها في صفحات أو أوراق ، في اجتماع أو اجتماعات ، بل ينبغي أن تكون فكراً متصلا ، وجهداً متكاملا ، ومتابعة نشطة ، وتحليلا عميقاً يستغرق الشهور والسنوات : إعداداً وتدبيراً ، وانطلاقاً، واستمراراً .

فالمسألة ليست برنامجاً إذاعياً يعد . أو كتاباً يطبع ، بل جهد متواصل لسنوات طوال ، وبفرق عمل ، وغرف عمليات ، وتقنيات بالغة التعقيد ..

فالذين يهاجموننا الآن لا يهاجمون عفوياً أو شكلياً ، عصبياً أو انفعالياً ، بل يدبرون بليل ، ويخططون لسنوات ، ويستخدمون أرقى التقنيات الاجتماعية والتربوية والفنية . .

لهذا كله لا ينبغي أن يكون منهجنا أقل من منهجهم ، ولا ينبغي أن يكون مجهودنا أقل من جهودهم . . ونحن والحمد لله نملك الامكانات البشرية والمالية ، وقبل كل ذلك نملك العقيدة الصحيحة ، وكل ما نحتاجه التعبئة والتخطيط ، المتابعة والتقويم .

٨ــ وهذه الخطة ينبغي عند تصميمها مراعاة أن تقوم كل مرحلة فيها تقويماً فنياً وميدانياً ، لا حساسية فيه أو حرج ، لا مدارة فيه أو تحفظ . . فنحن لا ندافع عن شخص أو هيئة أو دولة ، بل عن عقيدة ورسالة هي أقدس الرسالات وأتمها . . ومن ثم فعندما نتحمس ، ونتشدد ، ونقوم ، وننقد ، ونراجع ، ونؤاخذ ، ونصرّ ، ونكافح ، لا نقصد بذلك مصلحة شخصية ، أو خدمة دنيوية ، بل مصلحة الرسالة وخدمة المسلمين . .

لهذا ينبغي أن يراعى عند وضع الخطة أن تكون بها قنوات وهيئات للتقويم بوسائل متعددة متلاحقة ، تخرج بنا من دائرة الأوراق واللوائح ، إلى التطبيق والفعل . .

وبذلك نصحح أخطاءنا قبل أن تستفحل ، ونراجع أنفسنا قبل أن نقع في المحظور . . وبذلك كله لا نوفر المال والجهد والبشر فحسب ، بل نخدم الرسالة الخدمة التي تستحقها . .

٩ــ وأخيراً فتصميم هذه الخطة مهما استند على علم ، وارتكن على علماء ، فهو لا يخرج عن الإسلام قرآناً وسنة .

فبالإسلام ، ومن الإسلام ، ونحو الإسلام ينبغي تصميم خطتنا ووضع إطارها العام .

وبذلك كله نخدم ديننا ، وعالمنا ، وأنفسنا خير خدمة ، ونقدم أفضل معروف . وبذلك نحقق قوله سبحانه وتعالى :

« ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون » . (صدق الله العظيم) . .

* * *

مصـــادر البحث

١ – ابراهيم خليل أحمد . الاستشراق والتبشير وصلتهما بالامبريالية العالمية مكتبة الوعي العربي بالقاهرة ١٩٧٢ .

٢ – أبو الحسن الندوي . نحو التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية ، الطبعة الثانية ، القاهرة / ١٩٧٦ .

٣ – الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بحوث المؤتمر العالمي لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة . ٢٤ – ١٣٩٧/٢/٢٩ . المجلد الخامس . استنسل . المدينة المنورة .

٤ – ا. ل. شاتليه . الغارة على العالم الإسلامي – ترجمة مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب . منشورات العصر الحديث . الطبعة الثانية ، جدة ١٣٨٧ .

٥ – أنور الجندي . العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي دار المعرفة . القاهرة ١٩٧٠ .

٦ – أنور الجندي . التربية وبناء الأجيال في ضوء الإسلام – دار الكاتب اللبناني . بيروت . ١٩٧٥ .

٧ – أبو هلال الأندونيسي . غارة تبشيرية جديدة على أندونيسيا . الطبعة الثانية بيروت . / ١٩٧٣ .

٨ – توصيات مؤتمر الدعوة الإسلامية لجنوب شرقي آسيا والمحيط الهادي . مجلة رابطة العالم الإسلامي . السنة الثامنة عشرة . العدد الثالث . ربيع أول ١٤٠٠ .

٩ ــ جاد طه . سياسة بريطانيا في جنوب اليمن . دار الفكر العربي . القاهرة ١٩٧٠ .
١٠ــ جلال يحيى . العالم العربي الحديث ــ المدخل . دار المعارف . القاهرة ١٩٧٤ .
١١ــ حسان محمد حسان . دور التعليم في تكوين المجتمع الإسرائيلي . الكتاب السنوي في التربية وعلم النفس . المجلد الأول . عالم الكتب . القاهرة ١٣٩٣ .
١٢ــ حسان محمد حسان . التعليم باللغات الأجنبية في المدارس الرسمية العربية . تاريخه ــ آثاره ــ نتائجه . القاهرة ١٤٠٠ .
١٣ــ حسن محمود . ليبيا بين الماضي والحاضر . مؤسسة سجل العرب . القاهرة ١٩٦٢ .
١٤ــ سامي محمود . انتشار الإسلام والدعوة الإسلامية ــ المكتبة العصرية . بيروت .
١٥ــ زيدان عبد الباقي . وسائل وأساليب الاتصال في المجالات الاجتماعية والتربوية والإدارية والإعلامية . القاهرة ١٩٧٤ .
١٦ــ رأفت الشيخ . في تاريخ العرب الحديث . دار الثقافة للطباعة والنشر . القاهرة ١٩٧٥ .
١٧ــ رؤوف شلبي . الدعوة الإسلامية في عهدها المكي ــ مناهجها وغاياتها من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية . المطابع الأميرية . القاهرة١٣٩٤
١٨ــ سيد قطب . طريق الدعوة في ظلال القرآن . جمع وإعداد أحمد فائز . دار الأرقم . بيروت ١٣٩٤ .
١٩ــ صلاح العقاد . تطور السياسة الفرنسية في الجزائر . القاهرة ١٩٥٩ .

٢٠- ضرار صلاح ضرار . تاريخ السودان الحديث . مكتبة الحياة . الطبعة الرابعة . بيروت ١٩٦٨ م .

٢١- عباس محمود العقاد . ما يقال عن الإسلام . دار الكاتب العربي . بيروت ١٣٩١ هـ .

٢٢- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني . أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها . التبشير - الاستشراق - الاستعمار . دار القلم . دمشق - بيروت ١٣٩٥هـ .

٢٣- عبد الفتاح جلال . من الأصول التربوية في الإسلام . المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار في العالم العربي . سرس الليان . جمهورية مصر العربية ١٩٧٧ م.

٢٤- عبد الوهاب المسيري (محرر / موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية مؤسسة الأهرام) . القاهرة ١٩٧٤ م .

٢٥- علي عبد الحليم محمود . الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر . دار البحوث العلمية - الكويت - ١٣٩٩ هـ .

٢٦- علي محمد جريشة ومحمد شريف الزيبق . أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي . دار الإعتصام . القاهرة ١٣٩٧هـ .

٢٧- عماد الدين خليل . تهافت العلمانية . مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٣٩٥هـ .

٢٨- قيصر أديب مخول . المسلمون في الفلبين . تعريب نبيل صبحي . مؤسسة الرسالة . بيروت .

٢٩- مارشال ماك لوهان . كيف نفهم وسائل الاتصال . ترجمة خليل صابات وآخرين . دار النهضة العربية . القاهرة ١٩٧٥ م .

٣٠- محمد ابراهيم نصير . الإعلام وأثره في نشر القيم الإسلامية وحمايتها . دار اللواء . الرياض ١٩٨٠ م .

٣١ـ محمد أسد . الإسلام على مفترق الطرق . ترجمة عمر فروج . دار العلم للملايين . الطبعة الثامنة ١٩٧٤ م.

٣٢ـ محمد السيد غلاب وآخرون . البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر . الرياض ـ ١٣٩٩ ـهـ.

٣٣ـ محمد الغزالي . خلق المسلم . دار الكتب الحديثة . الطبعة السابقة. القاهرة . القاهرة ١٣٨٤ هـ .

٣٤ـ محمد جميل بيهم . الحلقة المفقودة في تاريخ العرب . مكتبة الحلبي . القاهرة ١٩٥٠ م.

٣٥ـ محمد سعيد رمضان البوطي . تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث . المكتبة الأموية . دمشق ١٣٨٠هـ .

٣٦ـ محمد صلاح الدين مجاور . تدريس التربية الإسلامية ـ أسسه وتطبيقاته التربوية . دار القلم . الكويت ١٣٩٦هـ.

٣٧ـ محمد عزة دروزة . القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها . الجزء الأول والثاني . بيروت . الطبعة الثانية . ١٩٥٩مـ المكتبة العصرية .

٣٨ـ محمد عزيز الحبابي . من المنغلق إلى المنفتح . ترجمة محمد برادة . الأنجلو المصرية . الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٧٣ م.

٣٩ـ محمد قطب . منهج التربية الإسلامية . دار الشروق ـ الطبعة الثانية . بيروت .

٤٠ـ محمد محمد حسين . الإسلام والحضارة الغربية . المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٣٩٩ ـهـ.

٤١ـ محمد محمد حسين . حصوننا مهددة من داخلها . المكتب الإسلامي . بيروت .

٤٢- مصطفى خالدي وعمر فروخ . التبشير والاستعمار في البلاد العربية . الطبعة الخامسة . بيروت ١٩٧٣ م .
٤٣- هـ. فيشر . تاريخ أوروبا في العصور الوسطى . الجزء الأول . ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني . دار المعارف . القاهرة ١٩٧٦



الفهرســـت

الموضـــوع | الصـفحة